

T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

**MEVKİFÜ'L-İMÂM MOLLÂ ALİYYÜ'L-KÂRİ MİNE'L-EHÂDİSİ'L-
MÜŞKİLE Fİ'S-SİFÂTİ'L-HABERİYYE FÎ KİTÂBİHÎ MİRKÂTİ'L-
MEFÂTÎH**

YÜKSEK LİSANS TEZİ
YOUSEF JJEH

Enstitü Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri
Enstitü Bilim Dalı: İslam Araştırmaları (Arapça)

Tez Danışmanı: Dr. Öğr. Üyesi Najmeddın Allissa

NİSAN 2019

T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

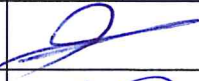
MEVKİFÜ'L-İMÂM MOLLÂ ALİYYÜ'L-KÂRİ MİNE'L-EHÂDİSİ'L-
MÜŞKİLE Fİ'S-SİFÂTİ'L-HABERİYYE FÎ KİTÂBİHÎ MİRKÂTİ'L-
MEFÂTÎH

YÜKSEK LİSANS TEZİ
YOUSEF JİJEH(167225008)

Enstitü Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri

Enstitü Bilim Dalı: İslam Araştırmaları (Arapça)

Bu tez .../.../2019 tarihinde aşağıdaki jüri tarafından oybirliği/oyçokluğu ile kabul edilmiştir.

	Adı SOYADI	Kanaati			İmza
Jüri Başkanı (Danışman)	Dr. Öğr. Üyesi Najmeddin Allissa	☒ Kabul	☐ Düzeltme	☐ Ret	
Jüri Üyesi	Dr. Muhamet Beyler	☒ Kabul	☐ Düzeltme	☐ Ret	
Jüri Üyesi	Dr. Öğr. Üyesi Hamzah	☒ Kabul	☐ Düzeltme	☐ Ret	

Ak Bakri

SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ
YÜKSEK LİSANS İNTİHAL YAZILIM RAPORU
BEYAN BELGESİ

Tez Başlığı: Mevkifül-imâm Mollâ Aliyyü'l-kârî mine'l-ehâdisi'l-müşkile fi's-sıfâtî'l-haberiyye fi kitabihî Mirkâtî'l-mefâtih

Yukarıda başlığı belirtilen tez çalışmamın toplam 183 sayfalık kısmına ilişkin aşağıda belirtilen filtrelemeler uygulanarak alınmış olan ve 09/04/2019 tarihinde aşağıda ismi yazılı araştırma görevlisi tarafından şahsıma iletilen TURNITIN intihal tespit programı raporuna göre tezimin benzerlik oranı % 6'dır.

Uygulanan filtrelemeler:

1. Kaynakça hariç,
2. Alıntılar dâhil,
3. 5 kelimedenden daha az örtüşme içeren metin kısımları hariç.
4. Çeviri Eşleştirme etkin

Bu bilgiler doğrultusunda tez çalışmamın herhangi bir intihal içermediğini; aksinin tespiti halinde doğabilecek her türlü hukuki sorumluluğu kabul ettiğimi ve yukarıda vermiş olduğum bilgilerin doğru olduğunu beyan ederim.

Gereğini saygılarımla arz ederim.

İmza



Adı SOYADI : Yousef JIJEH

Öğrenci Numarası : 167225008

Ana Bilim Dalı : Temel İslam Bilimleri İslam Araştırmaları (Arapça)

Programı : Tezli Yüksek Lisans

Türü : () Proje (X) Yüksek Lisans Tezi () Doktora Tezi

Taramayı Yapan

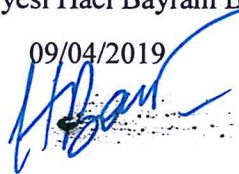
Danışman

Dr. Öğr. Üyesi Hacı Bayram BAŞER

Dr. Öğr. Üyesi Najmeddin ALLISSA

09/04/2019

09/04/2019



ÖNSÖZ

شكر وإهداء

الحمد لله الذي أعانني على إتمام بحثي في أحاديث الصفات المشككة الواردة في كتاب (مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح) وأكرمني بالاستفادة من أقوال الإمام القاري في إزالة إشكالاتها الظاهري، فأزلت الإشكال عن الأحاديث التي توهم نسبة الجوارح للباري سبحانه وأزلت إشكال ما يوهم معانٍ لا تليق بالمولى كالضحك والفرح والتردد والنزول وأمثالها من أفعال الباري سبحانه وكذلك دحضت شبهة كون الباري في مكان أو جهة بعون الله تعالى، وقد وفقني سبحانه للغوص في كتب المحدثين لاستخراج كنوز علومهم وخاصة ما تعلق منها بهذه الأحاديث لتشد أزر كلام الإمام القاري وتكون نورا على نور كالبنيان المرصوص في وجه شبهات المجسمين. أحمد الله تعالى حمداً يوافي نعمه ويكافئ فضله حمداً منه إليه فما أحد قادر على حمده بما هو أهله إلا هو سبحانه وتعالى ثم ننني الشكر بالصلاة والسلام على سيد الكونين وسبب سعادة الثقلين ورحمة العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله الكرام المتقين وأصحابه الطيبين وزوجاته الطاهرات الحصينات أمهات المؤمنين وعلى تابعيه ومحبيه أجمعين.

أتوجه بالشكر لوالدي الكريمين الذين إن أجرى الله على يدي خيراً فبصحاتهما في المرتبة الأولى فما رأيت منهما إلا فضلاً وإحساناً وشحداً لهما في طلب العلم على الدوام فجزاهما الله عني خيراً كما أتقدم بالشكر والدعاء بالخير لمشايخي جميعاً وأخص منهم من علمني القرآن منذ حداثة الأسنان سيدي الشيخ (محمد خير حلواني) فجزاه الله خيراً عني ثم أخصص شكراً جزيلاً وثناءً جميلاً لأستاذي الدكتور نجم الدين العيسى الذي تفضل علي بقبول الإشراف على رسالتي وحسن تواضعه معي وإرشاده وتوجيهاته فجزاه الله خيراً ثم أقدم من الشكر ببحوثة لجامعة يالوفا التركية التي فتحت مجالاً للعرب لإكمال مسيرتهم العلمية ومنحتني فرصة مواصلة التعلم والاستفادة من العلماء الأكاديميين والتزود من معين العلم الشرعي الصافي أسأل الله أن يجعلها دائمة النفع للمسلمين بتخريج العلماء العاملين وكذلك شكري لكل من أعانني على إتمام هذا البحث من الإخوة طلاب العلم وزوجتي الكريمة البارة التي كانت عوناً كبيراً لي جزاهم الله جميعاً خيراً.

التاريخ

10.4.2019

اسم الباحث ورقمه

يوسف جيعة

167225008

İÇİNDEKİLER

فهرس المحتويات

1.....	المقدمة
3.....	خطة البحث
5.....	منهج البحث
6.....	الفصل الأول: التعريف بالمؤلف والكتاب ومصطلحات البحث
7.....	المبحث الأول: التعريف بالإمام القاري
13.....	المبحث الثاني: التعريف بكتاب مرقاة المفاتيح
16.....	المطلب الثالث: التعريف بمشكل الأحاديث وأحاديث الصفات (المتشابهات)
17.....	الفرق بين مشكل الحديث ومختلف الحديث
17.....	بيان اندراج أحاديث الصفات تحت مشكل الحديث
19.....	أوجه الإشكال في أحاديث الصفات
21.....	المبحث الرابع: الحكمة من وقوع المتشابهات وحكم الخوض فيها في رأي القاري
23.....	الفصل الثاني: أحاديث الصفات الخبرية الموهمة نسبة الجوارح لله تعالى
24.....	المبحث الأول: (الأحاديث المتعلقة باليد)
26.....	المعاني التي تحملها لفظة (اليد)
27.....	حديث: (اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة)
30.....	حديث: (والذي نفس محمد بيده)

- 31.....حديث: يد الله ملامى لا تغيضها نفقة... ويده الأخرى الميزان).
- 32.....حديث: (يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى.... ثم يطوي الأرضين بشماله).
- 33.....حديث: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين).
- 33.....حديث: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده).
- 34.....حديث: (وإن الله يتقبلها بيمينه).
- 34.....حديث: (يد الله على الجماعة).
- 34.....حديث: (وثلاث حثيات من حثيات ربي).
- 35.....حديث: (بكف واحد).
- 36.....المبحث الثاني: الأحاديث المتعلقة بالأصابع
- 36.....حديث: (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن).
- 40.....حديث: (فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي).
- 40.....رأي الإمام القاري في ابن تيمية
- 43.....حديث: (يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع).
- 45.....هل كان ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وتعجبه تصديقاً للحبر أم إنكاراً عليه؟.....
- 47.....المبحث الثالث: الأحاديث المتعلقة بالصورة
- 47.....حديث: (خلق الله آدم على صورته).
- 53.....حديث: (رأيت ربي في أحسن صورة).

55.....	المبحث الرابع: الأحاديث المتعلقة بالوجه.....
55.....	حديث: (فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله).....
56.....	حديث: (ابتغاء وجه الله).....
57.....	المبحث الخامس: الأحاديث المتعلقة بالساق.....
58.....	حديث: (وذلك يوم يكشف عن ساق).....
58.....	حديث: (يكشف ربنا عن ساقه).....
61.....	المبحث السادس: الأحاديث المتعلقة بالرجل أو القدم.....
42.....	حديث: (فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله).....
66.....	المبحث السابع: الأحاديث المتعلقة بالحقوقين.....
66.....	حديث: (قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن).....
69.....	المبحث الثامن: الأحاديث المتعلقة بالعين.....
71.....	الفصل الثالث: أحاديث الصفات الخيرية التي يوهم ظاهرها قيام الحوادث بذات الله تعالى.....
72.....	المبحث الأول: حديث الرحمة، حديث: (إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة).....
75.....	المبحث الثاني: أحاديث الغضب.....
75.....	حديث: (إن رحمتي سبقت غضبي).....
76.....	حديث: (أغيط رجل على الله).....
78.....	المبحث الثالث: أحاديث الضحك والتعجب.....

80	حديث: (ثلاثة يضحك الله إليهم).....
80	حديث: (يضحك الله تعالى إلى رجلين).....
80	حديث: (يعجب ربك من راعي غنم).....
80	حديث: (إن ربك يعجب من عبده).....
80	حديث: (عجب ربنا من رجلين).....
81	حديث: (عجب الله من قوم).....
81	حديث: (من ضحك رب العالمين).....
84	المبحث الرابع: حديث التردد.....
84	حديث: (وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن).....
87	المبحث الخامس: أحاديث الملal والنسيان.....
88	حديث: (فإن الله لا يمل حتى تملوا).....
90	حديث: (فإني قد أنساك كما نسيتني).....
91	المبحث السادس: أحاديث النزول.....
92	حديث: (ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا).....
95	حديث: (إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان).....
95	حديث: (إذا كان يوم عرفة إن الله ينزل).....
101	المبحث السابع: أحاديث الإتيان.....

102.....	حديث: (أتاهم رب العالمين).....
103.....	حديث: (ومن أتاني يمشي أتيتته هرولة).....
106.....	المبحث الثامن: أحاديث الغيرة.....
107.....	حديث: (والله أغير مني).....
110.....	المبحث التاسع: أحاديث المعية.....
110.....	حديث: (وأنا معه إذا ذكرني).....
108.....	حديث: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به).....
109.....	حديث: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني).....
115.....	المبحث العاشر: أحاديث الفرح.....
115.....	حديث: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده).....
118.....	المبحث الحادي عشر: أحاديث التأذي.....
119.....	حديث: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر).....
119.....	حديث: (ومن آذاني فقد آذى الله).....
121.....	المبحث الثاني عشر: أحاديث: (الله الطبيب) و (الله هو الدهر).....
125.....	الفصل الرابع: أحاديث الصفات الخيرية الموهمة نسبة المكان أو الجهة إلى الله تعالى.....
126.....	المبحث الأول: حديث العماء (أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال كان في عماء).....
131.....	المبحث الثاني: الأحاديث المتعلقة بالفوقية على العرش والكرسي.....

132.....	حديث: (من سماء إلى سماء ثم الله فوق ذلك).....
134.....	حديث: (لو أنكم دليتم بجبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله).....
136.....	حديث: (أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته هكذا" .. "وإنه ليئط أطيط الرجل بالراكب).....
137.....	حديث: (ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسیه فيئط).....
140.....	المبحث الثالث: حديث الدار.....
140.....	حديث: (فأستأذن على ربي في داره).....
142.....	المبحث الرابع: أحاديث: (من في السماء).....
144.....	المبحث الخامس: أحاديث توهم كون الله في السماء.....
145.....	حديث الجارية (أين الله).....
146.....	حديث: (ربنا الله الذي في السماء).....
146.....	حديث: (إلى السماء التي فيها الله).....
151.....	الخاتمة والنتائج والتوصيات.....
153.....	فهرس الآيات القرآنية.....
156.....	فهرس الأحاديث النبوية.....
159.....	فهرس الأعلام المترجم لهم.....
160.....	المصادر والمراجع.....

Yalova University Insitute of Social Sciences Master Thesis Summary

Tezin Başlığı: Mevkifül-imâm Mollâ Aliyyü'l-kârî mine'l-ehâdîsi'l-müşkile fi's-sıfâtî'l-haberiyye fî kitabihî Mirkâtî'l-mefâtîh

Tezin Yazarı: YOUSEF JIJEH Danışman: Dr. Öğr. Üyesi Najmeddın Allissa

Kabul Tarihi:

Sayfa Sayısı: vii (ön kısım)

Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri Bilim Dalı: İslam Araştırmaları (Arapça)

This message has been subjected to research in the noble Hadiths related to the attributes of God Almighty, which is manifest and difficult to understand the meaning of them only on the established in science, and since these honest conversations are reported in the Hadith books and were not the year of the former scientists gathered in one place, but judged the response to them. Land I have seen the duty to close their excuses and extract and disseminate the words of the modern scholars to understand these noble traditions, which hates lofty purposes, high meanings, and attachments related to Jannab al-Bari (Glory be to Him) We know is the second Revelations, which is described to Murad God from the Koran. And to be a more clear and precise subject focused on the words of a world of imams working is Imam Mullah Ali Continental, and to prolong the search devoted one of his books is one of the greatest annotations is the keys to explain the lamp lantern. The study began with the definition of the continental Imam and his book and the shape of the ahaadeeth and the hadiths of adjectives and the statement of the face of their problems in general and the doctrines of the scholars in dealing with them in general, and then searched for the hadiths of the characteristics of the problem in Al-Muraqa'a and collected them, and he mentioned the words of Imam Al-Qaradhi after each hadeeth and how to remove it, Then I compared his words with the words of the imams of the modernists, and I have suggested with guide. It was the beginning of the hadiths, which purport to attribute to the Almighty Allaah the hand, the fingers, the face, the leg, the feet, and the right, and then I have dealt with the hadiths concerning the deeds of the Almighty, which makes the appearance of something that is not fitting for Allaah. , And get off, and removed the apparent problem through the words of the Imam of the first and then from the words of the investigators of the modernists, a comprehensive statement with the help of God Almighty, and then in the last sections dealt with the conversations that the apparent appearance of the Almighty in a place in heaven, or on the throne, or The And concluded the letter with the most important conclusions and recommendations. The most prominent of these was that the aspect of the problem in these hadeeths stems from a defect in the hearer, not in the hadith. The Hadith is a strong pillar of this true religion, which is not falsehood either from his hands or from behind him.

Keywords: Hadiths- Characteristics- Interpretation- Authorization- Problematic- issue.

Yalova Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Yüksek Lisans Tez Özeti Tezin Başlığı: Mevkifül-imâm Mollâ Aliyyü'l-kârî mine'l-ehâdisi'l-müşkile fi's-sıfâtî'l-haberiyye fî kitabihî Mirkâtî'l-mefâtîh	
Tezin Yazarı: YOUSEF JIJEH Danışman: Dr. Öğr. Üyesi Najmeddın Allissa	
Kabul Tarihi:	Sayfa Sayısı: vii (ön kısım)
Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri Bilim Dalı: İslam Araştırmaları (Arapça)	
Bu tez, alimlerin dışındakilerin zahiri manasından kastedilen anlamı anlamakta zorlanacakları Allah'ın (c.c) sıfatlarıyla alakalı hadis-i şerifleri incelemektedir. Bu içerikteki hadis-i şerifler hadis kitaplarında çokça bulunur. Bu tarz hadisleri tek bir yerde toplamak eski alimlerin uyguladığı bir yöntem değildi. Bununla beraber onlar, Müşebbihe ve Mücessime'nin görüşlerine dayanak olarak kullandıkları bu tarz hadislerin geçtiği yerde onlara cevap verdiler. Bu araştırma, Allah-u Teala'nın zatıyla alakalı yüce amaçları ile manaları olan, terğib (rağbet ettirme) ve terhib (sakındırma) içeren hadislerin anlamları konusunda ilim ehli hadisçilerin görüşlerini ortaya çıkarıp açıklamaktadır. Çünkü hadisler vahyin ikinci bir türü ve Allah'ın Kur'an ayetlerindeki muradının açıklayıcısıdır. Konunun daha açık ve sınırlı olması için hadis alimlerinden İmam Molla Aliyyu'l-Kârî'nin sözlerine odaklanılmaktadır. Ayrıca yine geniş kapsamlı olmaması için araştırma, en büyük hadis şerhlerinden olan Aliyyu'l-Kârî'nin <i>Mirkâtü'l-Mefâtîh fî Şerh-i Mişkâtî'l-Mesâbih</i> adlı kitabına hasredilmektedir. Çalışmaya İmam Aliyyu'l-Kârî'nin biyografisi ve eserlerinin tanıtımıyla başlanılmaktadır. Devamında kısaca müşkil hadis kavramı, Allah'ın sıfatlarıyla ilgili olan hadisler, bu hadislerin müşkillikleriyle ilgili açıklamalar ve alimlerin bu hadislerle ilgili yorumlamaları ele alınmaktadır. Sonrasında <i>Mirkat</i> adlı kitaptaki Allah'ın sıfatlarıyla alakalı müşkil hadisler bir araya toplanıp incelenmektedir. Ayrıca Aliyyu'l-Kârî'nin onlarla ilgili ve onlardaki müşkilliği gidermeye yönelik açıklamaları dile getirilmektedir. Arkasından onun görüşleri diğer hadis alimlerinin görüşleri ile karşılaştırılıp delillendirmede üstün olan görüş ortaya koyulmaktadır. Öncelikli olarak içerik olarak zahiren Allah'a (c.c) el, ayak, parmaklar ve yüz gibi uzuvlar nisbet edildiği izlenimi veren hadislerden başlanılmaktadır. Sonrasında zahiren Allah'ın (c.c) fiilleriyle alakalı zatına layık olmayacak durumlardan bahseden hadisler ele alınmakta ve Allah'ın (c.c) affetme, gülme, şaşırma, tereddüt etme, bıkmama, unutma, gelme, inme gibi sıfatlarla nitelenmesi açıklanmaktadır. Devamında bu zahiri durumlarla alakalı müşkillik Aliyyu'l-Kârî'nin açıklamaları veya diğer hadis alimlerinin açıklamaları ile ortadan kaldırılmaktadır. Son bölüm ise; zahiri mana itibari ile Allah'ın (c.c) varlığına semada, arşın üzerinde veya yerde bir mekân isnat ettiği zannedilen hadisleri içermektedir. Ayrıca hadislerle ilgili hadisçilerin açıklamalarından sonra akli delillendirmeler yapılmaktadır. Araştırma önemli sonuçların ve tavsiyelerin dile getirilmesi ile bitirilmektedir. Bu sonuçlardan en dikkat çeken şudur: Hadislerdeki müşkillik kendilerinden değil dinleyenlerdeki kusurlardan kaynaklanmaktadır. Hadis-i şerifler bu dinin sağlam bir dayanağıdır ve onlar doğru olmayan bir şey getirmezler.	
Anahtar Kelimeler: Hadisler- Sıfat- Yorumlama- Teslim- Müşkil- Müteşâbih.	

جامعة يالووا معهد العلوم الاجتماعية - التمهيد -

Tezin Başlığı: Mevkifül-imâm Mollâ Aliyyü'l-kârî mine'l-ehâdisi'l-müşkile fi's-sıfâtî'l-haberiyye fî kitabihî Mirkâtî'l-mefâtûh	
Tezin Yazarı: YOUSEF JIJEH Danışman: Dr. Öğr. Üyesi Najmeddın Allissa	
Kabul Tarihi:	Sayfa Sayısı: vii (ön kısım)
Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri Bilim Dalı: İslam Araştırmaları (Arapça)	
تعرضت هذه الرسالة للبحث في الأحاديث الشريفة المتعلقة بصفات الله سبحانه وتعالى التي يشكل ظاهرها ويعسر فهم المراد منها إلا على الراسخين في العلم، ولما كانت هذه الأحاديث الشريفة مبثوثة في كتب الحديث الشريف ولم تكن من سنة العلماء السابقين جمعها في مكان واحد بل أحكموا الرد عليها في مكانها وقد صارت ذريعة لأهل الفهم السقيم أصحاب الشُّبه والتجسيم؛ رأيت من الواجب علي سد ذرائعهم واستخراج ونشر كلام المحققين من المحدثين في فهم هذه الأحاديث الشريفة التي حوت مقاصد سامية ومعاني راقية وترغيبات وترهيبات متعلقات بجناب الباري سبحانه وتعالى، والحديث الشريف كما نعلم هو ثاني الوحيين وهو الموضح لمراد الله من القرآن الكريم. وليكون الموضوع أكثر وضوحًا ودقة ركزت على كلام عالم من الأئمة العاملين هو الإمام ملا علي القاري، ولكيلا يطول البحث خصصت كتابًا واحدًا من كتبه هو من أعظم الشروح وهو مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح. بدأت البحث بالتعريف بالإمام القاري وكتابته وبمشكل الأحاديث وبأحاديث الصفات وبيان وجه إشكالها إجمالًا ومذاهب العلماء في التعامل معها إجمالًا، ثم فتشت عن أحاديث الصفات المشككة في المرقاة وجمعتها وذكرت كلام الإمام القاري بعد كل حديث منها وكيفية إزالته للإشكال ثم قارنت كلامه بكلام الأئمة من المحدثين ورجحت مع الدليل. وكان ابتدائي بالأحاديث التي توهم نسبة الجوارح لله تعالى من اليد والأصابع والوجه والساق والقدم والحقوين، وبعد ذلك تناولت الأحاديث المتعلقة بأفعال المولى سبحانه مما يوهم ظاهرها شيئًا لا يليق بالله تعالى فذكرت وبينت اتصاف الرحمن بالرحمة، والضحك، والعجب، والتردد، والملال، والنسيان، والحجي، والنزول، وأزلت إشكالها الظاهري من خلال كلام الإمام القاري أولاً ثم من كلام المحققين من المحدثين ثانيًا بيانًا شافيًا واقفيًا بعون الله تعالى، ثم في آخر الأقسام تناولت الأحاديث التي يوهم ظاهرها كون الباري سبحانه وتعالى في مكان في السماء، أو فوق العرش، أو في الأرض، وكنت أختتم الردود بحجج عقلية مناسبة بعد كلام المحدثين، وختمت الرسالة ببيان أهم النتائج والتوصيات، وأبرزها كان أن جانب الإشكال في هذه الأحاديث إنما هو ناشئ من خلل في السامع وليس في الحديث الشريف. فالحديث الشريف ركن متين من هذا الدين القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.	
كلمات مفتاحية: أحاديث، الصفات، تأويل، تفويض، مشكل، متشابهات.	

السيرة الذاتية

يوسف جيعة، من مواليد حلب، عام 1991م، درس الابتدائية في حلب، والإعدادية والثانوية في مدرسة (الشعبانية) للتعليم الشرعي في حلب، وتخرج في كلية أصول الدين قسم الحديث الشريف في جامعة الأزهر الشريف في مصر، عام 2013م، مجاز بقراءة عاصم، يعمل الآن مؤذناً في جامع (محمد شيريكجي) في شورلو . تاكيرداغ، متزوج وأب لولد واحد.

ÖZGEÇMİŞ

1991 yılında Suriye'nin Halep kentinde doğdu. İlkokulu, orta okulu ve liseyi Halep'te bitirdi. Mısır de ezher Üniversitesi Usüluddin fakültesinden 2013 yılında mezun oldu. Âsım kıraatında icazetlidir. Şu anda Takirdağ deki Mehmet Şirikçi camiinde müezzın olarak çalışmaktadır. Evli ve bir çocuk babasıdır.

C.V

was born in Aleppo in 1991. He studied the elementary grade in Aleppo, and the preparatory and secondary education in Al-Shaabanieh School for Sharia Teaching in Aleppo. A graduate of the Faculty of Essentials of Religion, Department of Hadith Sharif in the University of Al-Azher Al-Sharif in Egypt in 2013. He was licensed to read the Holy Quran according to ASIM Reading. Now he works a muezzin in Mohammad Shirakji Mosque in Shorlo. Takerdagh. He is married with a son.

الجمهورية التركية

جامعة يالووا

معهد العلوم الاجتماعية

موقف الإمام ملا علي القاري من الأحاديث المشككة في الصفات الخيرية في كتابه مرقاة
المفاتيح

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحديث الشريف وعلومه

الباحث: يوسف محمد عادل جيعة

القسم في المعهد: العلوم الإسلامية الأساسية

الفرع في المعهد: العلوم الإسلامية الأساسية

المشرف: الدكتور. نجم الدين العيسى

نيسان - 2019

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، باعث الأنبياء والمرسلين، وموفق ورثتهم العلماء المخلصين، ليفتح بما يفيض عليهم أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً، ثم الصلاة والسلام المحفوظان بالإكرام، على سيدنا محمد خير الأنام، وإمام الرسل العظام، المولى العليّ الأميّ القاري، المترقي في مرقاة الفتوح اللدنيّ، المستمدّ من مشكاة الوحي مصابيح العناية، ومفاتيح الهداية، ثم الرضا عن حملة الدين المتين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن علم الحديث النبوي الشريف وما تفرع عنه من علوم؛ من أشرف العلوم الشرعية، وأعظمها أهمية، لشرف مَصْدَرِها ومتعلّقها، فأما مصدرها: فهي أحد الوحيين، وهي الذكر الذي قال الله تعالى فيه: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: 44] وأما متعلّقها: فهي أقوى العلوم اتصالاً بكلام الله عز وجل الذي هو أشرف الكلام، وصلّيها به من حيث كونها شارحة لمعانيه، ومبيّنة لمبانيه، ومقيّدة لمطلّقه، وموضحة لمشكّله، وخادمة لمقاصده، ولذلك اشتركت مع القرآن الكريم في حفظ الله عز وجلّ لهما، قال الله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: 9]. ولما كان القرآن معجزاً في بلاغته، والنبيّ صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد بيّده أنه من قريش؛ كان الوحيان على قسمين: محكمّ: متبادرّ معناه بدون تكلف، ومتشابهة: يحتاج إلى تأمل العلماء. وهذا المتشابه: هو الذي يتبعه أهل الزيغ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وتحريفه عن مقصوده، وهو الذي يتخذ أهل الفتنة وأعداء الأمة لِيُشَوِّشُوا على المسلمين صفاء تسليمهم للباري، ويُرْزِلُوا قواعد إيمانهم بمشابهات حول النصوص، فمرةً بإنكارها بحجة مخالفة العقل، وإن كانت صحيحة الإسناد، ومرةً بتلبيس معانيها على العامة، ومرةً بدعوى التعارض فيما بينها، ولكن الله عز وجلّ هيأ لهذا الدين رجالاً مخلصين، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وهم العدول من كل خلف، وهم الراسخون في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه، ويقولون آمنا به. وهؤلاء العلماء؛ منهم من أفرد كتاباً أو أكثر في الأحاديث التي يوهّم ظاهرها الإشكال، ومنهم من كانت إزالته للإشكال الظاهريّ مُنْدرِجَةً ضِمْنَ شرحه لكتاب من كتب الحديث الشريف، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام، من وُصف بمجدد الألفيّة، من علماء الحنفية، الشيخ (ملا علي القاري) في شرحه العظيم (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)، ولما كانت الأحاديث التي يوهّم ظاهرها الإشكال تنقسم إلى عدة أقسام؛ وقع الاختيار على أهمّ قسم منها، وهو: (أحاديث الصفات) التي تعلّق بها من أهل الزيغ والجهل جماعات، أنكروها تبعاً للهوى وفسروها تبعاً للبدعات، فأحببت أن أجمع هذه الأحاديث التي وردت في المرقاة، وكلام الإمام القاري عليها، مع مقارنته بكلام العلماء المحدثين، ليكون بحثاً يزيل الشبهات ويُقِيلُ العثرات من أمام قُفُهِ المسلمين، للأحاديث التي وصفت ربّ العالمين، سبحانه وتعالى.

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث في الجوانب التالية:

- إزالة تَوَهُّم الإشكال عما قد يلابس الفهم في الأحاديث التي ذكرت صفات الباري سبحانه وتعالى.
- معرفة آراء واحد من علماء الأمة الذين خدموا السنة النبوية وهو الإمام ملا علي القاري.
- وإظهار بعض ما حواه "كتاب مرقاة المفاتيح" - الذي هو أعظم شروح كتاب "مشكاة المصابيح" وأوسعها - من فوائد وفرائد.

أسباب اختيار البحث:

- سهولة تناول آراء علماء أهل الحديث المبنوثة في كتب الشروح، ليسهل على القراء فهم مشكل أحاديث الصفات بأوجه متعددة، مجموعة في مكان واحد، في زمنٍ كَلَّت فيه الهمم عن البحث.
- ردُّ شُبُه من يغالطون في فهم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.
- وكان أحد البواعث على اختيار هذا البحث: أهمية كتاب مرقاة المفاتيح الذي جمع الشروح والخواشي بأسلوب حسن متناسق، ولاستخراج العلوم والحكم التي رُكِّزَت في فكر الإمام القاري وهو واحدٌ مُمَّنٌ وُصف بالمجددية على رأس الألف الهجرية.

الدراسات السابقة:

1- (ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات) للباحث: مساعد المطرني، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة.

ولم يتحدث الباحث فيها عن الأحاديث المشككة في الصفات الخبرية ولا عن موقف الإمام القاري منها ولم ينقل عن مرقاة المفاتيح إلا نادرًا جدًا... ثم تكلم الباحث على مسائل الاعتقاد من منظور ابن تيمية وقارن عقيدة الإمام القاري بعقيدة ابن تيمية وابن القيم واستنتج أن الإمام القاري ليس على مذهب أهل السنة والجماعة الذي هو مذهب أهل الحديث لمخالفته لابن تيمية وابن القيم. وهذا الهجوم على إمام عظيم كان في وقته شيخ عصره وكتبه في العقيدة إلى يومنا هذا تُدرَّس وينتفع بها في مختلف أصقاع الأرض؛ وتغليط إمام كالإمام القاري في عقيدته بعد موافقته للأئمة ولجمهور المسلمين فيها وبعد تعديل العلماء له؛ هو ابتعادٌ عن الإنصاف.

وسيتبين في طيات هذا البحث أن الإمام القاري كما أنه كان إمامًا في كل العلوم كذلك كان إمامًا في عقيدته، وأن الإمام القاري مثله مثل جمهور أهل الحديث هو من رؤوس أهل السنة والجماعة. وذلك من خلال موقفه من أحاديث الصفات التي هيأ الله لها الراسخين في العلم.

2- (الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث) كتبها الدكتور: خليل إبراهيم قوتلاي، لنيل درجة الماجستير، وقد نوقشت بجامعة أم القرى في مكة المكرمة سنة 1406 هـ، وطبعت سنة 1408 هـ.

وهاتان الرسالتان هما الثان تناولتا جانبًا من علوم الإمام القاري بما يتشابه نسبيًا مع بحثنا هذا لكن كلتاها لم يتعرضا للصفات الخبرية ولا لموقف الإمام القاري منها وكان هذا صلب بحثنا.

خطة البحث

يتألف البحث من: مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

المقدمة: وفيها أهمية البحث والباعث على اختياره والدراسات السابقة وخطة البحث والمنهج المتبع فيه.

الفصل الأول: التعريف بالمؤلف والكتاب ومصطلحات البحث، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالإمام ملا علي القاري.

المبحث الثاني: التعريف بكتاب مرقاة المفاتيح.

المبحث الثالث: التعريف بمشكل الأحاديث وفيه مسائل:

المطلب الأول: تعريف المشكل لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: الفرق بين المشكل والمختلف والمتشابه.

المطلب الثالث: بيان اندراج أحاديث الصفات (المتشابهات) تحت المشكل.

المطلب الرابع: أوجه الإشكال في أحاديث الصفات.

المبحث الرابع: الحكمة من وقوع المتشابهات وحكم الخوض فيها في رأي الإمام القاري.

الفصل الثاني: أحاديث الصفات الخيرية الموهمة نسبة الجوارح لله تعالى.

وفيه مباحث: المبحث الأول: الأحاديث المتعلقة باليد.

المبحث الثاني: الأحاديث المتعلقة بالأصابع.

المبحث الثالث: الأحاديث المتعلقة بالصورة.

المطلب الرابع: الأحاديث المتعلقة بالوجه.

المبحث الخامس: الأحاديث المتعلقة بالساق.

المبحث السادس: الأحاديث المتعلقة بالرجل أو القدم.

المبحث السابع: الأحاديث المتعلقة بالحقوقين.

المبحث الثامن: الأحاديث المتعلقة بالعين.

الفصل الثالث: أحاديث الصفات الخيرية التي يوهم ظاهرها قيام الحوادث بذات الله تعالى.

وفيه مباحث: المبحث الأول: حديث الرحمة.

المبحث الثاني: أحاديث الغضب.

المبحث الثالث: أحاديث الضحك والتعجب.

المبحث الرابع: حديث التردد.

المبحث الخامس: أحاديث الملal والنسيان.

المبحث السادس: أحاديث النزول.

المبحث السابع: أحاديث الإتيان.

المبحث الثامن: أحاديث الغيرة.

المبحث التاسع: أحاديث المعية.

المبحث العاشر: أحاديث الفرح.

المبحث الحادي عشر: أحاديث التأذي.

المبحث الثاني عشر: أحاديث (الله الطيب) و (الله هو الدهر).

الفصل الرابع: أحاديث الصفات الخيرية الموهمة نسبة المكان أو الجهة إلى الله تعالى.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: حديث العماء.

المبحث الثاني: الأحاديث المتعلقة بالفوقية على العرش والكرسي.

المبحث الثالث: حديث الدار.

المبحث الرابع: أحاديث (من في السماء).

المبحث الخامس: أحاديث توهم كون الله في السماء.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المنهج المتبع في البحث

- 1- اتبعت في البحث المنهج الاستقرائي الوصفي. فطالعت أحاديث مشكاة المصابيح واحدًا واحدًا، واستخرجت منها مشكل أحاديث الصفات الخيرية وجمعتها، وهو استقراء تام، ثم إنني صنفتُ كلام الإمام القاري وبيّنت من وافقه من العلماء على موقفه ومن خالفه، وضممت إلى أقواله أقوال غيره من المحدثين ليكون أجمع للفائدة.
- 2- عزوت الآيات الكريمة بذكر اسم السورة ورقم الآية.
- 3- خرجت الأحاديث الشريفة. فما كان منها في أحد الصحيحين اكتفيت بعزو الحديث إليه. وما لم يكن في أحد الصحيحين خرجته من السنن الأربعة. وإن لم يكن في السنن الأربعة، خرجته من مظانه من أحد كتب السنة المشهورة.
- 4- ما كان من الأحاديث الشريفة في الصحيحين أو أحدهما أغناني عزوه إليهما عن الحكم عليه. وما لم يكن في الصحيحين أو أحدهما؛ فإن وجدت فيه حكمًا للأئمة نقلته، وإن لم أجد درست إسناده.
- 5- جعلت بجانب الأحاديث المدروسة رقمًا تسلسليًا وبجانبه رقمه في مرقاة المفاتيح.
- 6- عزوت أقوال العلماء إلى مصادرها فإن لم أجد فإلى أقرب مرجع أخذ عنه.
- 7- أبدأ المسألة بأحاديث الباب ثم أبين وجه الإشكال إذا لزم الأمر.
- 8- ثم أنقل كلام الإمام القاري خلف كل حديث مقتصرًا على ذكر الشاهد، ثم أذكر بعض نصوص العلماء إن لزم، ثم الترجيح.
- 9- اعتمدت في شرح الأحاديث أقوال علماء الحديث فقط ولم أنقل عن غيرهم من الأصوليين وغيرهم إلا نادرًا جدًا.
- 10- التزمت البحث العلمي المتجرد متجنبًا الميولات أو العواطف في تحقيق المسائل فما وافق الأدلة الصحيحة في نظر الباحث أيدته وما خالفها بينت وجه مخالفته.
- 11- آثرت الاختصار في كل مسائل البحث على ما يفني بالمقصود وجانب الاستطراد والتكرار في كل مسائل البحث.
- 12- سعيت جاهدًا أن لا يصدر مني حكم إلا مستندًا إلى دليل من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو أقوال العلماء المحققين.
- 13- ما كان من نص غامض وضحته، وما كان من وهم بعض العلماء بينته وأزلت الوهم.
- 14- لخصت أفكار وتأويلات جميع المسائل في بداية المسألة إذا كان لها حديث واحد، أو كانت الأوجه تصلح لجميع الأحاديث. وفي نهاية كل حديث على حدة إذا كانت أوجه تأويلها غير مشتركة. لتسهيل جمع زبدة المسائل.
- 15- بينت معاني الكلمات الغريبة من مصادرها المختصة.
- 16- تركت ترجمة بعض الأئمة لشهرتهم ولكيلا يطول البحث.
- 17- استعملت الأقواس { } للآيات الكريمة، و () للأحاديث الشريفة، و () و " لنص الإمام القاري ولنصوص العلماء.

الفصل الأول

التعريف بالمؤلف والكتاب ومصطلحات البحث، وفيه مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالإمام ملا علي القاري.

المبحث الثاني: التعريف بكتاب مرقاة المفاتيح.

المبحث الثالث: التعريف بمشكل الأحاديث

المبحث الرابع: الحكمة من وقوع المتشابهات وحكم الخوض فيها في رأي الإمام القاري.

المبحث الأول

التعريف بالإمام القاري

اسمه ونسبه:

علي بن سلطان محمد، الملا القاري، الهروي مولدًا، المكي نشأً، الحنفي مذهبًا. وكلمة "ملا" كلمة فارسية، ومعناها عندهم: العالم المتبحر الكبير الشأن، وبعضهم يسميه: "المولى علي القاري" والقاري لأنه كان قارئًا عالمًا بالقراءات.

واختلف من ترجم له في اسم أبيه أكان علي بن سلطان بن محمد⁽¹⁾؟ أم علي بن (سلطان محمد)⁽²⁾؟ وعادة العجم أن يموأ أبناءهم أسماء مزدوجة مثل يوسف أمير ومحمد عادل صادق محمد، واسم والده (سلطان محمد). ومن طالع مقدمة مرقاة المفاتيح يجد أن الإمام القاري قال ما نصه: (أما بعد؛ فيقول أفقر عباد الله الغني الباري علي بن سلطان محمد الهروي القاري) وهذا خير ما يقطع الاختلاف. ولقبه: نور الدين، وكنيته: أبو الحسن⁽³⁾.

مولده ونشأته:

لم يذكر أحد من ترجم له - ممن أذكرهم في هذا المطلب - سنة ولادته على التحديد، وكان مولده في مدينة هراة أعظم مدن خراسان التابعة لجمهورية أفغانستان. حفظ القرآن في هراة وباشر طلب العلم فيها فأخذ عن شيوخها، ومنهم الشيخ معين الدين بن رزين الدين الذي أخذ عنه الإمام القاري القرآن والتجويد وقد ذكر الإمام القاري في كتابه "شم العوارض"⁽⁴⁾ أن الشيخ معين الدين كان أول من استشهد في الفتنة التي حصلت في هراة عام (913هـ) واستيلاء إسماعيل بن حيدر الصفوي (المتوفى: 930هـ) وأن رجال إسماعيل الصفوي قتلوا الشيخ معين الدين وأحرقوه. وقد هاجر الشيخ علي القاري إلى مكة عند اندلاع تلك الفتنة، وهذا يدل على أن ولادة الشيخ القاري كانت قريبًا من سنة (900هـ) إذ إن وفاة شيخه الذي أخذ عنه القرآن كانت قريبة من عام (913هـ) فالإمام القاري من المعمرين، والله أعلم. نشأ الإمام القاري في مكة وأخذ عن علمائها فجمع الحسينيين من الأخذ عن علماء العجم والعرب. وكان قارئ الحرم وعاش مدرسًا ومفتيًا ومؤلفًا مستفيدًا من العلماء ومفيدًا طوال حياته الزاخرة بالعلم النافع. وكان زاهدًا ورعًا

¹ انظر: العصامي، عبد الملك بن حسين (المتوفى: 1111هـ)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، 1419هـ-1998م، (4/402). والآلوسي، نعمان بن محمود بن عبد الله، (المتوفى: 1317هـ)، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين. مطبعة المدني، 1401هـ - 1981م. (ص: 55).

² انظر: المحي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحي (المتوفى: 1111هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر - بيروت، (185/3)، والزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة: الخامسة عشر، 2002 م. (12/5-13).

³ تنبيه: يوجد (ملا علي القاري) غير صاحب المرقاة، متقدم عنه، وهو: (علي القاري الكوكبي) المعروف بملا علي القاري، وهو من النواظ، صاحب كتاب الشرح العربي على الغوثية. انظر: الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسيني (المتوفى: 1341هـ)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، 1999م، (765/6).

⁴ انظر: القاري، علي بن سلطان محمد، (المتوفى: 1014هـ)، شم العوارض في ذم الروافض، تحقيق: د. مجيد الخليفة، مركز الفرقان للدراسات الإسلامية. الطبعة: الأولى، 1425هـ-2004م، (ص: 42).

خطاطاً وكان يكتب كل سنة بخطه الجميل مصحفاً كريماً وعليه طُرر من القراءات والتفسير ويبيعه فيكفيه قُوتَه من العام إلى العام، وقيل كان يكتب مصحفين ويبيعهما ويتصدق بثمان أحدهما على الفقراء ويقتات بثمان الآخر⁽¹⁾.

شيوخه:

لم تذكر المصادر - التي أذكرها في هذا المطلب - التي ترجمت للشيخ القاري شيوخه الذين تلقى عنهم العلم في هرة غير الشيخ: معين الدين بن رزين الدين.

أما في مكة فقد وفقه الله تعالى للأخذ عن كثيرين من كبار أئمة الدين، فمنهم:

1- شيخ الإسلام أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المكي الشافعي (974هـ). تلميذ الشهاب الرملي (957هـ) وتلميذ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (925هـ)، درس في الجامع الأزهر في مصر ثم رحل إلى مكة. من مؤلفاته: "فتح الإله في شرح المشكاة" و "الصواعق المحرقة"، توفي بمكة ودفن بالمعلاة⁽²⁾.

وقد وصفه الإمام القاري في المرقاة بقوله: (شيخنا العالم العلامة، والبحر الفهامة، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، صاحب التصانيف الكثيرة، والتأليف الشهيرة، مولانا، وسيدنا، وسندنا الشيخ شهاب الدين ابن حجر المكي)⁽³⁾.

وهو المقصود عند الإطلاق، فإذا قال الإمام القاري: (قال ابن حجر) فمقصوده: هو شيخه ابن حجر الهيتمي، وقد عرف ذلك بالاستقراء ولم أجد من نص عليه، وإذا أراد الحافظ ابن حجر العسقلاني قيده بالعسقلاني، أو بكتابه "فتح الباري".

2- عطية السلمي: العلامة الفقيه المفسر زين الدين عطية بن علي بن حسن السلمي (983هـ)، يُعظمه الإمام القاري ويمدحه وينقل عنه كثيراً في المرقاة.

3- علي المتقي الهندي (975هـ) المحدث علي بن حسام الدين، صاحب "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال".

4- المحدث الفقيه عبد الله العمري السندي (984هـ).

5- قطب الدين محمد بن علاء الدين الهندي ثم المكي الحنفي (990هـ).

6- الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري (994هـ).

وكثير ممن ترجم للإمام القاري ذكر في شيوخه الشيخ "أبا الحسن البكري" (952هـ) ولكن الإمام القاري حين يذكره في المرقاة يقول عنه: (شيخ شيوخنا أبي الحسن البكري) وقد ذكر ابنه محمد في شيوخه، ولا يمكننا الجزم بكونه من شيوخه أم لا؛ إذ لم نُعلم السنة التي هاجر فيها الإمام القاري إلى مكة بالتحديد ولقاؤهما ممكن، فالله أعلم بالصواب⁽⁴⁾.

¹ انظر: اللكنوي، محمد عبد الحي (المتوفى: 1304هـ)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية. تحقيق: محمد النعساني، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1324هـ، (ص: 9/8)، وعبد الله مراد أبو الخير، (المتوفى: 1343هـ)، المختصر من كتاب نشر النور والزهري في تراجم أفاضل مكة. تحقيق محمد سعيد العامودي، وأحمد علي، دار المعرفة، السعودية، الطبعة الثانية، 1406هـ، (ص: 368). والزركلي، الأعلام، (12/5-13)، والقاري، علي بن سلطان محمد (المتوفى: 1014هـ)، المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية ببلد. د ت، 1398 هـ. (ص: 10). قلت: وقد اعتمد وقف الديانة في تركيا في أكثر من طبعة على نسخة من خط الإمام القاري، فكتب في بعض النسخ (على طرز علي القاري) (Aliyyü'l-kari-Tarzı). وهو متوفر في مكتبات ومساجد تركيا.

² انظر: ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد (المتوفى: 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م، (543/10).

³ الإمام القاري، علي بن (سلطان) محمد، (المتوفى: 1014هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. دار الفكر، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م، (29/1).

⁴ انظر: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (6/ 2478) و (1/ 385) و (2/ 608) و (3/ 996) و (4/ 1333) و (5/ 1792). وانظر: الحجي، خلاصة الأثر. (185/3). والدكتور محمد عبد الحليم الجشتي، البضاعة المزجاة لمن يطالع أحاديث المرقاة في شرح المشكاة. مكتبة إمدادية، ملتان-باكستان. د ت.

تلاميذه:

- تتلمذ عليه في مكة كثيرون لا يحصون، وكان من أبرزهم:
- 1- عبد القادر بن المحب الحسيني الطبري (1033هـ).
 - 2- المحدث جواهر نانت الكشميري (1026هـ).
 - 3- عبد الرحمن بن عيسى العمري المرشدي الحنفي مفتي الحرم المكي (1037هـ).
 - 4- محمد بن منلا فروخ / ابن فروخ / الموروي (1061هـ).
 - 5- الشريف الولائي الشهير بمولاي الشريف إجازة بواسطة والده. وغيرهم⁽¹⁾.

مؤلفاته:

لم يترك الإمام القاري علمًا من العلوم إلا وضرب فيه بسهم من التأليف أو التحقيق أو الشرح، وقد أورد الباحث: محمد بن عبد الرحمن الشّماع في بحث له مفتين وثلاثة وستين (263) مؤلفًا بين كتاب ورسالة⁽²⁾.

أذكر منها: في الحديث الشريف:

- 1 - "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" دار الفكر، بيروت. وفيه موضوع بحثنا وطبع في تسعة مجلدات، وطبعته دار الكتب العلمية، بيروت، في أحد عشر مجلدًا.
- 2 - "الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة". تحقيق محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- 3 - "جمع الوسائل في شرح الشمائل" تاريخ النشر: 1419هـ دار الفكر، بيروت.
- 4 - المصنوع في معرفة الموضوع "تحقيق: المحدث عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

في مصطلح الحديث:

- 5- شرح شرح نخبة الفكر "تحقيق: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، 1419هـ، دار الأرقم، بيروت-لبنان.

في تفسير القرآن الكريم:

- 6 - "أنوار القرآن وأسرار الفرقان" تحقيق الباحث: شعبان رمضان محمود رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة.
- 7 - "كتاب الجمالين حاشية على تفسير الجلالين" المطبعة الأدبية، القاهرة.

في القراءات:

- 8 - "المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية" تحقيق: أسامة عطايا، 1427هـ، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق.

في العقيدة:

- 9 - "ضوء المعالي شرح بدء الأمالي" تحقيق عبد الحميد التركماني، دار الفتح، عمان، الأردن.

والإمام القاري، شم العوارض، (ص: 6)، والإمام القاري، الأحاديث القدسية الأربعينية، تحقيق: عبد العزيز مختار، دار التوحيد للنشر والتوزيع - الرياض. (ص: 16).
والإمام القاري، موعظة الحبيب وتحفة الخطيب. تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي - الإمارات العربية المتحدة. الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م. (ص: 14).

¹ انظر: الحبي، خلاصة الأثر (2/ 369)، وعبد الحي الطالبي، نزهة الخواطر ونهضة المسامع والنواظر، (5/ 516)، والكتاني، محمد عبّاد الحّي بن عبد الكبير ابن محمد (المتوفى: 1382هـ)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثانية، 1982م، (2/ 1073)، ومساعد المطري، (ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات) رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة.

² انظر: محمد عبد الرحمن الشّماع، "الملا علي القاري: فهرس مؤلفاته وما كتب عنه" المنشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الأول، مطبوعات مركز جمعية المآجد للثقافة والتراث - دبي.

10 - "شم العوارض في ذم الروافض" تحقيق: مشهور حسن سلمان، 1428هـ، الدار الأثرية، عمان-الأردن.

في الفقه الحنفي:

11 - "فصول مهمة في حصول المتممة" تحقيق مشهور سلمان، دار عمان، الأردن.

12 - "فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية" تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

في التصوف:

13 - "شرح الرسالة القشيرية" في مجلدين.

14 - "الزبدة في شرح البردة" تحقيق: حمادة عزيز فرحات، دار الكتب العلمية⁽¹⁾.

عقيدته:

كان الإمام ملا علي القاري رحمه الله تعالى في اعتقاده ماتريدياً من أهل السنة والجماعة كجماهير أهل الحديث ويدل على ذلك شروحه لكتبهم كشرحه على "بدئ الأمالي"، وقد قال رحمه الله في المرقاة: {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ} {الفرقان: 43} فالمراد بالأهواء مطلقاً الاعتقادات، وبالمُنكَرَاتِ الأهويةُ الفاسدةُ التي غير مأخوذة من الكتاب والسنة، وقال ابن حجر: والأهواء المنكرة هي الاعتقادات الفاسدة المخالفة لما عليه إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي⁽²⁾. وكتبه في ذلك تُدْرَسُ ويعم نفعها إلى يومنا هذا، وعلى إمامته في العقيدة واتباعه لمذهب أهل السنة والجماعة إجماع العلماء، ولا حجة لمن يتكلم على عقيدة الإمام من المنتسبين لطلب العلم الشرعي الشريف بعد شهادة العلماء له.

أقوال العلماء فيه:

لقد أثنى كثير من العلماء على الإمام القاري وكان جانب حسن تصنيفه وتحقيقه بارزاً جداً في عباراتهم، فمنها ما قاله المحيّي (1111هـ): (نزيل مكة وأحد صدور العلم، فردّ عصره الباهر السميت في التحقيق وتنقيح العبارات، وشهرته كافية عن الإطراء في وصفه... واشتهر ذكره وطار صيته وألّف التأليف الكثيرة اللطيفة التأديبة، المحتوية على الفوائد الجليلة منها شرّحه على المشكاة في مجلدات وهو أكبرها وأجلها)⁽³⁾.

وقال العصامي (1111هـ): (وفيها توفي الشيخ الملا علي القاري بن سلطان بن محمد الهروي الحنفي الجامع للعلوم العقلية والنقلية والمتضلّع من السنة النبوية أحد جماهير الأعلام ومشاهير أولي الحفظ والأفهام)⁽⁴⁾.

وقال ابن عابدين (1252هـ): "قال الشارح في هامش "الحزائن": (نص على هذا مولانا منلا علي شيخ القراء بالمسجد الحرام في شرحه على لباب المناسك). وقال أيضاً: (العلامة علي القاري حاتمة الراسخين)⁽⁵⁾.

¹ انظر: العصامي، سمط النجوم، (4/ 402)، والقنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي (المتوفى: 1307هـ)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م. (ص: 390)، والزركلي، الأعلام (5/ 12-13).

² ملا علي القاري، مرقاة المفاتيح (4/ 1712). وانظر تفصيله للفرق في الاعتقاد: مرقاة المفاتيح (1/ 259).

³ المحيّي، خلاصة الأثر (3/ 185).

⁴ العصامي، سمط النجوم (4/ 402).

⁵ ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحنفي (المتوفى: 1252هـ)، رد المختار على الدر المختار. دار الفكر-بيروت. الطبعة: الثانية، 1412هـ - 1992م، (1/ 377) و (4/ 118).

وقال الآلوسي (1317هـ): "قال الحموي في ترجمته: علامة الزمان، وواحد العصر والأوان، وعالم بلد الله الحرام والمشاعر العظام. قرأ العلم ببلاذه ثم رحل إلى مكة المكرمة وتديّرها. وله شيوخ كثيرون وله رسائل لا تحصى كثرة"⁽¹⁾.

ومنهم من وصفه بالمجددية لسعة علمه ومشاركته في كثير من العلوم، قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (1417هـ): (هو نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المكي الحنفي المعروف بالقاري إذ كان إماما في القراءات وكان أحد صدور العلم الأفاضل وعمدة المحققين الأمثال، الإمام المحدث الفقيه الأصولي المفسر المقرئ المتكلم النظار الفرضي الصوفي المؤرخ اللغوي النحوي الأديب... ثم قال: "وقد آتاه الله الذكاء النادر والعقل الراجح والفهم الدقيق والصبر على التنقيح والتدقيق والشغف العجيب بالتحقيق مع البيان السهل القريب فأمكنه الغوص في جملة من العلوم وضرب منها بأوفر سهم فألف التآليف الكثيرة الفريدة في الفقه والحديث والتفسير والقراءات والأصول وعلم الكلام والفرائض والتصوف والتاريخ والطبقات والتراجم والأدب واللغة والنحو وعلم الوضع وغيرها بلغة سهلة متمعة وعبارات جامعة مانعة واستيفاء للبحث نادر غريب دون أن ترى أثر مسحة فيها لعجمة لغته الأولى" قال اللكنوي: "وكل مؤلفاته نفيسة في بابها فريدة ومفيدة بلغت إلى مرتبة المجددية على رأس الألف من الهجرة" وقد طبقت شهرته الآفاق في عصره ونال المقام العلمي الذي هو جدير به وما زال يفيد الناس بعلمه وآثاره حتى آخر حياته)⁽²⁾.

وقال الدكتور محمد عبد الحليم الجشتي: "قال العلامة الفقيه المحدث الشيخ محمد عبد الحي اللكنوي في فتاواه: (من يطالع خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر يتضح عليه أن الشيخ شهاب الدين الرملي والملا علي القاري كانا من المجددين)، ولا شك أنه من مجدي القرن العاشر فإنه أحيا علوم التفسير والقراءة والحديث والفقه وغيرها بجمعها وشرحها في كتبه المشهورة المقبولة"⁽³⁾.

بعض ما انتقد عليه:

انتقد بعض أقران الشيخ اعتراضات الشيخ العلمية على بعض شيوخه وبعض العلماء دافعوا عنه في ذلك ومن انتقده المحيي قال: (لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لا سيما الشافعي وأصحابه رحمهم الله تعالى، واعترض على الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وتعدى فيه طوره في الإساءة في حق الوالدين، - أي: والذي النبي صلى الله عليه وسلم - ثم إنه ما كفاه ذلك حتى ألف فيه رسالة وقال في شرحه للشفاء متبيحا ومفتخرا بذلك أي ألفت في كفرهما رسالة، فليته إذ لم يراع حق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث آذاه بذلك كان استحقا من ذكر ذلك في شرح الشفا الموضوع لبيان شرف المصطفى وقد عاب الناس على صاحب الشفاء ذكره فيه عدم مفروضية الصلاة عليه في الصلاة، وادعى تفرد الشافعي بذلك بأن هذه المسألة ليست من موضوع كتابه وقد قبض الله تعالى الإمام عبد القادر الطبري للرد على القاري فألف رسالة أغلظ فيها في الرد عليه، وبالجملة فقد صدر منه أمثال لما ذكر كان غنبا عن أن تصدر منه، ولولاها لاشتهرت مؤلفاته بحيث ملأت الدنيا لكثرة فائدتها وحسن انسجامها)⁽⁴⁾.

وكذلك العصامي: (لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لاسيما الشافعي وأصحابه واعترض على الإمام مالك في إرسال يديه ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم ومن ثم نهي عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء)⁽⁵⁾.

وقد دافع الشوكاني (1250هـ) عن الإمام القاري بشأن هذا الانتقاد فقال بعد أن أورد قول العصامي:

(وأقول هذا دليل على علو منزلته فإن المجتهد شأنه أن يبين ما يخالف الأدلة الصحيحة ويعترضه سواء كان قائله عظيما أو حقيرا تلك شكاة ظاهر عنك عارها)⁽⁶⁾.

¹ الآلوسي، نعمان بن محمود بن عبد الله، (المتوفى: 1317هـ)، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين. مطبعة المدني، 1401هـ - 1981م. (ص: 55).

² ملا علي القاري، المصنوع في معرفة الموضوع، مقدمة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. (ص: 10)

³ الدكتور محمد عبد الحليم الجشتي، البضاعة المزجاة. (ص: 40-41).

⁴ المحيي، خلاصة الأثر (3/ 186).

⁵ العصامي، سمط النجوم (4/ 402). وقد أخذ العصامي والمحيي أحدهما عن الآخر وكلاهما توفي في (1111هـ).

⁶ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى: 1250هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. دار المعرفة - بيروت. (1/ 445-446).

والإمام القاري أيضًا دافع عن نفسه في المرقاة، وأشار إلى أنه عنده الأهلية لينتقد الأئمة الأعلام إذا خالفوا الأدلة الصحيحة وإن كانوا أعظم منه، فقال: (قال الطيبي: أي: فعند ذلك سكت ابن عمر وأذعن، قلت: لا دلالة في السكوت على الإذعان بل ترك المجادلة كما هو شأن أرباب العرفان. قال ابن حجر: وفيه أن المجتهد أسير الدليل وأن له لأجل ذلك أن يخطئ غيره، وأن يحلف على خطئه وإن كان أجل منه وأوسع علمًا، إذ عمر رضي الله عنه كذلك مع عائشة رضي الله عنها اهـ. وفيه دليل صريح ونقل صحيح يصلح للرد على بعض المنتسبين إلى فقه الشافعي من أهل زماننا المعترضين علينا ممن لم يخرج عن حضيض التقليد، ولم يتخلص من قيد التقييد، ولم يبرز في ميدان التحقيق، والتأييد عند اعتراضنا على ابن حجر إذا وقع له كلام غير سديد؛ لأن مثلك لا يجوز له الاعتراض على شيخ الإسلام، مفتي الأنام ابن حجر؛ الذي هو جبل من جبال العلم عند الأئمة الأعلام)⁽¹⁾.

وقد مر معنا قول الإمام القاري في شيخه ابن حجر⁽²⁾ ووصفه له بما يدل على مكانة الإمام ابن حجر عند تلميذه الإمام القاري وقوة اعتقاده فيه ومحبه له. وهذا لا ينافي الاعتراض العلمي عليه، والله أعلم.

وفاته:

كانت وفاته بمكة المكرمة في شهر شوال سنة أربع عشرة وألف (1014) للهجرة، (1606) للميلاد، ودُفن بمقبرة المعلاة، ولما بلغ خبر وفاته علماء مصر صلوا عليه بالجامع الأزهر صلاة الغائب في جمع حافل يجمع أربعة آلاف نسمة فأكثر تقديرًا منهم لإمامته في العلم والدين، رحمه الله تعالى⁽³⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/1245).

² انظر: (ص: 8) من هذا البحث.

³ انظر: المحي، خلاصة الأثر، (3/186)، والشوكاني، البدر الطالع (1/445-446). والزركلي، الأعلام، (5/13).

المبحث الثاني

التعريف بكتاب مرقاة المفاتيح

المطلب الأول: التعريف بأصل الكتاب وسبب تأليفه:

لقد صنف الإمام محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (516هـ)، رفع الله درجته أجمع كتاب صُنّف في بابيه، وأضبط لشوارد الأحاديث وأوابدها. وهو كتاب (مصاييح السنة)، لكنه سلك رضي الله عنه طريق الاختصار، وحذّف الأسانيد؛ فجاء الخطيب التبريزي، محمد بن عبد الله (741هـ) فأعلم ما أغفله الإمام البغوي، وأودع كل حديث منه في مقره كما رواه الأئمة المتقنون، والثقات الراسخون؛ الإمام البخاري (256هـ)، والإمام مسلم (261هـ) والإمام مالك (179هـ) والإمام الشافعي (204هـ) والإمام أحمد (241هـ) والإمام الترمذي (279هـ) والإمام أبو داود (275هـ) والإمام النسائي (303هـ) والإمام ابن ماجه (273هـ) والإمام الدارمي (255هـ)، والإمام الدارقطني (385هـ)، والإمام البيهقي (458هـ)، و رزين بن معاوية العبدري (535هـ)، وغيرهم وقليل ما هو. واقتفى أثره في سرد الكتب والأبواب، وقسم كل باب إلى فصول ثلاثة. أولها: ما أخرجه الشيخان أو أحدهما، واكتفى بهما وإن اشترك فيه الغير؛ لعلو درجتهما في الرواية. وثانيها: ما أورده غيرهما من الأئمة المذكورين. وثالثها: ما اشتمل على معنى الباب من ملحقات مناسبة، مع محافظة على الشريطة: - أي على شرط الإمام البغوي -، وإن كان مأثورًا عن السلف والخلف. وسماه: (مشكاة المصابيح)⁽¹⁾.

ولمصاييح السنة شروح كثيرة، من أشهرها: (الميسر في شرح مصاييح السنة) للتوريشتي (661هـ)⁽²⁾، و(تحفة الأبرار شرح مصاييح السنة) للقاضي البيضاوي (685هـ)، و(المفاتيح في شرح المصابيح) للحسين المظهري⁽³⁾ (727هـ)، و(شرح مصاييح السنة) لابن الملك (854هـ)⁽⁴⁾.

¹ انظر: التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، (المتوفى: 741هـ)، مشكاة المصابيح. تحقيق: محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثالثة، 1985م، (1/ 3-7).

² الإمام فضل الله بن الحسن بن الحسين بن يوسف التوريشتي المحدث الفقيه الحنفي الشافعي، وقد نسبته الحنفية إليهم وقالوا كان من أساطين الحنفية ونسبه الشافعية إليهم بلا تردد، وأخذ التصوف عن السهروردي، ولعل وقعة التنازع أوجبت عدم العلم بحاله له مؤلفات منها: "الميسر في شرح مصاييح السنة" و"الناسك في معرفة المناسك". انظر: السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (المتوفى: 771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، و د. عبد الفتاح محمد الحلوة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية، 1413هـ. (8/ 349)، وابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد (المتوفى: 851هـ)، طبقات الشافعية. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت. الطبعة: الأولى، 1407 هـ، (2/ 34)، والسخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى: 902هـ)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر. تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م، (2/ 913)، وكاتب جلي - حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (المتوفى: 1067 هـ)، سلم الوصول إلى طبقات الفحول. تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسیکا، إستانبول - تركيا. 2010 م، (3/ 12-13)، وابن الغزي، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن (المتوفى: 1167هـ)، ديوان الإسلام. تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1990 م، (2/ 19).

³ الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزيداني: الإمام الفاضل الفقيه الحنفي، من العلماء بالحديث. نسبته إلى صحراء زبدان بالكوفة. له كتب، منها "المفاتيح في شرح المصابيح للبغوي" و"معرفة أنواع الحديث" توفي سنة (727هـ). انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (2/ 1698)، و(2/ 1776)، وسلم الوصول إلى طبقات الفحول. تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسیکا، إستانبول - تركيا، عام النشر: 2010 م، (2/ 57). والزركلي، الأعلام، (259/2).

⁴ المولى الفاضل محمد بن عبد اللطيف بن عبد العزيز، ابن فرشتا، المعروف بابن ملك الرومي الكرمانلي: فقيه حنفي، كأبيه، له كتب، منها "شرح الوقاية" و "روضة المتقين" "شرح مصاييح السنة للبغوي". انظر: طلائع كبري زاده، أحمد بن مصطفى بن خليل، (المتوفى: 968هـ)، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية. دار الكتاب العربي - بيروت. د. ت. (ص: 31)، وكاتب جلي (حاجي خليفة) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مكتبة المثنى - بغداد. د. ت، 1941م. (2/ 1698)، والزركلي، الأعلام (1396هـ) و (6/ 217).

وإن كتاب الخطيب التبريزي (مشكاة المصابيح) من أفضل الكتب التي اعتنت بكتاب (مصاييح السنة)، وزيادته في كل باب - تقريبًا - فصلاً من الملحقات النافعة المتممة جعل الكتاب مكملاً، وألقى الله له القبول بين العلماء. وله شروح كثيرة من أشهرها:

(الكاشف عن حقائق السنن) للإمام الطيبي (743هـ) و(فتح الإله في شرح المشكاة) لشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي المكي (974هـ)، وأعظم الشروح وأنفعها وأجمعها: شرح الإمام ملا علي القاري (1014هـ) المسمى: (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) - الذي يتناول البحث جانباً منه -.

وقد بيّن الإمام القاري في مقدمته البواعث على تأليفه وعمله إجمالاً في المرقاة فقال: (لما كان كتاب مشكاة المصابيح... أجمع كتاب في الأحاديث النبوية وأنفع لباب من الأسرار المصطفوية؛ تعلق خاطر الفاتر بقراءته، وتصحيح لفظه وروايته، والاهتمام ببعض معانيه ودرايته). ثم ذكر إسناده في الكتاب، وشيوخه، وإجازته، ثم قال: (وهذا الإسناد لا يوجد أعلى منه للاعتماد). ثم قال: (رأيت أن أضبطها تحت شرح لطيف، على منهج شريف، يضبط ألفاظه مع مبانيه، ويبحث عن رواياته ومعانيه، فإن همم الإخوان قد ضعفت... وأيضاً من البواعث أن غالب الشراح كانوا شافعية في مطلبهم، وذكروا المسائل المتعلقة بالكتاب على منهاج مذهبهم، واستدلوا بظواهر الأحاديث على مقتضى مشربهم، وسمّوا الحنفية: "أصحاب الرأي" على ظن أنهم لا يعملون بالحديث... مع أن مذهبهم القوي تقدّم الحديث الضعيف على القياس المجرد... نعم، من رأيهم الثاقب ما تشبثوا بالظواهر، بل دققوا النظر فيها بالبحث عن السرائر⁽¹⁾).

وقد انتهى منه في العاشر من ربيع الآخر عام 1008 للهجرة النبوية على صاحبها ألوف من الصلاة وآلاف من التحية⁽²⁾.

وعدد أحاديث مشكاة المصابيح [6294] كما في ترقيم شرح الإمام الطيبي لمشكاة المصابيح المسمى "الكاشف عن حقائق السنن، وكذلك في "فتح الإله في شرح المشكاة" لشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي وكذلك في ترقيم مرقاة المفاتيح، وقد اختلف الترقيم لأحاديث مصاييح السنة في أشهر شروحها كالأتي: [4781] في "الميسر" للتوربشتي، و [4929] في "تحفة الأبرار" للبيضاوي، و [4931] في "شرح ابن الملك"، فبناء على أكبر رقم منها يكون عدد ما أضافه الإمام التبريزي في "المشكاة" على ما في "المصابيح" هو: [1363] حديثاً شريفاً.

المطلب الثاني: أقوال العلماء عن كتاب (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح):

قال حاجي خليفة (1067هـ): (وللشيخ، نور الدين، علي بن سلطان محمد الهروي، المعروف: بالقاري. المتوفى: سنة 1014، أربع عشرة وألف. شرح عظيم، ممزوج على "المشكاة" مسمى: "بالمرقاة" في أربعة مجلدات. جمع فيه جميع الشروح والخواشي)⁽³⁾.

وقال ابن العماد الحنبلي (1089هـ): (وله عدة شروح أحسنها "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" لملا علي القاري رحمه الله)⁽⁴⁾. وقال الحبي (1111هـ): (وَأَلَفَ التَّالِيفَ الْكَثِيرَةَ اللَّطِيفَةَ التَّأْدِيَةَ مَحْتَوِيَةً عَلَى الْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ مِنْهَا شَرْحُهُ عَلَى الْمَشْكَاةِ فِي مَجْلَدَاتٍ وَهُوَ أَكْبَرُهَا وَأَجْلَاهَا)⁽⁵⁾.

¹ انظر: الإمام القاري، مقدمة مرقاة المفاتيح، (ص: 38-40).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (4054/9).

³ كاتب جلبي (حاجي خليفة)، كشف الظنون (2/ 1698).

⁴ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب (1/ 61).

⁵ الحبي، خلاصة الأثر (3/ 185).

وقال الدكتور عبد الحليم الجشتي: (والمولى علي القاري جمع في كتابه مرقاة المفاتيح جميع الشروح والخواشي ولذلك أصبح شرحه المذكور أجمع الكتب وأنفعها لحصول الملكة وفهم معارف الحديث)⁽¹⁾.

وقد ذكر من ترجم للإمام القاري كتاب (مرقاة المفاتيح) في أول كتبه، مثل: العصامي (1111هـ) في "سمط النجاة"، والشوكاني (1250هـ) في "البدر الطالع"، ومحمد صديق خان القنوجي (1307هـ) في "التاج المكلل"، وبعض المحققين ممن ترجم له⁽²⁾.

المطلب الثالث: أشهر مصادر الإمام القاري في شرح أحاديث الصفات في المرقاة:

الإمام ابن فورك (406هـ)، (مشكل الحديث وبيانه).
حجة الإسلام الإمام الغزالي (505هـ)، (إحياء علوم الدين).
القاضي عياض (544هـ)، (إكمال المعلم بفوائد مسلم).
الإمام النووي (676هـ)، (المنهاج شرح صحيح مسلم).
الإمام التوربشتي (661هـ)، (الميسر في شرح مصابيح السنة).
الإمام المظهري (727هـ)، (المفاتيح في شرح المصابيح).
الإمام الطيبي (743هـ)، (الكاشف عن حقائق السنن).
الإمام ابن الملك الرومي (854هـ)، (شرح المصابيح).
شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني (852هـ)، (فتح الباري شرح صحيح البخاري).
شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي (974هـ)، (فتح الإله في شرح المشكاة).
الإمام عطية السلمي (983هـ) وشيخه الإمام أبو الحسن البكري (952هـ). وغيرهم كثير.

المطلب الرابع: من استفاد من مرقاة المفاتيح:

كثير من الشراح وغيرهم ممن جاء بعد الإمام القاري استفادوا من المرقاة، أذكر منهم:
محمد علي البكري الصديقي (1057هـ)، (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين).
والعظيم آبادي (1329هـ)، (عون المعبود شرح سنن أبي داود).
ومحمود خطاب السبكي (1352هـ)، (المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود).
ومحمد أنور شاه الكشميري (1353هـ)، (العرف الشذي شرح سنن الترمذي).
والمباركفوري (1353هـ)، (تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي).
ومحمد الشنقيطي (1354هـ)، (كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري)⁽³⁾ وغيرهم.

¹ انظر: الشيخ محمد عبد الحليم الجشتي، البضاعة المرجاة (ص: 40).

² انظر: العصامي، سمط النجاة، (402/4) والشوكاني، البدر الطالع، (446/1). و محمد صديق خان القنوجي، التاج المكلل (ص: 390).

³ انظر على سبيل المثال لا الحصر: ابن علان، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي (المتوفى: 1057هـ)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1425 هـ - 2004 م، (2/ 529)، العظيم آبادي، محمد أشرف بن أمير بن علي، شرف الحق، الصديقي، (المتوفى: 1329هـ)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الثانية، 1415 هـ، (12/ 171)، محمود محمد خطاب السبكي، المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود. تحقيق: أمين محمود محمد خطاب (من بعد الجزء 6)، مطبعة الاستقامة، القاهرة - مصر، الطبعة: الأولى، 1351 - 1353 هـ، (1/ 115)، و محمد أنور شاه الكشميري الهندي (المتوفى: 1353هـ)، العرف الشذي شرح سنن الترمذي. دار التراث العربي - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م. (1/ 238)، و المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (المتوفى: 1353هـ)، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي. دار الكتب العلمية - بيروت. د ت، (6/ 495)، و الشنقيطي، محمد الخطير بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1354هـ)، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري. مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة: الأولى، 1415هـ - 1995م، (1/ 27).

المبحث الثالث

التعريف بمشكل الأحاديث وأحاديث الصفات (المتشابهات)

المطلب الأول

تعريف المشكل لغة واصطلاحاً

أولاً: تعريف المشكل لغة:

المشكل: من أشكل يشكل إشكالاً؛ فهو مشكل، والمعنى اللغوي للمشكل يدور حول: الاختلاط، والالتباس، والاشتباه، والمماثلة تقول: أشكل علي الأمر، معناه: قد اختلط بغيره⁽¹⁾.

قال ابن فارس (395هـ): "الشين والكاف واللام، معظم بابيه المماثلة، تقول: هذا شكل هذا، أي: مثله، ومن ذلك يقال: أمر مشكل، كما يقال: أمر مشتبّه"⁽²⁾.

ثانياً: تعريف المشكل في اصطلاح المحدثين:

لم يتطرق الأوائل ممن ألف في مشكل الحديث لتعريف المشكل بمعناه في اصطلاح المحدثين إلا ما ذكره أبو جعفر الطحاوي (321هـ) في كتابه "شرح مشكل الآثار"، حيث أشار في مقدمة كتابه لمعنى المشكل فقال: "وإني نظرت في الآثار المروية عنه صلى الله عليه وسلم، بالأسانيد المقبولة، التي نقلها ذوو الثبوت فيها والأمانة عليها، وحسن الأداء لها، فوجدت فيها أشياء مما يسقط معرفتها، والعلم بما فيها عن أكثر الناس، فمال قلبي إلى تأملها، وتبيان ما قدرت عليه من مشكلها، ومن استخراج الأحكام التي فيها، ومن نفي الإحالات عنها"⁽³⁾.

وهذا الذي ذكره الطحاوي يعد وصفاً لمعنى المشكل. ثم وجدت الإمام القاري عرفه بقوله: (المشكل: أي: المغلق، وهو الذي لا يفهمه كل أحد، وإنما يدركه العلماء)⁽⁴⁾.

وقد استخلص الدكتور أسامة خياط، من كلام الإمام الطحاوي تعريفاً لمشكل الحديث فعرفه بأنه: (أحاديث مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأسانيد مقبولة، يوهم ظاهرها معاني مستحيلة، أو معارضة لقواعد شرعية ثابتة)⁽⁵⁾.

وعرفه الدكتور عبد العزيز القصير فقال: مشكل الحديث: (هو الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند مقبول، ويوهم ظاهره معارضة آية قرآنية، أو حديث آخر مثله، أو يوهم ظاهره معارضة معتبر من: إجماع، أو قياس، أو قاعدة شرعية كلية ثابتة، أو أصل لغوي، أو حقيقة علمية، أو حس، أو معقول)⁽⁶⁾.

ثم ذكر الدكتور القصير تعريفاً عاماً ومختصراً فقال: (هو: كل نص شرعي؛ استغلق وخفي معناه، أو أوهم معارضة نص شرعي آخر، أو: أوهم معاني مستحيلة؛ شرعاً أو عقلاً، أو: شرعاً وعقلاً. وبهذا التعريف نكون قد استوعبنا معناه في جميع الاصطلاحات، فيكون شاملاً لكل ما تقدم من تعريفات للمشكل؛ في اصطلاح الأصوليين، والمحدثين، وعلماء التفسير وعلوم القرآن)⁽¹⁾.

¹ انظر: ابن الأنباري، محمد بن القاسم (المتوفى: 328هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس. تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الأولى، 1412 هـ (2/ 151)، والأزهري، محمد بن أحمد (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة: الأولى، 2001م، (16/10).

² ابن فارس، أحمد بن فارس (المتوفى: 395هـ)، مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، (3/ 204).

³ أبو جعفر الطحاوي، أحمد بن محمد (المتوفى: 321هـ)، شرح مشكل الآثار. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - 1415 هـ، (6/ 1).

⁴ انظر: الإمام القاري، علي بن سلطان محمد، (المتوفى: 1014هـ)، شرح شرح نخبه الفكر في مصطلحات أهل الأثر. تحقيق: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، دار الأرقم - بيروت. د. ت. (ص: 799-800). قلت: لم يعرف الإمام القاري المشكل في مرقاة المفاتيح فأتي به من شرحه على شرح نخبه الفكر.

⁵ أسامة عبدالله الخياط، مختلف الحديث وموقف النقاد والمحدثين منه، مطابع الصفا، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1406هـ. (ص: 36).

⁶ أحمد بن عبد العزيز القصير، الأحاديث المشككة الواردة في تفسير القرآن الكريم. دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، 1430هـ. (ص: 22-23).

قلت: وهذا التعريف وإن كان جامعًا إلا أن فيه تطويلا يصلح كشرح للتعريف وهو لا يليق بالتعاريف فيمكن تعريف المشكل بأفضل وأخصر من ذلك فنقول:

مشكل الأحاديث: هو: (نص نبوي مقبول الإسناد أوهم معارضة معتبر، أو: عزَّ فهُمَّه).

شرح التعريف: (نص نبوي) خرج به ما سوى كلام النبي صلى الله عليه وسلم مما نسب من الأقوال للحكماء أو الفلاسفة أو علماء الدين (مقبول الإسناد) إذ لا يصلح ما ليس بصحيح أو حسنٍ لمعارضة المقبول ولا للاحتجاج به ولا داعي للمدافعة عنه أو الإلزام به (أوهم معارضة) إذ في الحقيقة يستحيل التعارض الحقيقي بين نصوص الوحي فهما من مشكاة واحدة (معتبر) ويشمل المعتبر ما كان من نص وحي أو إحالة عقلية، ولم نقل معارضة القواعد الكلية الثابتة وباقي القيود إذ هي مأخوذة من القرآن أو السنة فهي مندرجة تحتها وتحت قولنا "معتبر" والعقل في شرعنا معتبر، فما أوهم معاني مستحيلة فهو معارض للعقل في الظاهر، فيشمله معارضة المعتبر، ويشمله مشكل الأحاديث (أو: عزَّ فهمه) ليشمل ما لم يعارض شيئًا لكنه خفي معناه، ولم يتبين المراد منه إلا بعد تأمل العلماء له.

المطلب الثاني: الفرق بين مشكل الحديث ومختلف الحديث:

بعض المتقدمين لم يفرقوا بين مختلف الحديث ومشكل الحديث فتجد كتاب ابن قتيبة (تأويل مختلف الحديث) وكتاب الطحاوي (شرح مشكل الآثار) يشمان كل أفراد التعريفات المذكورة. لكن بعض المعاصرين فرَّق بينهما ومنهم الدكتور أسامة خياط في كتابه (مختلف الحديث) فجعل مختلف الحديث خاصًا في تعارض حديثين ظاهريًا، وأما المشكل: فهو تعارض حديث مع أي شيء مما ذكر آنفاً في تعريف المشكل وبناء عليه يكون مشكل الحديث أعم من المختلف فكل مختلف مشكل وليس كل مشكل مختلفًا. ولعل مستند هذا التفريق تعريف الإمام النووي المشهور لمختلف الحديث حيث قال: (وهو أن يأتي حديثان متضادان في المعنى ظاهراً فيوفق بينهما أو يرجح أحدهما، وإنما يكمل له الأئمة الجامعون بين الحديث والفقه، والأصوليون الغواصون على المعاني)⁽²⁾.

ومما مرَّ يتبين أن مشكل الحديث شامل لمختلف الحديث، وهو شامل للمتشابه أيضاً كما سيمر معنا.

المطلب الثالث: بيان اندراج أحاديث الصفات (المتشابهات) تحت مشكل الحديث:

أولاً: تعريف المتشابه لغة واصطلاحاً:

تعريف المتشابه لغة:

قال ابن منظور (711هـ): (واشابه علي وتشابه الشيطان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه. وفي التنزيل: {مشتبهها وغير متشابه} [الأنعام: 99]. وشبهه إياه وشبهه به مثله. والمشتبهات من الأمور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات. والتشبيه: التمثيل. والشبهة: الالتباس. وأمر مشتبهة ومشبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضاً)⁽³⁾.

¹ المصدر السابق (ص: 26).

² الإمام النووي، التقريب، مطبوع مع شرحه للسيوطي "تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي" تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفارابي، دار طيبة، (2/ 651).

³ ابن منظور، محمد بن مكرم (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب. دار صادر - بيروت. الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، (13/ 503-504)، وانظر: الفيومي، أحمد بن محمد (المتوفى: نحو 770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المكتبة العلمية - بيروت، د. ت. (1/ 304).

تعريف المتشابه اصطلاحاً:

له تعريفات عدة، وهو عند الأصوليين يساوي المشكل.

وبعض العلماء عرفه بأنه ما استغلق معناه كالخطابي والقاري وغيرهم، وبعضهم عرفه بأنه ما خفي معناه على غير العلماء كالبيضاوي وابن حجر والقسطلاني وغيرهم، وهذا راجع إلى المذهبين في التعامل مع أحاديث الصفات التفويض والتأويل وتعريفهم للمتشابه بما استغلق يصدق على بعض أحاديث الصفات فبعضها مستغلق والتفويض فيه أولى وتعريفهم للمتشابه بما خفي معناه على غير العلماء يصدق على جميع أحاديث الصفات فهي تخفى على العامة ولا تخفى على العلماء الراسخين والتأويل فيه مستعمل في اللغة مستساغ فهو فيها أولى وهو ما يرجحه الباحث، ولنأت بأقوال العلماء في تعريفهم للمتشابه.

عرفه القاضي البيضاوي بقوله: " (المتشابه): المشتبه، وهو الذي أريد به غير ظاهره"⁽¹⁾.

وعرفه الشاطبي (790هـ) فقال: " ومعنى المتشابه: ما أشكل معناه، ولم يتبين مغزاه"⁽²⁾.

وعرفه التوريشي بأنه: ما أشكل تفسيره لمشابهة غيره وما لا ينبئ ظاهره عن مراده الذي يقتضيه النظر، و قسمه إلى قسمين: الأول: ما لا يسمى متشابهاً مطلقاً بل هو متشابه بالنسبة إلى من لم يتقنه رواية ودراية. الثاني: ما يسمى متشابهاً مطلقاً ومنه صفات الله تعالى⁽³⁾.

ونقل ابن حجر تعريف الطيبي للمتشابه فقال: (المراد بالتحكم ما اتضح معناه والمتشابه بخلافه)⁽⁴⁾.

وذكر الإمام القسطلاني (923هـ) تقسيم المتشابه إلى قسمين: ما يرجع إلى ذاته وما يرجع إلى ما يعرض له. وهذا القسم الثاني وهو ما يرجع إلى المعنى؛ أقسام: فما كان من جهة دقة معناه: فمثاله: أوصاف الباري جل وعلا⁽⁵⁾.

وعرفه الإمام الخطابي فقال: (فأما المتشابه: فقد اختلفت الأقاويل فيها وجماعها ما اشتبه منها، فلم يتلق معناه من لفظه، ولم يدرك حكمه من تلاوته، وذلك على ضربين: ما إذا رُذِّ إلى المحكم واعتبر به عُقِلَ مرادُه وعُلمَ معناه. والضرب الآخر: هو ما لا سبيل إلى معرفة كنهه والوقوف على حقيقته ولا يعلمه إلا الله عز وجل، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ ويطلبون سره، ويتبعون تأويله، ويكثر خوضهم في ذلك، فلا يبلغون كنهه، ويرتابون بأمره، فيفتنون به، وهو الذي أشير إليه بقوله: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين ساء بهم الله فأحذروهم. ومعنى ذلك: كل شيء استأثر الله بكنهه علمه، وتعبداً بظاهر منه - وذلك كالإيمان بالقدر والمشية وعلم الصفات ونحوها من الأمور التي لم يطلع على سرها ولم يكشف لنا عن مغيبها، فالغالي في طلب علمها والباحث عن عللها طالب للفتنة ومتبع لها لأنه غير مدرك شأوها ولا منته إلى حد منها تسكن إليه نفسه، ويطمئن به قلبه، وينشرح له صدره وذلك أمر لم يكلفه ولم يتعبه به، فالخوض فيه عدوان والتعرض له فتنة والعلماء الراسخون في العلم يقولون: "أما به"، اطلعنا على كنه حقيقته أم لا، "كل من عند ربنا"⁽⁶⁾.

¹ البيضاوي، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت 685هـ)، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، 1433 هـ - 2012م، (1/ 129).

² الشاطبي، إبراهيم بن موسى (المتوفى: 790هـ) الاعتصام. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، 1412هـ-1992م، (3/ 171).

³ انظر: التوريشي، فضل الله بن حسن بن حسين (المتوفى: 661 هـ)، الميسر في شرح مصابيح السنة. تحقيق: د. عبد الحميد هندائي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الثانية، 1429 هـ - 2008 م، (1/ 80).

⁴ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: 852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، (8/ 211).

⁵ انظر: القسطلاني، أحمد بن محمد (المتوفى: 923هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. المطبعة الكبرى الأميرية، مصر. الطبعة: السابعة، 1323هـ (7/ 50).

⁶ الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (المتوفى: 388 هـ)، أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري). تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن، جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، 1409هـ، (3/ 1825).

تعريف الإمام القاري للمتشابه:

(«المتشابه: ما بلغ في الخفاء غايته ولا يرجى معرفته كقوله: {يد الله فوق أيديهم} [الفتح: 10]»¹).

من تقسيمات العلماء للمتشابه يتبين أن أحاديث الصفات قسم خاص من المتشابهات، وأرى أن التعريف الأدق إذا قصدنا بالمتشابه أحاديث الصفات هو عرّف تعريف الإمام القاري للمشكل - كما مرّ - (المخلق، وهو الذي لا يفهمه كل أحد، وإنما يدركه العلماء) وهذا وصف أحاديث الصفات.

وكثير من العلماء مثّل للمتشابه بأحاديث الصفات، والمعنى الجامع للمشكل والمتشابه هو: الغموض في المعنى وعدم إدراكه لأول وهلة، بل لا بد من النظر والتأمل إذ الظاهر منه غير مراد. وأولى ما يطلق عليه هذه الأوصاف؛ هو: أحاديث الصفات التي يوهّم ظاهرها تشبيه الخالق بالخلق، وظاهر ذلك مستحيل عقلاً وشرعاً، فكان لا بد من التأمل لفهم المراد منها.

أوجه الإشكال في أحاديث الصفات:

أ - الإحالة العقلية لظواهرها: وتشمل:

- 1- نسبة الأعضاء والجوارح لله تعالى كاليد والرجل.
- 2- تشبيهه بخلقه بالتجسيم والتحيز والكون في الأماكن المخلوقة كالسما والأرض.
- 3- نسبة بعض الأفعال - التي هي علامة نقص وضعف في الإنسان - للباري سبحانه وتعالى كالملا والتأذي والتردد. وأمثال ذلك، وكل ذلك مستحيل عقلاً وشرعاً.

ب - إيهام التعارض بحسب الظاهر مع القرآن الكريم والأحاديث الشريفة:

- 1- كتعارض الآيات التي فيها تسبيح الله نفسه وتعالى؛ مع نسبة الملأ والتردد له.
- 2- وتعارض قوله تعالى: {ليس كمثله شيء} [الشورى: 11]؛ مع نسبة الجسمية لله ومع تشبيهه تعالى بخلقه بنسبة الأعضاء له تعالى.

3- وكذلك تعارض الأحاديث ظاهرياً فيما بينها: فكيف يكون سبحانه فوق العرش وهو في السماء؟ مع أن العرش فوق السموات!! وكيف تكون يمينه حجراً أسود في الكعبة وله يدان كلتاها يمين وله عيون كثيرة؟؟ والله خلق آدم على صورة الرحمن وآدم له عينان فقط ويدان يمين وشمال؟!

ج - عزة فهم لفظ الحديث وعسر إدراك المراد منه: كقوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله خلق آدم على صورته)) وحديث أخذ الرحم بحقوي الرحمن، وسيأتي تفصيل ذلك والجواب عنه، حديثاً حديثاً وصفةً صفةً بما يدفع الإشكالات ويزيل الشبهات. وأما من حيث وصف أحاديث الصفات بالمشكل فقد وصفها بذلك كثير من المحدثين.

المطلب الرابع: تسمية المحدثين لأحاديث الصفات (المتشابهات) بالمشكل:

قال الخطيب البغدادي (463هـ): (ويتجنب المحدث في أماليه رواية ما لا تحتمله عقول العوام لما لا يؤمن عليهم فيه من دخول الخطأ والأوهام وأن يشبهوا الله تعالى بخلقه ويلحقوا به ما يستحيل في وصفه وذلك نحو: أحاديث الصفات التي ظاهرها يقتضي التشبيه والتجسيم وإثبات الجوارح والأعضاء للأزلي القدم وإن كانت الأحاديث صحاحاً ولها في التأويل طرق ووجوه إلا أن من حققها أن لا تروى إلا لأهلها خوفاً من أن يضل بها من جهل معانيها فيحملها على ظاهرها أو يستنكرها فيردها ويكذب روايتها ونقلتها ثم روى بسنده عن

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (236/1). قلت: وهذا هو تعريف ابن الملك. انظر: ابن الملك، محمد بن عز الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز (المتوفى: 854 هـ)، شرح مصابيح السنة للإمام البغوي. إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1433 هـ، (158/1).

أبي الطفيل، قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: أيها الناس تحبون أن يكذب الله ورسوله؟ حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون⁽¹⁾.

وقال الإمام أبو بكر ابن العربي بعد تأويل بعض أحاديث الصفات ما نصه: (حاتمة: واعلم أن آي المتشابهة والأحاديث المشكولات امتحن الله بها عباده)⁽²⁾.

وأورد النووي في شرح مسلم قول القاضي عياض بعد حديث يتحدث عن صفة اليد لله تعالى:

(والله أعلم بمراد نبيه صلى الله عليه وسلم فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل ونحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئاً به ولا نشبهه بشيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عنه فهو حق وصدق فما أدركنا علمه فبفضل الله تعالى وما خفي علينا آمنا به ووكلنا علمه إليه سبحانه وتعالى وحملنا لفظه على ما احتمل في لسان العرب الذي خوطبنا به ولم نقطع على أحد معنييه، بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به سبحانه وتعالى وبالله التوفيق)⁽³⁾.

وقال الحافظ العراقي: (واجتنب المشكل خوف الفتن) وشرحها في شرحه لألفيته بقوله: (واجتنب المشكل: كأحاديث الصفات) ثم ذكر كلام الإمام الخطابي المتقدم.

وكذلك شرحها شراح ألفية العراقي كالإمام ابن العيني والإمام السخاوي وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري واقتصر جميعاً في شرح المشكل على قولهم "كأحاديث الصفات"⁽⁴⁾.

وقال الإمام السيوطي (911هـ) في ألفيته: (570 - واجتنب المشكل كالصفات ... وخصصاً مع المشاجرات)⁽⁵⁾. وقد ألف الإمام أبو بكر ابن فورك كتابه: (مشكل الحديث وبيانه) وهو مشحون بأحاديث الصفات. وألف ابن الجوزي (597هـ) كتابه: (كشف المشكل من أحاديث الصحيحين) وهو مليء بأحاديث الصفات. وألف الإمام ابن المنير (683هـ) كتابه: (تفسير مشكلات أحاديث يشكك ظاهرها) وهو نفسه المنسوب خطأ للإمام السيوطي تحت اسم: (تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه). وغير ذلك من كتب الحديث التي ذكرت أحاديث الصفات ضمن كتبها التي وضعت للحديث عن المشكل، وهذا ظاهر لا يخفى ولا يُشكّل.

¹ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (المتوفى: 463هـ)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، د. ت. (2/ 107-108). ونقلها عنه الحافظ العراقي في شرح التبصرة والتذكرة، والأبناسي في الشذا الفياح. انظر: الحافظ العراقي، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (المتوفى: 806هـ)، شرح (التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي). تحقيق: عبد اللطيف المميم - ماهر ياسين فحل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2002 م، (2/ 34) و الأبناسي، إبراهيم بن موسى بن أيوب، (المتوفى: 802هـ)، الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح رحمه الله تعالى. تحقيق: صلاح فتحي هلال، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى 1418 هـ - 1998 م، (1/ 397).

² أبو بكر ابن العربي، محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (543هـ)، المسالك في شرح مؤطاً مالك. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1428 هـ (3/ 466).
³ القاضي عياض بن موسى بن عياض (المتوفى: 544هـ)، إكمال المعلم بفوائد مسلم. تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م، (8/ 320) ونقله النووي في شرح صحيح مسلم (17/ 133).

⁴ انظر: الحافظ العراقي، شرح التبصرة والتذكرة (2/ 34)، وابن العيني، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (المتوفى: 893هـ)، شرح ألفية العراقي في علوم الحديث. تحقيق: شادي بن محمد آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية - اليمن، الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م. (ص: 275-276)، والسخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى: 902هـ)، فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي. تحقيق: علي حسين علي، مكتبة السنة - مصر، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، (3/ 267)، وزكريا الأنصاري، زكريا بن محمد بن زكريا (ت 926 هـ)، فتح الباقي بشرح ألفية العراقي. تحقيق: عبد اللطيف هميم - ماهر الفحل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1422 هـ / 2002 م، (2/ 115). وانظر: السيوطي، تدريب الراوي (2/ 580).

⁵ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، ألفية السيوطي في علم الحديث. المكتبة العلمية، د. ت. (ص: 90).

المبحث الرابع

الحكمة من وقوع المتشابهات وحكم الخوض فيها في رأي الإمام القاري

الحكمة من وقوع المتشابهات

قال الإمام القاري في حكمة وقوع المتشابهات في الأحاديث والآيات: (فيه إعلام للعقول بقصورها لتستسلم لبارئها وتعترف بعجزها وتسلم من الغرور والعجب والتكبر والتعزز⁽¹⁾).

حكم الخوض في المتشابهات

لقد حرم الخوض في المتشابهات طائفة من العلماء الأفاضل، وأوجبه طائفة أخرى من العلماء الأفاضل أيضاً، والاختلاف هنا ليس اختلاف قولين بل اختلاف حالين؛ ففي حال سلامة الصدور وانطفاء البدعة فلا يجوز الخوض في هذه المتشابهات، إذ لا حاجة لذلك وقد تؤدي للتشكيك والفتنة والخصومة، وفي حال انتشار البدع - كما الحال في زماننا - ففرع البدعة وإزالة الشبهات واجب بل فرض كفاية⁽²⁾.

وقد أكد هذا المعنى الإمام القاري فأورد قول الإمام النووي وابن حجر الهيتمي رحمهم الله ثم زاد الحكم بياناً، فقال: قال النووي: "حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اختلاف يؤدي إلى الكفر والبدعة كاختلاف اليهود والنصارى، وذلك مثل الاختلاف في نفس القرآن، أو في معنى لا يسوغ الاجتهاد فيه، أو فيما يوقع في شك وشبهة وفتنة وخصومة، وأما الاختلاف لاستنباط فروع في الدين منه، ومناظرة أهل العلم فيه على سبيل الفائدة وإظهار الحق فليس بمنهي عنه بل هو مأمور به وفضيلته ظاهرة، وقد أجمع المسلمون عليه من عهد الصحابة إلى الآن اهـ." ⁽³⁾

وقال ابن حجر -الهيتمي-: "هذا بناء على ما عليه الجمهور من الوقف على الجلالة ليفيد أن علم المتشابه على حقيقة ما هو عليه مختص بالله تعالى" ولم يستغن الإمام القاري عن ألفاظ شيخه المحقق ابن حجر الهيتمي فتابع في نقله؛ فجاء بما وهي: "ولا ينافي هذا جعل ابن عباس رضي الله عنهما والآخرين الوقف على العلم المفيد أن الراسخين فيه يعلمون تأويل المتشابه، لأنهم وإن علموه لم يدركوا حقيقته المرادة لله تعالى منه، وإنما علموه بصرف ظاهره عن الله تعالى لاستحالة بلا خلاف بين الفريقين، ومن ثم اتفق السلف والخلف على تنزيه الله تعالى عن ظواهر المتشابهات المستحيلة على الله تعالى، ثم اختلفوا بعد؛ فأمسك أكثر السلف عن الخوض في تعيين المراد من ذلك المتشابه، وفوضوا علمه إلى الله تعالى، وهذا أسلم لأن من أول لم يأمن من أن يذكر معنى غير مراد له تعالى فيقع في ورطة التعيين وخطره، وخاض أكثر الخلف في التأويل، ولكن غير جازمين بأن هذا مراد الله تعالى من تلك النصوص، وإنما قصدوا بذلك صرف العامة عن اعتقاد ظواهر المتشابه والرد على المبتدعة المتمسكين بأكثر تلك الظواهر الموافقة لاعتقاداتهم

¹ الإمام القاري، مرآة المفاتيح (236/1).

² قال الإمام الغزالي رحمه الله: (فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمه الله تصنيفه في الرد على المعتزلة، فقال الحارث: الرد على البدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟ وما ذكره أحمد بن حنبل حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية. نعم، ينبغي أن لا يتكلف لهم شبهة لم يتكلفوها). الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، المنقذ من الضلال. دار الكتب الحديثة، مصر، د. ت. (ص: 159-160).

³ الإمام النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم (219/16).

الباطلة" ⁽¹⁾. وقال الشافعي: لا يحل تفسير المتشابه إلا بسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو خبر عن أحد من الصحابة، أو إجماع العلماء ⁽²⁾.

وقال الإمام القاري في موضع آخر: (فالمذهبان متفقان على التنزيه، وإنما الخلاف في أن الأولى ماذا، أهو التفويض أم التأويل؟ ويمكن حمل الخلاف على اختلاف الزمان، فكان التفويض في زمان السلف أولى؛ لسلامة صدورهم وعدم ظهور البدع في زمانهم، والتأويل في زمان الخلف أولى؛ لكثرة العوام وأخذهم بما يتبادر إلى الأفهام، وغلو المبتدعة بين الأنام، والله أعلم بالمرام) ⁽³⁾. وهذا هو مذهب السواد الأعظم من المسلمين الذين لا يجمعهم الله على ضلالة كما في الحديث الشريف ⁽⁴⁾، ولا عبرة بمن شذَّ.

وقد تعرض الإمام القاري للحديث عن (المتشابهات) أكثر من مرة وبين مذهبها فيها، وهو: مذهب أهل السنة والجماعة؛ من الإيمان بهذه النصوص المتشابهة مع تنزيه المولى جل وعلا وتفويض علمها إلى الله تعالى دون الخوض فيها وهو مذهب غالب السلف وهو ما يتخذه الإمام القاري تارةً، وتارةً أخرى يسلك مسلك غالب الخلف - وهو منهم - فيؤوِّل هذه النصوص المتشابهة تأويلاً تتسع له اللغة العربية الشريفة التي أنزل الله بها كتابه البليغ على أفصح الناطقين بالضاد صلى الله عليه وسلم، تأويلاً مع كونه من استعمالات العرب؛ يستسيغُه العقل السليم والمنطق القويم، وحاشا لله أن تصادم نصوص الوحي العقل الحي، وكثيراً ما كان الإمام يجمع بين الفضيلتين فيفوض في بادئ الأمر ليتمكن معنى التنزيه في نفس القارئ، ثم يؤوِّل.

ويبتدئ غالباً بأقوال العلماء ثم يأتي برأيه، وكأنه يقول: نفوض علم معاني هذه المتشابهات، ونؤمن بها على ما أرادها الله، فإن أبيتم إلا تحقيق معناها؛ فإن المعاني التي يسوِّغها العقل هي كآلاتي، وهي التي انضبطت باللغة والمنطق سوياً، وأما إنكارها الذي هو سيما أهل الجهل؛ أو: التجسيم الذي ينكره العقل بالبدهة؛ فلا وألف لا.

قاعدة عظيمة:

للإمام القاري قاعدة أخذها عن بعض شيوخه الراسخين، طبَّقها في كثير من الأحاديث المشككة هذه، وهي قوله: (وكان بعض مشايخنا يقول: إن لله تجليات صورية مع تنزه ذاته عن أمور عارضية، فيزول بها كثير من الإشكالات المتعلقة بالصفات المفهومة من الأحاديث والآيات) ⁽⁵⁾.

وقوله: "تجليات صورية مع تنزه ذاته عن أمور عارضية" جملة يفهمها القلب ولا يستطيع أن يشرحها. إذ يعسر اختيار ألفاظ تبيِّن المقصود، وتنزه المعبود، سبحانه وتعالى، بدون إشكالٍ ولذلك كان لابد من تنزلات النبي عليه الصلاة والسلام في ضرب الأمثال، واستعمال الاستعارات والمجازات في أحاديث الصفات ليتمكن فهمها في قلب المؤمنين.

¹ ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد، (المتوفى: 974هـ) فتح الإله في شرح المشككة. تحقيق: أحمد فريد الزبيدي، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، 1436هـ، (561/1). قلت: وأما ابن حجر العسقلاني فقال: "علم بعض المتشابهة" هـ. وعبارته هذه أدق. انظر: فتح الباري (211/8).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (237/1).

³ المصدر السابق (77/1).

⁴ عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أمي لن تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم)). رواه أبو داود، سليمان بن الأشعث (المتوفى: 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، كتاب الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها (رقم: 4253)، والترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (المتوفى: 279هـ)، سنن الترمذي (الجامع الكبير) تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998 م، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (رقم: 2167)، وابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: 273هـ)، سنن ابن ماجه. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمد كامل قره بللي - عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن (رقم: 3950) واللفظ له. وقال الشيخ الأرنؤوط في تعليقه على سنن ابن ماجه: "وقوله: 'إن أمي لن تجتمع على ضلالة' صحيح مجموع شواهد".

⁵ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (2954/7).

الفصل الثاني

أحاديث الصفات الخيرية الموهمة نسبة الجوارح لله تعالى.

وفيه مباحث: المبحث الأول: الأحاديث المتعلقة باليد.

المبحث الثاني: الأحاديث المتعلقة بالأصابع.

المبحث الثالث: الأحاديث المتعلقة بالصورة.

المبحث الرابع: الأحاديث المتعلقة بالوجه.

المبحث الخامس: الأحاديث المتعلقة بالساق.

المبحث السادس: الأحاديث المتعلقة بالرجل أو القدم.

المبحث السابع: الأحاديث المتعلقة بالحقوقين.

المبحث الثامن: الأحاديث المتعلقة بالعين.

المبحث الأول الأحاديث المتعلقة باليد

الحديث الأول

(1)[4662]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملائمتهم جلوس، فقل: السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيتهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب، ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم، - أو من أضوؤهم - قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره. قال: ذاك الذي كتب له. قال: أي رب، فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك، قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، فكان آدم يعد لنفسه، قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتب لي ألف سنة. قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته. قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(2)[10]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(3)[92]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((يد الله مألئ لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يده، وقال: عرشه على الماء، ويبيده الأخرى الميزان، يخفض ويرفع))⁽³⁾.

الحديث الرابع

(4)[5523]- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون. ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟))⁽⁴⁾.

¹ رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب، (رقم: 3368). قال الإمام الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم من رواية زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

² رواه مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت. د ت، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم (رقم: 153).

³ رواه البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (المتوفى: 256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري). تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: "لما خلقت بيدي" (رقم: 7411)، وباب وكان عرشه على الماء (رقم: 7419)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (رقم: 993).

⁴ رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (رقم: 2788).

الحديث الخامس

(5)[3690]- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم ما ولوا)).⁽¹⁾

الحديث السادس

(6)[5533]- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلا لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالآم ونون، قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً)).⁽²⁾

الحديث السابع

(7)[1888]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلؤه، حتى تكون مثل الجبل)).⁽³⁾

الحديث الثامن

(8)[3677]- عن عرفجة بن شريح الأشجعي⁽⁴⁾ رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر يخطب الناس، فقال: ((إنه سيكون بعدي هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة، أو يريد يفرق أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم كائناً من كان فاقتلوه، فإن يد الله على الجماعة، فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض)).⁽⁵⁾

الحديث التاسع

(9)[5556]- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((وعندي ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربي)).⁽⁶⁾

¹ رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، (رقم: 1827).

² رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة، (رقم: 6520). ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (رقم: 2792).

³ رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب (رقم: 1410) وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى {تعرج الملائكة والروح إليه}، (رقم: 7430). ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من كسب طيب وتربيتها، (رقم: 1014).

⁴ عرفجة بن شريح الأشجعي، وقيل: الكندي، وقيل: عرفجة بن صريح، بالصاد المهملة والضاد المعجمة، وقيل: ابن طريح، بالطاء، وقيل: ابن شريك، وقيل: ابن ذريح، وقيل غير ذلك. ومنهم من جعله أسلمياً. سكن الكوفة. روى عنه قطيبة بن مالك، وزباد بن علاقة، والسبيعي، وغيرهم. روي له حديثان فقط، واختلف في اسم أبيه كثيراً. انظر: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (المتوفى: 463هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م، (3/ 1063)، وابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الجزري (المتوفى: 630هـ)، أسد الغابة. دار الفكر - بيروت، د. ت. 1409 هـ - 1989 م. (3/ 519-520)، و ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ، (4/ 400).

⁵ رواه النسائي، أحمد بن شعيب (المتوفى: 303هـ)، المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي). تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م، كتاب تحريم الدم، باب قتل من فارق الجماعة، (رقم: 4020)، والترمذي، في أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، (رقم: 2166-2167). ولفظه: (يد الله مع الجماعة) وقال هذا حديث حسن غريب.

⁶ رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، (رقم: 2437) وقال هذا حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه، أبواب الزهد، باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، (رقم: 4285).

الحديث العاشر

(10)[5603]— عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: ((إن الله عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمئة ألف بلا حساب. فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله، قال وهكذا، فحشا بكفيه وجمعهما، فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله، قال: وهكذا، فقال عمر: دعنا يا أبا بكر! فقال أبو بكر: وما عليك أن يدخلنا الله كلنا الجنة؟ فقال عمر: إن الله عز وجل إن شاء أن يدخل خلقه الجنة بكف واحد فعل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق عمر))⁽¹⁾.

بيان وجه الإشكال

لقد اتخذ العلماء في التعامل مع النصوص التي ذكرت صفة اليد لله تعالى مسلكين:
الأول: هو الإيمان بها مع تفويض علم معناها إلى الله تعالى مع تنزيهه تعالى عن الجارحة وعن مشابهة المخلوقات.
والثاني: الإيمان بها وتأويلها بحسب استعمالات اللغة العربية مع دفع المعنى المناقض للعقول - وهو الجارحة - إذ عُلِمَ منطقيًا بالبدهة والضرورة أن الجارحة من لوازم الجسمية، والجسمية من لوازم المصنوعات، والمصنوعات صُنِعَتْ بعد أن لم تكن فهي حادثة، والحوادث تحتاج إلى صانع قديم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، منزه عن مشابهة الحوادث، متصف بكل صفات الكمال ومنزه عن كل صفات النقص سبحانه وتعالى، فَعُلِمَ يقينًا أن مراد الله تعالى من صفة اليد ليس هو الجارحة بل معنى آخر تستعمله العرب.

ووجه الإشكال الآخر: أنه سبحانه استوى على العرش والعرش فوق السموات محيط بها والسموات مطويات بيمينه سبحانه، فكيف يكون في السماء وفوق العرش والسموات أصلاً مطويات بيمينه؟! وهذا الإشكال لا يحصل إلا على قول المجسمة الذين يفسرون الاستواء بالجلوس، ويقولون أنه سبحانه بذاته في السماء، وأن اليد هي الجارحة، - حاشا لله، سبحانه هذا بختان عظيم-، وهنا اجتهد العلماء المحققون فذكروا الأوجه المقبولة لهذه الكلمة والمعاني التي تحملها، والإطلاقات التي تصح على الله تعالى. - كما سنبين -

وكان مذهب الإمام القاري تجاه صفة اليد؛ الجمع بين التفويض والتأويل فيذكر في المسألة أحياناً جواز الوجهين، وفي شرحه لبعض الأحاديث يكتفي أحياناً بالتأويل أو بنقل أقوال المؤولين وقد يناقشها وقد يسكت عنها، وبما أن اليد يختلف المعنى المراد منها بحسب موقعها في الجملة؛ فلنورد المعاني التي تحملها كلمة اليد، ثم كلام الإمام القاري بعد كل حديث من الأحاديث المتعلقة بها من مرقاة المفاتيح، ونصوص بعض العلماء التي تثري البحث.

المعاني التي تحملها لفظة (اليد)

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: ("واليد في اللغة تطلق لمعان كثيرة اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى ما بين حقيقة ومجاز؛ الأول: الجارحة، الثاني: القوة، نحو: داود ذا الأيد، الثالث: الملك، إن الفضل بيد الله، الرابع: العهد، يد الله فوق أيديهم، ومنه قوله: هذي يدي لك بالوفاء، الخامس: الاستسلام والانقياد، قال الشاعر: أطاع يداً بالقول فهو ذلول، السادس: النعمة، قال: وكم لظلام الليل عندي من يد، السابع: الملك، قل إن الفضل بيد الله، الثامن: الذل، حتى يعطوا الجزية عن يد، التاسع: أو يغفوا الذي بيده عقدة النكاح، العاشر: السلطان، الحادي عشر: الطاعة، الثاني عشر: الجماعة، الثالث عشر: الطريق، يقال: أخذتم يد الساحل، الرابع عشر: التفرق، تفرقوا أيدي سبيل، الخامس عشر: الحفظ، السادس عشر: يد القوس أعلاها، السابع عشر: يد السيف مقبضه، الثامن عشر: يد الرحي عود القابض، التاسع عشر: جناح الطائر، العشرون: المدة، يقال: لا ألقاه يد الدهر: الحادي والعشرون: الابتداء، يقال: لقيته أول ذات يدي،

¹ رواه الإمام أحمد، مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، (رقم: 12695)، ورواه البيهقي، شرح السنة، كتاب الفتن، باب شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، (رقم: 4335). إسناده صحيح كما قال الشيخ الأرنؤوط في تحقيق المسند.

وأعطاه عن ظهر يد، الثاني والعشرون: يد الثوب ما فضل منه، الثالث والعشرون: يد الشيء أمامه، الرابع والعشرون: الطاقة، الخامس والعشرون: النقد، نحو: بعتة يدًا بيد⁽¹⁾.

يصلح من هذه المعاني في حق الله تعالى: القوة والملك والعهد والنعمة والسلطان والحفظ. وهي تختمل معاني أخرى ستمر معنا في طيات البحث إن شاء الله.

كلام الإمام القاري

— أما الحديث الأول: وفيه (فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يميني ري وكلتا يدي ري يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته): فقد فوض الإمام القاري فيه معنى اليدين ثم أوَّلَهُمَا، فقال ما نصه: ("فقال له الله ويداه مقبوضتان": الجملة حال والضمير لله، وحقيقة معناها يعجز عنه ما سواه، ومذهب السلف من نفي التشبيه وإثبات التنزيه مع التفويض أسلم، وسيأتي كلام بعض أهل الخلف مع خلف فيما بينهم مع دعواهم أن هذا المذهب أعلم، وكان بعض مشايخنا يقول: إن الله تجليات صورية مع تنزه ذاته عن أمور عارضية، فيزول بها كثير من الإشكالات المتعلقة بالصفات المفهومة من الأحاديث والآيات، وأقرب ما قيل في هذا المقام من التأويل: أنه أراد باليدين صفتي الجمال والجلال، وأن الجمال هو اليمين المطلق، وإن كان اليمين في الجلال أيضا قد تحقق، وبهذا يتضح معنى قوله تعالى لآدم: (اختر أيتهما) أي من اليدين (شئت) أي: أردت (فقال: اخترت يميني ري وكلتا يدي ري يمين): من كلام آدم أو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: (مباركة)، صفة كاشفة (ثم بسطها) أي: فتح الرب تعالى يمينه (فإذا فيها) أي: موجود (آدم وذريته) أي: مثاله وأمثلة أولاده⁽²⁾ — ثم ناقش قول الطيبي وابن فورك بعد إيراده لهما فقال -: (هذا وقد قال الطيبي: "قوله: (وكلتا يدي ري يمين) كاللتميم صوتًا لما يتوهم من إثبات الجارحة من الكلام السابق"⁽³⁾). قلت: - القائل هو الإمام القاري - هذا غير ظاهر، بل إنه تذييل وتكميل احتراسيًا لما يتوهم من قول آدم: "اخترت يميني ري" أن له سبحانه يسارًا وشمالًا، فتكون أحدهما أقوى من الأخرى أو أبرك وأيمن وأحرى، ثم قال: وللشيخ أبي بكر بن محمد بن الحسن بن فورك كلام متين فيه قال: "واليدان إن حملتا على معنى القدرة والملك صح، وإن حملتا على معنى النعمة والأثر الحسن صح؛ لأن ذلك مما حدث في ملكه بتقديره وعن ظهور نعمته على بعضهم"⁽⁴⁾). قلت: - القائل هو الإمام القاري - لا ارتياب في صحة هذا الكلام في نفسه، وأما إرادة هذا المعنى من هذا المبني في هذا المقام، فيحتاج إلى بسط في الكلام ليظهر المقصود ويتضح المرام.

ثم قال ابن فورك: "قد ذكر بعض مشايخنا أن الله عز وجل هو الموصوف بيد الصفة لا بيد الجارحة، وإنما تكون يد الجارحة يمينًا ويسارًا؛ لأنهما يكونان لمتبعض ومتجزئ ذي أعضاء، ولما لم يكن ما وصف الرب به يد جارحة بين بما قال أن ليست هي يد جارحة، قيل: المراد أن الله عز وجل لما وصف باليدين، ويدها الجارحة تكون إحداها يمينًا والأخرى يسارًا، واليسرى ناقصة في القوة والبطش. عرفنا صلى الله عليه وسلم كمال صفة الله عز وجل، وأنه لا نقص فيها، ويحتمل أن آدم عليه السلام لما قيل له اختر أيتهما شئت فقال: اخترت يميني ري وكلتا يدي ري يمين أراد به لسان الشكر والنعمة، لا لسان الحكم والاعتراف بالملك فذكر الفضل والنعمة؛ لأن جميع ما بيديه عز وجل من مننه فضل وطول من مبتدأ؛ فمن منفوع ينفعه، ومن مدفوع عنه يحرسه، فقصد قصد الشكر والتعظيم للمنة.

¹ شيخ الإسلام ابن حجر، فتح الباري، (394/13).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (2954/7).

³ الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله (743هـ)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن). تحقيق: د. عبد الحميد هندواوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - الرياض. الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م، (3050/10).

⁴ ابن فورك، أبو بكر محمد بن الحسن (ت: 406هـ) مشكل الحديث وبيانه. تحقيق: موسى محمد علي، عالم الكتب. بيروت. الطبعة: الثانية. 1985م (ص: 109).

وقيل: أراد به وصف الله تعالى بغاية الجود والكرم والإحسان والتفضل، وذلك أن العرب تقول لمن هو كذلك كلتا يديه يمين، وإذا نقص حظ الرجل وبخس نصيبه قيل جعل سهمه في الشمال، وإذا لم يكن عنده اجتلاب منفعة ولا دفع مضرة قيل: ليس فلان باليمين ولا بالشمال⁽¹⁾.

وقال ابن فورك أيضًا في حديث آخر نحوه: "إن ذلك كان من ملك أمره الله عز وجل بجمع أجزاء الطين من جملة الأرض أمره بخلطها بيديه، فخرج كل طيب بيمينه، وكل خبيث بشماله، فتكون اليمين والشمال للملك، فأضاف إلى الله تعالى من حيث كان عن أمره، وجعل كون بعضهم في يمين الملك علامة لأهل الخير منهم، وكون بعضهم في شماله علامة لأهل الشر منهم، فلذلك ينادون يوم القيامة بأصحاب اليمين وأصحاب الشمال"⁽²⁾.

قال الطيبي: "وأقول - وبالله التوفيق - وتقريره على طريقة أصحاب البيان، هو أن إطلاق اليد على القدرة تارة، وعلى النعمة أخرى من إطلاق السبب على المسبب؛ لأن القدرة والنعمة صادرتان عنها، وهي منشؤها، وكذا القدرة منشأ الفعل والفعل إما خير أو شر وهداية وإضلال، واليدان في الحديث إذا حملتا على القدرة حملتا على خلق الخير والشر والهداية والإضلال، فاليمين عبارة عن خلق الهدى والإيمان، وإليه الإشارة بقوله: فإذا فيهم رجل أضوؤهم على أفعل التفضيل الذي يقتضي الشركة، والشمال على عكسها، ومعنى كلتا يديه يمين: أن كلا من خلق الخير والشر والإيمان والكفر من الله تعالى عدل وحكمة؛ لأنه عزيز يتصرف في ملكه كيف يشاء لا مانع له فيه ولا منازع، حكيم يعلم بلطف حكمته ما يخفى على الخلق، يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم، فمعنى اليمين كما في قول الشاعر:

إذا ما راية رفعت لجحد تلقاها عرابة باليمين

أي: بتدبيره الأحسن وتحريره الأصوب، وإذا حملتا على النعمة كان اليمين المبسوطة عبارة عن منح الألطاف وتيسير اليسرى على أهل السعادة من أصحاب اليمين، والشمال المقبوضة على عكسها. ومعنى كلتا يديه يمين على ما سبق قال تعالى: {الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم} [العنكبوت: 62] فالفاصلتان في الآيتين أعني: " {العزيز الحكيم} [العنكبوت: 42] و {بكل شيء عليم} [العنكبوت: 62]، ملوحتان إلى معنى ما في الحديث من قوله: كلتا يديه يمين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والله أعلم"⁽³⁾ اهـ. ولخص الإمام القاري القول بقوله: (وحاصل مرامه، أن اليدين كناية عن آثار صفتي الجمال والجلال من الضياء والظلمة، والطاعة والمعصية، وما يترتب عليهما من النار والجنة، فأصل إيجاد الخلق بعد عدمهم وقع على وجه الجلال إظهارا للكبرياء والجبروت الناشئ عن صفة العدل، ثم أظهر لمن شاء منهم كمال الجمال الناشئ عن صفة الفضل، ويشير إليه ما ورد عنه أن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه فقد ضل وغوى⁽⁴⁾ (5).

قلت: فتحصل من مجموع ما نقله وحققه الإمام القاري عن الحديث الأول معاني عدة:

أولاً. مذهب السلف: إثبات التنزيه ونفي التشبيه مع العجز عن معرفة حقيقة معناه.

ومثله: قول القائل: إن لله تجليات صورية مع تنزه ذاته عن أمور عارضية.

ثانيًا. مذهب الخلف: وهو فروع:

¹ المصدر السابق (ص: 111-112).

² المصدر السابق (ص: 104-105).

³ الإمام الطيبي، شرح المشكاة، (10/3051).

⁴ رواه الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، (رقم: 2642)، وقال هذا حديث حسن.

⁵ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (7/2954-2955).

1- اليدان عبارة عن: صفتي الجمال والجلال.

2- اليدان بمعنى القدرة.

3- النعمة والأثر الحسن، وهما من إطلاق السبب على المسبب.

4- اليمين والشمال هما يمين وشمال الملك وإضافتهما إلى الله من حيث أن الفعل كان بأمره سبحانه.

5- أن (كلتا يديه يمين) مجاز عن وصف نفسه سبحانه بغاية الجود والكرم.

6- اللطف والرحمة والرأفة والسلطان. وتأويل الكف واليمين كتأويل اليد. وهو قول أبي السعادات ابن الجزري⁽¹⁾.

وقد نقلت في بداية هذا المبحث الخمسة والعشرين معنى التي يستعمل العرب بها لفظ اليد وكل تلك المعاني والاستعمالات هي من اللغة العربية التي نزل القرآن بها ونطق النبي صلى الله عليه وسلم بها، فكيف ساغ للمشبهة أن يتركوا أربعاً وعشرين معنى مستعملاً في اللغة العربية ويتعلقوا بالمعنى الوحيد الذي يأباه المنطق وينكره العقل مع أن الشريعة الغراء لا تصادم العقل؟ سبحانه الله وتعالى عما يقول الجسمون علواً كبيراً.

(روى حرمله بن يحيى قال سمعت عبد الله بن وهب يقول سمعت مالك بن أنس يقول: "من وصف شيئاً من ذات الله مثل قوله: {وقالت اليهود يد الله مغلولة} [المائدة: 64] وأشار بيده إلى عنقه، ومثل قوله: {وهو السميع البصير} [الشورى: 11] فأشار إلى عينيه أو أذنه أو شيئاً من بدنه قطع ذلك منه، لأنه شبه الله بنفسه، ثم قال مالك: أما سمعت قول البراء رضي الله عنه حين حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يضحى بأربع من الضحايا وأشار البراء رضي الله عنه بيده كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده. قال البراء: (ويدي أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم)⁽²⁾ فكره البراء أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له، وهو مخلوق فكيف الخالق الذي ليس كمثله شيء⁽³⁾).

وهذا مثلاً لأدب السلف رضي الله عنهم مع النصوص المتشابهات فهم مع تفويضهم المعنى لله عز وجل ينفون التشبيه بأبلغ صور النفي، وهذا هو مذهب السلف رضي الله عنهم ولم يقولوا: (يد الله يد حقيقية كما في ظاهر اللغة ولكن لا نعرف كيفيتها)! بل قالوا: يد الله صفة لله نثبتها وهي كما في اللغة وليس كما في ظاهر اللغة وسلموا من التشبيه والتجسيم، فإننا في القرآن كله نفهم ألفاظ القرآن وفقاً للغة العربية بشموليتها وليس وفقاً لظاهر اللغة فقط.

قال سحنون (240هـ) رحمه الله: (من العلم بالله الجهل بما لم يخبر به عن نفسه، وهذا الكلام أخذه سحنون عن ابن الماجشون قال أخبرني الثقة عن الثقة عن الحسن بن أبي الحسن قال: لقد تكلم مطرف بن عبد الله بن الشخير على هذه الأعواد بكلام ما قيل قبله ولا يقال بعده، قالوا: وما هو يا أبا سعيد؟ قال: قال: الحمد لله الذي من الإيمان به الجهل بغير ما وصف من نفسه⁽⁴⁾).

وقال سفيان بن عيينة (198هـ) رحمه الله: "هذه الأحاديث نروها ونقر بها كما جاءت بلا كيف⁽⁵⁾".

وقال أيضاً: "كل ما وصف الله تعالى من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه⁽¹⁾".

¹ انظر: ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري (المتوفى: 606هـ)، الشافي في شرح مسند الشافعي. تحقيق: أحمد بن سليمان - ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م، (150-142/3).

² رواه النسائي، كتاب الضحايا، العرجاء، (رقم: 4370) وابن ماجه أبواب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به (رقم: 3144) وقال الحاكم بعد أن رواه في كتاب الصوم أول كتاب المناسك (رقم: 1718): (هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه لقلة روايات سليمان بن عبد الرحمن، وقد أظهر علي بن المديني فضائله وإتقانه، ولهذا الحديث شواهد متفرقة بأسانيد صحيحة، ولم يخرجها) المستدرک على الصحيحين (1/ 640).

³ ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبد الله (المتوفى: 463هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب. د. ت. 1387هـ، (146.145/7).

⁴ ابن عبد البر، التمهيد (147.146/7).

⁵ المصدر السابق. (149/7).

"وعن الوليد بن مسلم قال: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في الصفات فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف.

وذكر عباس الدوري قال: سمعت يحيى بن معين يقول: شهدت زكريا بن عدي سأل وكيع بن الجراح فقال: يا أبا سفيان هذه الأحاديث ... - أي: أحاديث الصفات - فقال أدركت إسماعيل بن أبي خالد وسفيان ومسعرًا يحدثون بهذه الأحاديث ولا يفسرون شيئًا⁽²⁾.

وأما الحديث الثاني وفيه: (والذي نفس محمد بيده) فقد فسرهما العلامة القاري هنا بما يتناسب مع المقام وبأكثر من تأويل ليتحرز من تحديد معنى قد لا يكون هو المراد لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ففسرها بالنعمة وبالقدرة وبالإرادة، ولقد فسر الإمام القاري اليد في قسم النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده) بالقدرة والإرادة والتصرف في أكثر من موضع وسكت عنها في باقي المواضع⁽³⁾. ونصّه في الحديث الذي معنا: ("والذي" أي: والله الذي "نفس محمد": أي: روحه، وذاته، وصفاته، وحالاته، وإرادته، وحركاته، وسكناته (بيده): أي: كائنة بنعمته، وحاصلة بقدرته، وثابتة بإرادته، ووجه استعارة اليد للقدرة أن أكثر ما يظهر سلطانها في أيدينا⁽⁴⁾، وهي من المتشابهات) - ثم بيّن مذهب السلف وهو التفويض ومذهب الخلف وهو التأويل وجمع بين المذهبين بأن الخلاف محمول على اختلاف الزمان وأن الأولى في عصر سلامة الصدور وانعدام البدع هو التفويض، بينما الأولى في عصر الشبهات والبدع هو التأويل - فقال ما نصه: (ومذهب السلف فيها تفويض علمه إلى الله تعالى مع التنزيه عن ظاهره، وهو أسلم حذرا من أن يعين له معنى غير مراد له تعالى، ويؤيده وقف الجمهور على الجلالة في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ [آل عمران: 7] وعدوه وقفًا لازمًا، وهو ما في وصله إيهام معنى فاسد، ومن ثم قال أبو حنيفة - رحمه الله - : تأويل اليد بالقدرة يؤدي إلى تعطيل ما أثبتته تعالى لنفسه، وهكذا ينبغي الإيمان بما ذكره الله تعالى من ذلك ونحوه على ما أراده، ولا يشتغل بتأويله فنقول: له يد على ما أراده لا كيد المخلوقين، ومذهب الخلف فيها تأويله بما يليق بجلال الله تعالى وتنزيهه عن الجسم والجهة ولوازمها بناء على أن الوقف على "الراسخون" في العلم. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: "أنا أعلم تأويله، وأنا من الراسخين في العلم. قيل: وهذا أعلم وأحكم أي: يحتاج إلى مزيد علم وحكمة حتى يطابق التأويل سياق ذلك النص، وليس المعنى أن مذهب الخلف أكثر علمًا، فالمذهبان متفقان على التنزيه، وإنما الخلاف في أن الأولى ماذا، أهو التفويض أم التأويل؟

ويمكن حمل الخلاف على اختلاف الزمان، فكان التفويض في زمان السلف أولى؛ لسلامة صدورهم وعدم ظهور البدع في زمانهم، والتأويل في زمان الخلف أولى؛ لكثرة العوام وأخذهم بما يتبادر إلى الأفهام، وغلو المبتدعة بين الأنام، والله أعلم بالمرام⁽⁵⁾.

قلت: هذا كلام الإمام القاري مع جازته كاف لدفع الإشكال، فالتسليم مع صفاء الإيمان أولى، والتأويل لإزالة الشبهات أجلي.

¹ البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين (المتوفى: 458هـ)، الأسماء والصفات. تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى، جدة، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993م، (158/2).

² ابن عبد البر، التمهيد (147.146/7).

³ انظر: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (276/1)، و(2491/6)، و(787/2)، و(832/3)، و(1252/3)، و(1615/4)، و(2121/5)، وفسر اليد في قوله: (بيدي الأمر): بكون الأمور تحت تصرف الله انظر: (96/1).

⁴ قال المظهرى: (بيده)؛ أي: بقدرته وأمره، يقلبها ويصرفها كيف يشاء، سميت القدرة يدًا؛ لأن قوة الإنسان وقدرته وتصرفه باليد، فأطلق اسم اليد التي هي سبب القدرة والقوة على القوة والقدرة. انظر المظهرى، الحسين بن محمود (المتوفى: 727 هـ)، المفاتيح في شرح المصابيح. دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الأولى، 1433هـ - 2012م، (71/1).

⁵ الإمام القاري في مرقاة المفاتيح (76/1-77).

وأما الحديث الثالث: (يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يده، وقال: عرشه على الماء، ويده الأخرى الميزان، يخفض ويرفع): **فقال فيه الإمام القاري رحمه الله:** ("يد الله": كناية عن محل عطائه أي: خزائنه⁽¹⁾). "ملأى"⁽²⁾: على زنة فعلى، تأنيث ملآن كناية عن كثرة تلك النعمة وعمومها ... ("فإنه" أي: الإنفاق "لم يغيض": بفتح الياء، وكسر الغين، لم ينقص (ما في يده): موصولة مفعول أي: في خزائنه"). وبعد ذلك أتى بقول الطيبي والمظهر فقال: "وقال الطيبي: يد الله ملأى أي: نعمته غزيرة، كقوله تعالى {بل يدها مبسوطتان} [المائدة: 64] فإن بسط اليد مجاز عن الجود، ولا قصد إلى إثبات يد ولا بسط"⁽³⁾ وقال المظهر: يد الله أي: خزائن الله. قيل: إطلاق اليد على الخزائن لتصرفها فيها، والمعنى بالخزائن قوله: {كن فيكون} [البقرة: 117] لأنه له القدرة على إيجاد المعلوم، ولذلك لا ينقص أبدا"⁽⁴⁾...) - ثم انتقل الإمام القاري إلى تمتة الحديث وهو: قوله صلى الله عليه وسلم: (بيده الميزان) فأولها بادئ الأمر بالقدرة، وهو المعنى المتبادر إلى الذهن بدون تكلف فقال:- ("ومعنى قوله: "بيده الميزان": بقدرة وتصرفه ميزان الأعمال، والأرزاق (يخفض، ويرفع) أي: ينقص النصيب، والرزق باعتبار ما كان يمنحه قبل ذلك، ويزيد بالنظر إليه. بمقتضى قدره الذي هو تفصيل لقضائه الأول.

أو: يخفض ويرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه يقللها لمن يشاء، ويكثرها لمن يشاء كمن بيده الميزان؛ يخفض تارة، ويرفع أخرى.

وقيل: المراد به العدل، يعني: ينقص العدل في الأرض تارة بغلبة الجور وأهله، ويرفعه تارة بغلبة العدل وأهله". - ثم أتى الإمام القاري برواية مسلم وفيها لفظ: "يمين الله ملأى" فأعطى معنى جميلاً جديداً لم أجده عند غيره وهو أن اليدين عبارة عن التصرفين من إعطاء الجزيل والقليل فقال ما نصه:- ((وفي رواية لمسلم): (يمين الله ملأى): قيل: خص اليمين؛ لأنها مظنة العطاء، أو إشارة إلى يمن العطاء وبركته، فمن تلقاه بالقبول والرضا بورك له في قليله حتى فاق على كثير ليس كذلك على ما هو مشاهد، وورد في الحديث: "وكلتا يديه يمين" أي: مباركة قوية قادرة لا مزية لإحداها على الأخرى، ولعله أراد باليدين التصرفين من إعطاء الجزيل، والقليل)⁽⁵⁾ (6).

ويزيد المسألة بياناً كلام الإمام البيهقي قال رحمه الله: (وذهب بعض أهل النظر منهم إلى أن اليمين يراد به اليد، والكف عبارة عن اليد، واليد لله تعالى صفة بلا جارحة، فكل موضع ذكرت فيه من كتاب وسنة صحيحة فالمراد بذكرها تعلقها بالكائن المذكور

¹ لعله تبع في ذلك ابن الملك في شرحه على المصابيح فإنه عبر بنفس اللفظ انظر: (112/1). وقال الإمام البرماوي: "يد الله) فيه التفويض أو التأويل؛ إما بكونه كناية عن محل عطائه، أو بنحو ذلك". البرماوي، أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم (المتوفى: 831 هـ)، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح. دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م، (17/360).

² وقال الإمام العيني: "قوله: (يد الله ملأى) كناية عن خزائنه التي لا تنفذ بالعطاء". العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (المتوفى: 855 هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت، (18/293) وقال في موضع آخر: "واليمين هاهنا كناية عن محل عطائه ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها فجعلها كالعين الثرة التي لا يغيضها الاستقاء ولا ينقصها الامتناع، وخص اليمين لأنها في الأكثر مظنة العطاء على طريق المجاز والامتياز". انظر: (106/25). وقال الإمام السيوطي: "يد الله ملأى): هو على طريق التمثيل، والمراد: أنه في غاية الغنى، وعنده من الرزق ما لا نهاية له". السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911 هـ)، التوشيح شرح الجامع الصحيح. تحقيق: رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد - الرياض. الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م، (7/2884).

قلت: وهذه النقول المتضاربة تدل على أن منهج المحدثين ومشرعهم متفق، فهم إما مفوضون أو مؤولون بما يليق وما تتسع له اللغة العربية.

³ الطيبي، شرح مشكاة المصابيح، (2/552).

⁴ المظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (197/1). قلت: وقد أتى الإمام القاري بما بالمعنى ولفظ المظهر: "خزائنه وكرمه وجوده".

⁵ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (1/166-167).

⁶ وانظر: ابن فورك مشكل الحديث وبيانه (ص: 437).

معها، من الطي والأخذ، والقبض والبسط، والمسح، والقبول، والإنفاق، وغير ذلك تعلق الصفة الذاتية بمقتضاها من غير مباشرة ولا مماسة، وليس في ذلك تشبيه بحال⁽¹⁾.

وبناء على ذلك فإن العلماء أولوا اليد في أول هذا الحديث بمعانٍ متقاربة كالنعمة ومحل العطاء أي: الخزان، والجود، والإحسان، والفضل، والكرم، والغنى، وأن الرزق عنده، وما شابه ذلك، ولا شك أن هذا هو المتبادر إلى الذهن بدون تكلف، وحاصل الأقوال التي ذكرها ترجع لمعنى واحد هو: الجود والكرم، وأولوا قوله صلى الله عليه وسلم: (بيده الميزان) أنها كناية عن قدرته سبحانه وتعالى، وهذا هو رأي الأئمة ومنهم الإمام القاري وقد أضاف معنى جديداً غير ما ذكر كما مر.

وأما الحديث الرابع: (يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون. ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) فنقل الإمام القاري قول بعض العلماء فيه واكتفى بذلك في هذا المقام، حيث إنه بسط القول في المواطن السابقة التي ذكرتها؛

قال الإمام القاري رحمه الله: ("قال أصحاب التأويل: المراد باليد اليمنى والشمال: القدرة. والمراد من الطي: التسخير التام والقهر الكامل، وهو كذلك الآن أيضاً، ولكن في القيامة يكون أظهر، ونسب طي السماوات إلى اليمين وطي الأرضين إلى الشمال؛ تنبيها لما بينهما من المقبوضين من التفاوت، بعد أن نزه ذاته سبحانه من نسبة الشمال إليه بقوله: وكلتا يديه يمين؛ لأن الشمال ناقص في القوة عادة، والله منزّه عن النقصان، وعن سائر صفات الحدثان")⁽²⁾.

وقد بيّن الإمام المازري (536هـ) أن المراد بهذا الحديث أمران: أحدهما: تصوير قدرة الله وتفهم المخاطب ذلك بما يعقل وما يعرف. والثاني: الإشارة إلى أن السموات أشرف من الأرض إذ إننا نتناول ما نكرمه وما يحتاج إلى قوة باليمين وما دونه في المكانة والصعوبة بالشمال وإن كان سبحانه ليس شيء أخف عليه من شيء، ولا شيء أصعب من شيء، ولكنه تعالى خاطبنا بما نفهم⁽³⁾.

وأرشدنا القاضي عياض (544هـ) إلى قاعدة في التعامل مع أحاديث الصفات عامة، وهي: التفويض والتسليم مع الإيمان والتنزيه، ومع فهم الحديث بما يحتمله اللفظ في لغة العرب من معانٍ مع عدم القطع بأحد المعاني، قال رحمه الله: (والله أعلم بمراد نبيه صلى الله عليه وسلم فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل، ونحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئا به ولا نشبهه بشيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عنه فهو حق وصدق، فما أدركنا علمه بفضل الله تعالى، وما خفي علينا آمناء به ووكلنا علمه إليه سبحانه وتعالى، وحمّلنا لفظه على ما احتل في لسان العرب الذي خوطبنا به، ولم نقطع على أحد معنييه بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به سبحانه وتعالى، وبالله التوفيق)⁽⁴⁾.

وذهب ابن هبيرة (560هـ) إلى اعتماد زبدة وفحوى الحديث مع جواز رواية هذه الأحاديث والتسليم بها وتنزيه الباري عن مشابهة الحوادث ثم قال: (والقاعدة في هذا الحديث: أن السموات والأرض في يد الله سبحانه، وفي قبضته لا يفوته منها شيء، ولا يخفى عن علمه منها شيء، ولا يعزب عن قدرته منها قليل ولا كثير)⁽⁵⁾.

¹ البيهقي، الأسماء والصفات، (159/2).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (8/3506). وانظر: المظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (5/469).

³ انظر: المازري، محمد بن علي (المتوفى: 536هـ)، المعلم بفوائد مسلم. تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، الطبعة: الثانية، 1988 م، الجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م. (3/347).

⁴ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/320) ونقله النووي في شرح صحيح مسلم (17/133).

⁵ ابن هبيرة، أبو المظفر يحيى بن هبيرة (المتوفى: 560هـ)، الإفصاح عن معاني الصحاح. تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، 1417هـ، (4/71).

واستدل الإمام التوريشي (661هـ) بهذا الحديث على نفى الجسمية والجراحة عن الله تعالى فقال: (يحتمل أن هذا غلط من الراوي، أو ظن منه على أن إحداها سد مسد الأخرى، والأولى أن لا يُغْلَطَ الراوي، ويجمع بين الحديثين - يعني: بين هذا الحديث، وبين قوله: "كلتا يديه يمين" - ونقول: التوفيق بينهما، والعلم عند الله سبحانه: أنا إذا جعلنا اليد عبارة عن القدرة، وهو مطابق لقوله: "كلتا يديه يمين"؛ لأن هذا أيضا إشارة إلى تنزيهه عن الجوارح والأجسام، فإنه لو كان جسمائياً؛ لاستحال أن تكون كلتا يديه يميناً، والفرق بين اليمين والشمال: أن الأخذ باليمين عبارة عن أن التسخير الأول أتم وأكمل من التسخير الثاني المعبر عنه بالأخذ بالشمال؛ لأن السماء السابعة مثلاً أكبر الأجسام، فيكون تسخيرها أقوى من تسخير ما تحته من السماوات⁽¹⁾).

وأما الحديث الخامس: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين): فقال فيه الإمام القاري: (قال القاضي عياض: يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقة على ظاهر الحديث، وأن يكون كناية عن المنازل الرفيعة، قال الشيخ: ويمكن أن يجمع بينهما؛ لأن من كان على منابر فهو على أعلى مرتبة، ويؤيده قوله: (عن يمين الرحمن)، قال التوريشي: المراد منه كرامتهم على الله، وقرب محلهم وعلو منزلتهم، وذلك أن من شأن من عظم قدره في الناس؛ أن يبوأ عن يمين الملك، ثم إنه نزه ربه سبحانه عما سبق إلى فهم من لم يقدر الله حق قدره، من مقابلة اليمين باليسار، وكشف عن حقيقة المراد بقوله: (وكلتا يديه يمين). قال الخطابي: ليس فيما يضاف إلى الله تعالى من صفة اليدين شمال؛ لأن الشمال على النقص والضعف، وقوله: "وكلتا يديه يمين"؛ هي صفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكفيها، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار الصحيحة؛ وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقال النووي: العرب تنسب الفعل الذي يحصل بالجهد والقوة إلى اليمين، وكذا الإحسان والإفضال إليها، وضدها إلى اليسار، وقالوا: اليمين مأخوذ من اليمن، وقال القاضي: وكلتا يديه؛ دفع لتوهم من يتوهم أن له يميناً من جنس أيماننا التي يقابلها يسار، وأن من سبق إلى التقرب إليه حتى فاز بالوصول إلى مرتبة من مراتب الزلفى من الله؛ عاق غيره عن أن يفوز بمثله كالسابق إلى محل من مجلس السلطان، بل جهاته وجوانبه التي يتقرب إليها العباد سواء⁽²⁾).

وأما الحديث السادس: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة؛ فقد فسر الإمام القاري اليد بالقدرة والإرادة مختصراً فقال: ("بيده" أي: من يد إلى يد وكلتا يديه يمين، ولعل المراد بهما القدرة والإرادة، فإنه سبحانه منزّه عن الجراحة⁽³⁾).

وكذلك أولها التوريشي والمظهري، قال المظهري: (يتكفؤها): يقلبها، من (كفأت الإناء): إذا قلبتها؛ يعني: يقلبها الله سبحانه خبزة واحدة يهيئها ويرزقها نزلاً لأهل الجنة. و (النزل) بضم الزاي وسكونها: ما يهيأ للنزول، وهو الضيف. قال الإمام التوريشي: (يتكفؤها) من رواية البخاري، وروي في "كتاب مسلم": (يكفؤها)، وهو الصواب على ما نعرفه من رواية الحفاظ، وهو المستقيم على اللغة العربية، والمعنى: يقلبها⁽⁴⁾).

وقال ابن الملك: ("يتكفؤها الجبار": صفة (خبزة)؛ أي: يقلبها ويميلها ويبدلها. "بيده نزلاً لأهل الجنة": و (النزل) بالضم: ما يهيأ للنزول، وهو الضيف. وقيل: المراد ما عند الله من الأجر والثواب. وقيل: أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد

¹ التوريشي، فضل الله بن حسن (المتوفى: 661 هـ)، الميسر في شرح مصابيح السنة. تحقيق: د. عبد الحميد هندائي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الثانية، 1429 هـ - 2008 هـ، (4/1184-1185)، وانظر: المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (5/469). وابن الملك، شرح المصابيح (6/21).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (6/2404).

³ المصدر السابق (8/3511).

⁴ انظر: المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (5/473-474).

أن جرم الأرض ينقلب يومئذ في الشكل والطبع خبزة واحدة، بل أراد به: أنها تكون حينئذ بالنسبة إلى ما أعده الله تعالى لأهل الجنة كقرصة النقي يستعجل المضيف بها نزلاً للضيف، ونبه صلى الله عليه وسلم بذلك على عظم نعم الآخرة، وحقارة نعم الدنيا بالإضافة، وأشار إلى سهولة تصرفه فيها. ومنهم من أجرى الحديث على ظاهره، فإن الله تعالى قادر على أن يقلب طبع الأرض إلى طبع المطعوم⁽¹⁾.

وأما الحديث السابع: وفيه عن الصدقة: (وإن الله يتقبلها بيمينه): **فقال فيه الإمام القاري:** ("وإن الله يتقبلها بيمينه": يدل على حسن القبول ووقوع الصدقة منه موقع الرضا على أكمل الحصول لأن الشيء المرضي يتلقى باليمين في العادة)⁽²⁾.

قال ابن فورك (406هـ): (اليمين ههنا بمعنى النعمة والفضل وذلك بفضل في القبول وتضعيف الثواب عليها والمراد بالكف القدرة أيضاً كما قال القائل: هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها)⁽³⁾.

وأول ابن عبد البر (463هـ) هذا الحديث — والمشبهة يعتمدون أقواله وينسبونه إلى أنفسهم أنه من علمائهم — فقال: (وأما قوله: (يأخذها بيمينه) فهذا مجاز وحسن عبارة عن قبول الله تعالى للصدقة، ومعنى أخذ الله لها قبوله تبارك وتعالى، لا يشبهه شيء وليس كمثلته شيء وهو السميع العليم)⁽⁴⁾.

وأما الحديث الثامن: وفيه (فإن يد الله على الجماعة): **فقال فيه الإمام القاري:** ("يد الله على الجماعة" أي: نصرته، ونظر عنايته عليهم دون غيرهم)⁽⁵⁾.

قلت: ويمثل قوله قال الإمام ابن فورك⁽⁶⁾، والإمام السندي⁽⁷⁾. وقال المباركفوري (1353هـ): ("يد الله على الجماعة" أي: حفظه وكلاءته عليهم يعني أن جماعة أهل الإسلام في كنف الله فأقيموا في كنف الله بين ظهرانيهم ولا تفارقوهم)⁽⁸⁾.

وأما الحديث التاسع: (وثلاث حثيات من حثيات ربي) **فقال فيهما الإمام القاري:** ((وثلاث حثيات): بفتح الحاء والمتلثة جمع حثية (من حثيات ربي)، قال شارح: الحثية والحثوة يستعمل فيما يعطيه الإنسان بكفيه دفعة واحدة من غير وزن وتقدير، ثم تستعار لما يعطى من غير تقدير، وإضافة الحثيات إلى ربه تعالى للمبالغة في الكثرة، قال صاحب النهاية: الحثيات كناية عن المبالغة والكثرة؛ وإلا فلا كف ثمة ولا حثي، جل الله عن ذلك، ثم قوله: وثلاث مرفوع عطف على سبعون وهو أقرب، وقيل منصوب عطفاً على سبعين، أي: وأن يدخل ثلاث قبضات من قبضاته، أي: عددًا غير معلوم، والمعنى: يكون مع هذا العدد المعلوم عدد كثير غير معلوم، أو المراد منهما جميعاً المبالغة في الكثرة... قال التوربشتي - رحمه الله: الحثية ما يحثيه الإنسان بيديه من ماء أو تراب أو غير ذلك، ويستعمل فيما يعطيه المعطي بكفيه دفعة واحدة، وقد جيء به هاهنا على وجه التمثيل، وأريد بها الدفعات أي: يعطى بعد هذا العدد

¹ ابن الملك، شرح المصابيح (6/25).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (4/1333).

³ ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 436).

⁴ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (المتوفى: 463هـ)، الاستذكار. تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م، (8/596).

⁵ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (3/839).

⁶ انظر: ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص: 434).

⁷ انظر: السندي، محمد بن عبد الهادي التتوي، (المتوفى: 1138هـ)، حاشية السندي على سنن النسائي. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م، (7/92).

⁸ المباركفوري، تحفة الأخوذ، (6/322).

المنصوص عليه ما يخفى على العادين حصره وتعداده ؛ فإن عطائه الذي لا يضبطه الحساب أوفى وأرى من النوع الذي يتداخله الحساب. قلت: ويمكن حمله على التجلي الصوري، والله أعلم بالصواب⁽¹⁾.

وأما الحديث العاشر: (بكف واحد) **فقال فيه الإمام القاري:** (فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله) أي: زدنا في الإخبار عما وعدك ربك إدخال أمتك الجنة بشفاعتك، يدل على هذا التأويل حديث أبي أمامة... (وفي قوله: زدنا، على أن له - صلى الله تعالى عليه وسلم - مدخلا ومجالا في الأمور الأخروية، وفي التصرفات الربوبية، بحسب ما أولاه مولاه من الرتبة الجليلة والمزية العلية. (قال) أي: أنس (وهكذا) أي: وفعل وهكذا، وتفسير (فحثا بكفيه وجمعها، فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله، قال: وهكذا) أي: فحثا بكفيه وجمعهما، والظاهر أن هذا حكاية لفعله سبحانه؛ ولذا قال الشراح: إنما ضرب المثل بالحثيات؛ لأن من شأن المعطي الكريم إذا استزید أن يحثي بكفيه من غير حساب، وربما ناوله ملاء كف، فالحثي كناية عن المبالغة في الكثرة، وإلا فلا كف ولا حثي... (بكف واحد) أي: بمرتبة واحدة (فعل)، كما قال سبحانه: {ولو شاء لهداكم أجمعين} [النحل: 9]، {ولكن الله يفعل ما يريد} [البقرة: 253] قيل: أراد بكف واحد عطائه وفضله، أي: لو أراد أن يدخل الخلق كله بفضل رحمته فعل ؛ فإنما أوسع من ذلك،... فقوله: بكف واحد، مؤول بعطاء واحد، أو بمقبوض واحد⁽²⁾. فالحثيات: كناية عن المبالغة والكثرة. والكف الواحد: كناية عن عطاء واحد. أو: مقبوض واحد.

الترجيح

كان مذهب الإمام القاري في أحاديث اليد هو التأويل في كل الأحاديث الماضية وأضاف مع التأويل التفويض في الحديث الأول والخامس فقط وذلك لسببين أساسيين فيما يرى الباحث: الأول: أن استعمال اليد كناية وجازاً واستعارة شائع في اللغة العربية شيوعاً كبيراً. الثاني: أنه ينقل عن أسلافه من العلماء والشراح وجمهورهم على التأويل وحده أو مضاعفاً إلى التفويض. ويرجح الباحث في هذه الأحاديث أن الأحاديث التي تعبر عن عظمة قدرة الله تعالى كطي السموات والأرض بيده سبحانه تؤول اليد فيها بالقدرة، والتي تقول أن يد الله مع الجماعة تؤول بالنصرة، ويد الله سحاء: كناية عن العطاء، والقاعدة في ذلك: أن المراد بصفة اليد يكون بحسب متعلقها، وهذا هو المتبادر إلى الذهن، وهو ظاهر عند أهل العقول، إذ لو كانت جارحة فكيف تكون السماوات مطويات بيمينه وهو في السماء أصلاً على زعم المجسمين تعالى الله عما يقول الظالمون.

لكن: للعباد مندوحة عن التأويل، وهو أن يفوضوا المعنى لله تعالى، وهو الاعتراف بعجز العقل عن أن يحيط بإدراك صفاته تعالى، وهو جزء من العبودية، وكان اكتفاء الإمام القاري بتأويل اليد بالقدرة وبالنصرة في بعض المواطن دليلاً على ظهور المسألة عنده وأنها غير مشككة إلا على من لم يعرف لغة القرآن وجوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (8/ 3530).

² المصدر السابق، (8/ 3570).

المبحث الثاني الأحاديث المتعلقة بالأصابع

الحديث الأول

(11)[89]- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(12)[748]- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس، فخرج سريعاً فتؤب بالصلاة، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجوّز في صلاته، فلما سلم دعا بصوته فقال لنا: ((على مصافكم كما أنتم)) ثم انفتل إلينا فقال: ((أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة: أني قمت من الليل فتوضأت فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملائ الأعلی؟ قلت: لا أدري رب، قالها ثلاثاً " قال: " فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملائ الأعلی؟ قلت: في الكفارات، قال: ما هن؟ قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء في المكروهات، قال: ثم فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمي، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك))، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنها حق فادرسوها ثم تعلموها))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(13)[5524]- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: "جاء خبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعجباً مما قال الخبر، تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [الزمر: 67]⁽³⁾.

أما الحديث الأول: (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن): فقد رأى بعض العلماء أن هذا الحديث وأمثاله ليس من أحاديث الصفات المتشابهات فهو واضح جلي محمول على الجواز والانتساع وليس هو كالأحاديث التي فيها ذكر اليد مثلاً وما شابهها من المتشابه التي وجب فيها التفويض - كما يرى هذا الفريق من

¹ رواه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، (رقم: 2654).

² رواه الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة ص، (رقم: 3235)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل، عن هذا الحديث، فقال: (هذا حديث حسن صحيح".

³ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره) (رقم: 4811)، ورواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (رقم: 2786). واللفظ له.

العلماء - وقد حملهم على ذلك - والله أعلم - أن الإمام أحمد بن حنبل و بعض السلف رحمهم الله أولوا هذا الحديث⁽¹⁾. ولذلك قسموا المتشابه إلى قسمين: ما لا يقبل التأويل وما يقبله. ومن هؤلاء: الإمام التوريشي الذي ابتداء الإمام القاري شرحه لهذا الحديث بالنقل عنه.

قال الإمام القاري: ("قال التوريشي: ليس هذا الحديث مما يتنزه السلف عن تأويله كأحاديث السمع، والبصر، واليد، وما يقاربها في الصحة، والوضوح، فإن ذلك يحمل على ظاهره من غير أن يشبه بمسميات الجنس، أو يحمل على معنى الاتساع والمجاز، بل يعتقد أنها صفات الله لا كيفية لها، وإنما تنزهوا عن تأويل القسم الأول لأنه لا يلتزم معه، ولا يحمل ذلك على وجه يرتضيه العقل إلا ويمنع منه الكتاب والسنة من وجه آخر، وأما مثل هذا الحديث فليس في الحقيقة من أقسام الصفات، ولكن ألفاظ مشاكلة لها في وضع الاسم، فوجب تحريجه على وجه يناسب نسق الكلام"⁽²⁾).

- ثم قال - : قيل: المتشابه قسمان؛ الأول: لا يقبل التأويل، ولا يعلم تأويله إلا الله، كالنفس في قوله: {ولا أعلم ما في نفسك} [المائدة: 116] والمحيي في {جاء ربك} [الفجر: 22] وفواتح السور، والثاني: يقبله، ذكر شيخ الشيوخ السهروردي قدس الله سره: أخبر الله ورسوله بالاستواء، والزوال، واليد، والقدم، والتعجب، وكل ما ورد من هذا القبيل من دلائل التوحيد فلا يتصرف فيه بتشبيه، وتعطيل. قيل: هذا هو المذهب المعول، وعليه السلف الصالح، ومن ذهب إلى القول الأول شرط في التأويل أن كل ما يؤدي إلى تعظيم الله فهو جائز، وإلا فلا. - ثم نقل قول ابن حجر الهيتمي وهو لا يستغني عن تحقيقاته - فقال: (قال ابن حجر: "أكثر السلف لعدم ظهور أهل البدع في أزمنتهم يفوضون علمها إلى الله تعالى مع تنزيهه سبحانه عن ظاهرها الذي لا يليق بجلال ذاته، وأكثر الخلف يؤولونها بحملها على محالّ تليق بذلك الجلال الأقدس، والكمال الأنفس لا يضطرارهم إلى ذلك لكثرة أهل الزيغ والبدع في أزمنتهم، ومن ثم قال إمام الحرمين: لو بقي الناس على ما كانوا عليه لم نؤمر بالاشتغال بعلم الكلام، وأما الآن فقد كثرت البدع فلا سبيل إلى ترك أمواج الفتن لتلظم، وأصل هذا اختلافهم في الوقف في قوله تعالى: {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم} [آل عمران: 7] فالأكثر على الوقف على الجلالة، والأقل على الوقف على (العلم)، ومن أجلهم ابن عباس رضي الله عنهما فكان يقف عليه، ويقول حملاً للناس على سؤاله، والأخذ عنه: أنا من الراسخين في العلم، على أنه يمكن رفع الخلاف بأن المتشابه على قسمين: ما لا يقبل تأويلاً قريباً فهذا محمل الوقف الأول، وما يقبله فهذا محمل الثاني، ومن ثم اختار بعض المحققين قبول التأويل إن قرب من اللفظ، واحتمله وضعاً، ورده إن بعد عنه، والحاصل أن السلف والخلف مؤولون لإجماعهم على صرف اللفظ عن ظاهره، ولكن تأويل السلف إجمالي لتفويضهم إلى الله تعالى، وتأويل الخلف تفصيلي لا يضطرارهم إليه لكثرة المبتدعين... (من أصابع الرحمن): إطلاق الأصبع عليه تعالى مجاز أي: تقليب القلوب في قدرته يسير، يعني أنه تعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع منها شيء، ولا يفوته ما أراده، كما يقول: فلان في قبضتي أي: كفي، لا يراد أنه في كفه، بل المراد أنه تحت قدرتي، وفلان بين أصبعي ألقبه كيف شئت أي: إنه هين علي قهره، والتصرف فيه كيف شئت. وقيل: المراد بأصبعين صفتا الله، وهما صفة الجلال والإكرام، فبصفة الجلال يلهمها فجورها، وبصفة الإكرام يلهمها تقواها. أي: يقلبها تارة من فجورها إلى تقواها، وتارة

¹ قال الإمام ابن العربي: (وقوله: "كلتا يديه يمن" معناه: أن إحداهما لا تنقص عن الأخرى. قال الإمام: ومثل هذا وأشباهه مما لا يجوز على الله صرح أحمد بن حنبل في تأويل ثلاثة أحاديث فقط: أحدها: قوله صلى الله عليه وسلم: "الحجر الأسود بمن الله في الأرض". الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: "إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين". الثالث: قوله صلى الله عليه وسلم: "قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن". قال: هذا يستحيل على الله فينبغي أن يرد إلى قانون للتأويل، وكان أسلم له). انظر: المسالك في شرح موطأ مالك (3/465).

² التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة، (54/1).

من تقواها إلى فجورها. وقيل: معناه بين أثري من آثار رحمته، وقهره أي: قادر أن يقلبها من حال إلى حال من الإيمان والكفر، والطاعة، والعصيان⁽¹⁾ (2).

قلت: فتحصل مما نقله الإمام القاري عن أسلافه من العلماء أقوال خمسة:

- 1- أن هذا من باب الاتساع والمجاز وليس هو من المتشابهات أصلاً.
 - 2- التفويض مع التنزيه.
 - 3- كناية عن القدرة وسهولة التصرف.
 - 4- المراد: النعمة والأثر.
 - 5- المراد من الحديث: صفتا الجلال والإكرام.
- لكن هناك بعض العلماء قالوا أقوالاً أخرى تتناسب مع هذا المقام وتحتملها ألفاظ الحديث ومن ذلك:
- 1- أن الأصبع هو ملك من الملائكة.
 - 2- هو بعض من مخلوقات الله. وهما يتناسبان مع الحديثين الثاني والثالث.
 - 3- المراد: التوفيق والخذلان.

وجمهور العلماء على ذكر المذهبين معاً من التفويض مع التنزيه والتأويل مع نفي التشبيه⁽³⁾ وههنا نصوص للعلماء لا بد من الإتيان بما بالفاظها للضرورة لدحض دعاوى مجسمة عصرنا بأنهم أهل الحديث وعلى مذهب أهل الحديث وأنهم أتباع السلف، وما ذلك منهم في الحقيقة إلا كما قيل: (رُبَّ قَوْلٍ تَرُدُّهُ الْأَفْعَالُ)، وقد افترأوا على أهل الحديث والسلف، والمسلمون من التجسيم والفهم السقيم بُرَاءً، فها هم المحدثون وشرح الحديث وجمهور المسلمين وأهل السنة قاطبة بين قسمين لا ثالث لهما: مفوّض مع نفي التشبيه ومؤوّل مع التنزيه.

نصوص بعض العلماء

قال الإمام النووي (676هـ): (هذا من أحاديث الصفات وقد سبق فيها المذهبان التأويل والإمساك عنه مع الإيمان بما مع اعتقاد أن الظاهر منها غير مراد فعلى قول المتأولين يتأولون الأصابع هنا على الاقتدار أي خلقها مع عظمها بلا تعب ولا ملل والناس يذكرون الإصبع في مثل هذا للمبالغة والاحتقار فيقول أحدهم بأصبعي أقتل زيدا أي: لا كلفة علي في قتله وقيل يحتمل أن المراد أصابع بعض مخلوقاته وهذا غير ممتنع والمقصود أن يد الجارحة مستحيلة. - ثم أتى بكلام القاضي عياض الذي مر معنا في المبحث السابق-) (4).

¹ ابن حجر الهيتمي، فتح الإله في شرح المشكاة، (1/447-448).

² الإمام القاري، مرقة المفاتيح، (1/161-162).

³ انظر: البيهقي، الأسماء والصفات (2/168)، وابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين. تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض، (1/270-271)، وابن المنير، أحمد بن محمد (المتوفى: 683هـ)، المتواري علي تراجم أبواب البخاري. تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا - الكويت، د. ت. (ص: 425)، الكرماني، محمد بن يوسف (المتوفى: 786هـ)، الكواكب الدار في شرح صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، طبعة أولى: 1356هـ، طبعة ثانية: 1401هـ (25/201-202)، وابن الملتن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي (المتوفى: 804هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح. تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، 1429هـ (1/215 - 216)، وابن الدماميني، محمد بن أبي بكر (المتوفى: 827هـ)، مصابيح الجامع. تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر - سوريا، الطبعة: الأولى، 1430هـ (10/196-198)، والعيني، عمدة القاري (25/168)، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. دار ابن عفان للنشر والتوزيع - السعودية، الطبعة: الأولى 1416هـ (6/148)، ومحمد فؤاد عبد الباقي، في تحقيقه لصحيح مسلم (4/2045) وغيرهم كثير جدا مما يصعب على الحصر وقد ذكرت هؤلاء تنبيها على أولئك ولم أقصد الاستيعاب.

⁴ الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، (17/133-129).

وقال الإمام القسطلاني (923هـ): (واختلف أئمتنا في ذلك هل نؤول المشكل أم نفوضُ معناه المراد إليه تعالى مع اتفاقهم على أن جعلنا بتفصيله لا يقدح في اعتقادنا المراد منه، والتفويض مذهب السلف وهو أسلم، والتأويل مذهب الخلف وهو أعلم أي أحوج إلى مزيد علم فنؤول الأصبع هنا بالقدرة إذ إرادة الجارحة مستحيلة، وقد قال الزنجشري في كشفه بعد ذكر نحو حديث الباب: إنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكنّ قهقهة وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحرر فيها الأذهان ولا تكتنئها الأوهام هينةٌ عليه هوائاً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة وفي مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء فإن أكثره وعُليته تخيلات قد زلت فيها أقدام، وما أُنِيَ الزلّون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدّره حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يخلُ عُقدها المورية ولا يفك قيودها المكربة إلا هو، وكَم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأول ليس من هذا العلم في عبر ولا نفي ولا يعرف قبلاً من دبر⁽¹⁾).

ومن تأولها ولم يذكر فيها التفويض - إذ هي عنده جزءاً من أبواب المجاز والكنائيات وليست من المشتبهات - الإمام ابن فورك قال رحمه الله: (اعلم أن أهل العلم قد تأولوا ذلك على وجوه، وإنما مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قدرة القدم بأوضح ما يفعلون من أنفسهم، لأن الرجل منهم لا يكون على شيء أقدر منه إذا كان بين أصبعيه، ولذلك يضرب المثل به، فيقولون: ما فلان إلا في يدي وخصري يريدون بذلك أنه عليه مسلط وأنه لا يتعذر عليه أن يكون على ما يريد، وقال بعض أهل العلم: الأصبعين ههنا بمعنى النعمتين وقد ذكرنا فيما قبل أن العرب يقولون لفلان على أصبع حسن إذا أنعم عليه نعمة حسنة وذكرنا قول الراعي في ذلك: ضعيف العصا بادي العروق ترى له ... عليها إذا ما اجذب الناس أصبعاً

أي إذا وقع الناس في الجذب والقحط ترى له علينا أثراً حسناً، فإن قيل: وما تفصيل ما بين النعمتين اللتين يتصرف القلب بينهما؟ قيل: يحتمل أن يكون بمعنى النفع والرفع، وذلك يشتمل جميع النعم لأن النعم على ضريين ظاهرة وباطنة فالظاهرة منها ما نفع المنتفعين بها والباطنة ما دفع من وجوه الشر وضرر عوارض الحزن، فإذا كان كذلك احتمل أن يكون معنى الخبر: أفاد به إفادتنا إظهار نعمة الله علينا، وأنها قد سبقت وشملت باطناً وظاهراً، وخص القلوب بالذكر لأنها معظم ما في الأبدان ويفسدها يفسد الكل. وقال بعضهم: معناه بين أنرين من إرادة الله عز وجل وفعلين من أفعاله في الفضل والعدل وقد روي في بعض ألفاظ هذا الخبر ما يدل على ذلك وهو أن بعضهم قال إذا شاء أزاعه وإذا شاء أقامه فأخبر أن القلوب في زيغها واستقامتها جارية تحت قدرة الله وقبضته وفي ملكه وسلطانه وتحقيق ذلك أنه قد روي فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال بعده (يا مقلب القلوب ثبت قلبي) فدل على صحة تأويلنا على أن معناه: التوفيق والخذلان. وفيه دليل على صحة مذهبنا لأنه عرفنا أن الإزاعة والإقامة مما يجريان على حسب القدرة ونفاذ المشيئة واعلم أن لفظ الأصبع مشترك المعنى في اللغة على الوجوه التي ذكرنا والمعاني التي بينا وقد يقال للجارحة أصبع أيضاً وليس مخصصاً به بل يجوز أن يقال له ولغيره على الوجوه التي ذكرناها. وقد قامت الدلالة وأوضحنا الحجة فيما قيل على استحالة وصف الله عز وجل بالجوارح والأدوات والأعضاء والآلات فلم يجز أن يحمل ذلك على معنى الجارحة لاستحالة صفته تعالى فوجب أن يحمل على أحد ما ذكرنا من المعاني لأنها تفيد المعنى الصحيح ولا تفيد الكيف والتشبيه الذي يتعالى الله عن ذكره عنه. وإنما ثني لفظ الإصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على طريق المثل، والمثل الجاري فيما بين الناس في مثل هذا المعنى على هذا اللفظ وهو أنهم يقولون: "ما فلان إلا بين أصبعي" إذا أرادوا ضرب المثل بأنه مسلط عليه قادر على ما يريد منه فحكى على لفظ المثل على اللفظ الجاري المعهود وذلك لفظ الثنية فلذلك ساغ أن يقال: أنه بمعنى القدرة وهي واحدة وإن كان اللفظ مثنى إذ ليست حقيقة معنى الأصبع معنى القدرة فيوهم القدرتين وإنما يتمثل ذلك والمراد به القدرة والسلطان⁽²⁾).

وقال الإمام المناوي (1033هـ): ("بين أصبعين من أصابع الله يقبلها حيث شاء" أي: يصرفها إلى ما يريد بالعبد بحسب القدر الحاوي عليه المستند إلى العلم الأزلي بحسب خلق تلك الدواعي والصوارف، فَتَصَرُّفُهُ سبحانه وتعالى في خلقه إما ظاهر بخلق بخرق العادات كالمعجزة أو بتنصيب الأدلة كالأحكام التكليفية وإما باطن بتقدير الأسباب نحو: {ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد} [الأنفال]:

¹ الإمام القسطلاني، إرشاد الساري، (321/7).

² ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 241238).

[42] أو يخلق الدواعي والصوارف نحو: {كذلك زينا لكل أمة عملهم} [الأنعام: 108] {ونقلب أفئدتهم} [الأنعام: 110] ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) أي طاعتك وعبر بالثنائية دون الجمع إشارة إلى أن الأصبعين هما ظهور القدرة الربانية بمظهري الخير والشر في قلب العبد لا أن الله جارحة تعالى عن ذلك وعبر بالأصبعين دون اليدين لأن أسرع التقلب ما قلبته الأصابع لصغر حجمها فحركتها أسرع من حركة اليد وغيرها فلما كان قلب الله قلوب عباده أسرع شيء خاطب المصطفى صلى الله عليه وسلم العرب بما تعقل... وهذا من أحاديث الصفات وللناس في تلقيتها مذهبان: أحدهما: أن الإيمان بما وجب كالإيمان بمتشابه القرآن، والبحث فيها بدعة وعليه أكثر السلف، الثاني: أن البحث عنها واجب، وتأويلها بنحو ما تقرر متعين، فராًا من التعطيل، وإمام هذه الطائفة: المرتضى، والخير، ومن على قدمهما من فقهاء الصدر الأول، لأن الله سبحانه لم ينزل من المتشابه ما أنزل إلا ليُعلم، ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يقل ما قال إلا ليُفهم، وبمعرفة المتشابه يتميز الفاضل من المفضول والعالم من المتعلم والحكيم من المتعجرف ومن آمن بالأخبار على ما جاءت به حيث أُلِّس عليه كُنه معرفتها لا تجب عليه أن يردّها رد منكر لها، بل يؤمن ويسلم ويكلها إلى الله، ورد متشابه التنزيل والسنة طريق هين يستوي فيه العالم والجاهل والسفيه والعافل وإنما يظهر الفضل بالبحث واستخراج الحكمة والحمل على ما يوافق الأصول والعقول⁽¹⁾.

قلت: وتتممة النصوص سأوردها بعد الأحاديث القادمة بما يتناسب مع المقام إن شاء الله.

وأما الحديث الثاني: (فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم المألأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، قالها ثلاثاً " قال: "فرايته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت): فقد ذهب الإمام القاري إلى أن هذه الرؤية كانت مناماً فلا حاجة للتأويل، أو: أنها تجلّ صوري. ثم أوّل الكفّ بتعلق القدرة والإرادة، وأوّل بردَ الأنامل بلذّة الآثار، بدون تكلف ولا مناقشة للمسألة وكأنّها عنده ظاهرة في المجاز والتوسع وليست من المتشابهات، وقد تعرض لمسألة (رأيت ربي في أحسن صورة) في غير هذا الموضع كما سيمر في مبحث الصورة إن شاء الله.

قال الإمام القاري: (وظاهر الحديث أن هذه الرؤية في النوم فلا يحتاج إلى تأويل)... (قال: (فرايته وضع كفه بين كتفي): يحتمل أن يكون كناية عن تعلق القدرة والإرادة (حتى وجدت برد أنامله)، أي: لذّة آثاره (بين ثديي)، أي: في صدري أو قلبي (فتجلى)، أي: انكشف وظهر (لي كل شيء)، أي: مما أذن الله في ظهوره لي من العوالم العلوية والسفلية مطلقاً، أو مما يختصم به المألأ الأعلى خصوصاً (وعرفت): حقيقة الأمر⁽²⁾.

ملاحظة مهمة

رأي الإمام القاري في ابن تيمية

ذكر الإمام القاري رأيه في ابن تيمية (728هـ) بعد مناسبة لذكر هذا الحديث فقال ما نصه: (قال صاحب المدخل: وعليك أن تتسول قاعدًا وتتعمم قائمًا، وفي شرح الشرائع لابن حجر: قال ابن القيم (751هـ)، عن شيخه ابن تيمية: أنه ذكر شيئاً بديعاً، وهو أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى ربه واضعاً يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة، قال العراقي: لم نجد لذلك أصلاً يعني من السنة، وقال ابن حجر: بل هذا من قبيل رأيهما وضلالهما، إذ هو مبني على ما ذهبوا إليه وأطالوا في الاستدلال له، والخط على أهل السنة في نفيهم له، وهو إثبات الجهة والجسمية لله تعالى، ولهما في هذا المقام من القبائح وسوء الاعتقاد ما تصم عنه الآذان، ويقضى عليه بالزور والبهتان، قبحهما الله وقبح من قال بقولهما، والإمام أحمد وأجلاء مذهبه مبرؤون عن هذه الوصمة القبيحة، كيف كفر عند كثيرين.

¹ الإمام المناوي، فيض القدير (2/ 379).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (2/ 626).

أقول: - القائل هو القاري - صاغها الله عن هذه السمة الشنيعة والنسبة الفظيعة، ومن طالع شرح منازل السائرين لنديم الباري الشيخ عبد الله الأنصاري الحنبلي (481هـ) - قدس الله تعالى سره الجلي - وهو شيخ الإسلام عند الصوفية حال الإطلاق بالاتفاق، تبين له أنهما كانا من أهل السنة والجماعة، بل ومن أولياء هذه الأمة، ومما ذكر في الشرح المذكور ما نصه على وفق المسطور هو قوله على بعض صباة المنازل، وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبين مرتبته من السنة، ومقداره في العلم، وأنه بريء مما رماه أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل على عاداتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك، كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب، والنواصب بأنهم روافض، والمعتزلة بأنهم نوابغ حشوية، وذلك ميراث من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمية ورمي أصحابه، بأنهم صرّة قد ابتدعوا ديناً مُخَدَّعاً، وهذا ميراث لأهل الحديث والميمنة من نبيهم صلى الله عليه وسلم بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة، وقدس الله روح الشافعي حيث يقول، وقد نسب إليه الرفض:

إن كان رفضاً حب آل محمد صلى الله عليه وسلم ... فليشهد الثقلان أني رافضي.

ورضي الله عن شيخنا أبي عبد الله بن تيمية حيث يقول:

إن كان نصباً حب صاحب محمد صلى الله عليه وسلم ... فليشهد الثقلان أني ناصبي.

وعفا الله عن الثالث حيث يقول:

فإن كان تحسباً ثبوت صفاته ... وتنزيهاً عن كل تأويل مفتر

فإني بحمد الله بريء مجسم ... هلموا شهوداً واملؤوا كل محضر.

ثم بين في الشرح المذكور ما يدل على براءته من التشنيع المسطور، والتقييح المزبور، وهو ما نصه: "إن حفظه حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها، وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى أفهام العامة، ولا نعني بالعامّة الجهال، بل عامة الأمة؟!، كما قال مالك رحمه الله، وقد سئل عن قوله تعالى: {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] كيف استوى؟ فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرخصاء، ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فَرَّقَ بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة، وبين الكيف الذي لا يعقله البشر، وهذا الجواب من مالك رحمه الله شاف عام في جميع مسائل الصفات من السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرحمة والضحك، فمعانيها كلها معلومة؟، وأما كيفيتها فغير معقولة، إذ تعقل الكيف فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معلوم، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟ والعصمة النافعة من هذا الباب أن يصف الله - بما وصف به نفسه: ووصف به رسوله من غير تحرير ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبت له الأسماء والصفات، وينفي عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه، ونفيك منزهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل، ومن شبهه باستواء المخلوقات على المخلوق فهو مشبه، ومن قال: هو استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه" اهـ كلامه. وتبين مرامه، وظهر أن معتقده موافق لأهل الحق من السلف وجمهور الخلف، فالطعن الشنيع والتقييح الفظيع غير موجه عليه ولا متوجه إليه، فإن كلامه بعينه مطابق لما قاله الإمام الأعظم، والمجتهد الأقدم في فقهه الأكبر ما نصه: "وله تعالى يد ووجه ونفس، فما ذكر الله في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف اهـ. وحيث انتفى عنه اعتقاد التحسيس، بالمعنى الذي ذكره في الحديث الكريم له وجه وجيه ظاهر، وتوجيه لأهل التنبيه باهر، سواء رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه في المنام، أو: تجلى الله سبحانه عليه بالتجلي الصوري المعروف عند أرباب الحال والمقام، وهو أن يكون مذكراً بهيته،

ومفكرا برؤيته الحاصلة من كمال تجليته، والله أعلم بأحوال أنبيائه أو أصفياؤه الذين رباهم بحسن تربيته، وجلّى مرآي قولهم بحسن تجليته، حتى شهدوا مقام الحضور والبقاء، وتخلصوا عن صداء الحضور والفناء، رزقنا الله أشواقهم، وأذاقنا أحوالهم وأخلاقهم، وأحيانا على طريقتهم، وأماننا على محبتهم، وحشرنا في زمركم⁽¹⁾.

قلت: الإمام القاري إمام جليل محقق مدقق فكيف زل مثل هذه الزلة ولم يتنبه لمثل هذه المسألة؟؟ وكيف يشبه قول ابن القيم وابن تيمية: "(فهم من اليد والساق وغيرها ما يفهمه عامة الأمة)" بقول الإمام أبي حنيفة: "(اليد والساق وغيرها صفات تثبت لها سبحانه ولا نكيفها)"!!! وهل يفهم العامي من اليد إلا الجارحة؟! لكن العامي لا يفهم من قولنا: "(صفة)" إثبات الجارحة. وشتان ما بين القولين كما بين المشرقين والمغربين. لكن كما قالوا غلطات الكبار كبار. ومراد الإمام القاري غير ما دلت عليه ألفاظه؛ إذ إنه يريد أن يقرر أن كلامهما يدل على إثبات الصفة لله بدون تشبيه. لكن ألفاظهما لا تحتمل غير التشبيه. يعني أننا إذا قلنا: اليد كما يفهمها العامي الجارحة - تعالى الله عن ذلك - ثم قلنا لكن لا نكيفها فما الذي نفينا؟؟ أفتينا معرفة الحجم؟ أم اللون؟؟! - أستغفر الله من ذلك وأتوب وإليه وحاشا لله - ولماذا يختص فهم العامي في مسائل خطيرة كهذه؟! وجعله الحاكم في هذه المسائل ومخالفه ضالاً ومبتدع؟! وهل يرضى الإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله - بفهم العامي في تفسير - مثلاً - قوله تعالى: {سنسمه على الخرطوم. إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين.} [القلم: 16-17].. الآيات؟؟! وهل يرضى بما يتبادر إلى فهم العامي من أحكام في أحاديث الحلال والحرام وبما يستنبط من أحكام؟؟! سبحان الله العظيم ما أشنع هذا الكلام. بل إنه لن يرضى بفهم العامي في أي باب من أبواب العلوم الشرعية ولا في غيرها. وقوله: (لا نقصد بالعامي الجاهل بل عامة الأمة): إن قال مقصودي بعامة الأمة علماءها؛ فلا يسمى العالمُ عامياً، وإن كان قصده عموم الأمة وغالبها؛ فإيا له من ادعاء عريض يخالفه الواقع، وتردّد نصوص العلماء المحدثين المحققين الذين لا يستغني مسلمٌ عن أقوالهم في فهم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عامّة، وفي فهم مشكل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وهم جمّع من السلف، وجمهور الخلف الذين هم أسبق في الزمان عن الإمامين ابن تيمية وابن القيم، وكذلك من جاء بعدهم.

لكن أقول: إن الإمام القاري - بعد استقراء كلامه في أحاديث الصفات - مشرّبه ومذهبه: هو مذهب أهل السنة والجماعة وأهل الحديث من التسليم مع نفي التشبيه، أو: التأويل مع التنزيه. وكلامه مستفيض في ذلك كما مر وسيمر معنا، ولكن سها قلم الإمام القاري عن حقيقة القول هنا، ودفعه إلى ذلك استحسانه لكلمات التنزيه التي يُتبعها ابن القيم وشيخه لعبارات التشبيه، فهم يقولون: ثبت المعنى الذي في ظاهر اللغة!! ثم يتبعونها ب(لكننا نزه الباري عن التشبيه)!! وهذا الكلام يخلصهم من الكفر في قول جماهير أهل السنة، وتشدّد وشدّ من كفرهما، بل لهما من العلم النافع والصفات المحمودّة الشيء الكثير ولكن لا يتابعان على أخطأهما رحمهما الله، ولا نرضى بسبب أحدهما وإن كانا شديدين في شتم علماء الأمة وشتم وتكفير من خالفهما سائحهما الله تعالى. وكل بني آدم خطاء، والعصمة للأنبياء، اللهم اجعلنا من التوابين. والحمد لله رب العالمين.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (7/ 2778-2779).

نصوص بعض العلماء

قال ابن فورك عن هذا الحديث: (المعنى في ذلك ما وصل إلى قلبه من نعم الله وألطافه)⁽¹⁾. وقال أيضًا: (وكذلك ما روي من الأصابع والأنامل فمحمول على أحد معنيين: إما على النعمة والفضل، كما يقال: لفلان علي أصبع حسن، والمراد بذلك: أثر حسن من طريق النعمة، أو: يراد به القدرة، كما يقال: ما فلان إلا في قبضتي وتحت أصبعي)⁽²⁾.

وقال التوريشتي: ("حتى وجدت برد أنامله بين ثديي": عبر بذلك على وجده من تنزل الرحمة على فؤاده، وانصباب العلوم الوجدانية إلى ساحة صدره، وللعرب- في هذا الأسلوب من الاستعارة والاتساع- مذاهب فسيحة، وطرق مشهورة، لا ينكرها أهل العلم بطرق كلامهم، وقد كان صلى الله عليه وسلم يخاطب بهذا القول وأمثاله رجالاً ترسخت في العلم أقدامهم، وتأصلت في البلاغة أعراقهم؛ فلم يكونوا ليعدلوا عن سواء السبيل، ويخطئوا الغرض من الخطاب، وانتهت النبوة إلى أناس تأخروا عنهم في المنزلتين؛ فصاروا فرقتين: فرقة: قابلت الحديث بالرد والإنكار. وفرقة: صرفوه عن الوجه المستقيم. ونعوذ بالله أن ننخرط في سلك إحدى الطائفتين. ثم إنا لا ننكر على من تنزه عن تأويل هذا الحديث وأمثاله، ومحمضه على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مراعيًا الأصل الذي ذكرناه، وهو نفي التشبيه بصفات العبيد؛ غير أن عليه أن يعلم؛ هذا الحديث لا يدخل في جملة أخبار الصفات التي لا محيد لأحد منها؛ لأن السبيل إلى إثبات ذلك القسم: النقل الصحيح المتواتر الموجب للعلم، وهذا الحديث من جملة الآحاد؛ ثم إنه من أحاديث الرؤيا، ومبنى الرؤيا- في الغالب من الأحوال- على التعبير والتأويل. نسأل الله ألا يدفع بنا عن منهج الحق أي واد سلكناه؛ إنه الهادي إلى سواء السبيل)⁽³⁾.

ملخص الوجوه التي ذكرها العلماء في فهم الحديث:

- 1- المراد: تعلق القدرة والإرادة.
- 2- لذة آثاره تعالى.
- 3- ما وصل إلى قلبه من نعم الله وألطافه.
- 4- الأثر الحسن من طريق النعمة.
- 5- المراد ما وجده من تنزل الرحمة.
- 6- انصباب العلوم الوجدانية إلى ساحة صدره صلى الله عليه وسلم.
- 7- عدم الخوض في تأويله مع أخذ العلم بأنه ليس من أحاديث الصفات فهي تثبت بالمتواتر، وهذا الحديث من جملة الآحاد، وهو من أحاديث الرؤيا، والرؤيا مبناها على التعبير والتأويل.

وأما الحديث الثالث: ((جاء خبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعجبًا مما قال الخبر، تصديقًا له، ثم قرأ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [الأنعام: 91]) فقال الإمام القاري رحمه الله: (وهذا الحديث بظاهره يخالف ما سبق من أن طي العلوي بيمينه والسفلي بالأخرى، وأيضًا ظاهر تقسيم الأشياء على الأصابع موهم لإرادة تحقق الجارحة المشتملة على الأصابع الخمسة، كما هو مذهب المجسمة من اليهود وسائر أهل البدع، ولكنه لما قرره صلى الله عليه وسلم حيث لم ينكره لزم إما: التأويل، وهو مذهب الخلف وهو أعلم، أو: التسليم والتفويض، مع الاتفاق على

¹ ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص: 433).

² المصدر السابق (ص: 438).

³ التوريشتي، الميسر في شرح مصابيح السنة (1/ 210-211).

التنزيه، وهو مذهب السلف وهو أسلم، والله تعالى أعلم؛ فقال شارح: والمعنى يهون على الله إمساكهم وحفظها، كما يقال في العرف: فلان يحمل بأصبعه لقوته. وقال التوريشي: "السبيل في هذا الحديث أن يحمل على نوع من المجاز، أو ضرب من التمثيل، والمراد منه: تصوير عظمته، والتوفيق على جلالة شأنه، وأنه سبحانه يتصرف في المخلوقات تصرف أقوى قادر على أدنى مقدور، تقول العرب في سهولة المطلب، وقرب التناول، ووفور القدرة، وسعة الاستطاعة: هو مني على حبل الذراع، وإني أعالج ذلك ببعض كفي، وأستقله بفرد أصبع، ونحو ذلك من الألفاظ استهانة بالشيء، واستظهارًا في القدرة عليه، والمتورع عن الخوض في تأويل أمثال هذا الحديث في فسحة من دينه، إذ لم ينزلها في ساحة الصدر منزلة مسميات الجنس"⁽¹⁾. - ثم ذكر الإمام القاري قول الزمخشري الآنف، ثم تابع في الشرح قائلا:-

("ثم قرأ" أي: النبي صلى الله عليه وسلم اعتضادًا، ويحتمل أن يكون القارئ هو ابن مسعود رضي الله عنه استشهادًا، {وما قدروا الله حق قدره} [الزمر: 67] أي: ما عرفوه حق معرفته، أو: ما عظموه حق تعظيمه. والأرض: الواو للحال أي: والحال أن جنس الأرض وهو الأرضون السبع {جميعًا قبضته} [الزمر: 67] أي: مقبوضته وفي ملكه وتصرفه يوم القيامة، يتصرف فيه كيف يشاء بلا مزاحم مع سهولة، والمعنى: أنهن بعظمتهن بالنسبة إلى قدرته ليست إلا قبضة واحدة {والسماوات مطويات بيمينه} [الزمر: 67] أي: مجموعات بقدرته، أو: مغيبات بقسمه؛ لأنه تعالى أقسم بعزته وجلاله أنه يفنيهما {سبحانه وتعالى عما يشركون} [الزمر: 67]: بنسبة الولد والشريك إليه)⁽²⁾.

نصوص بعض العلماء

لقد جمع الأقوال في تأويلها العالم المحقق الإمام أبو بكر ابن العربي (543هـ) فقال: (فصل في مفترقات من الآيات ومجموع الوظائف من الأحاديث المشكولات، وهي ثمانية أحاديث؛ الحديث الأول: وقع في "الصحيح" لمسلم قوله: "إن الله يمسك السماوات على إصبع، والشجر والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك": قال علماؤنا: قد استقر في عقائد المسلمين أن الباري تعالى منز عن الجارحة؛ لأنه إنما يراد به القدرة والاجتماع.⁽³⁾ وقال قوم: إن الإصبع هنا هي النعمة. وقال آخرون: إنما أراد به أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولم يدركه في ذلك لغوب ولا نصب، كما قال. وقال آخرون: يحتمل أن يريد بالإصبع بعض خلقه. وهذا غير مستنكر في قدرة الله. وقال آخرون: قد يريد أن تكون المخلوقات اسم إصبع، فأخبر بخلق هذه الأشياء عليه. قال الإمام: والغرض في هذا الحديث إبطال أن تكون لله جارحة لإحالة العقل)⁽⁴⁾.

وقال البيهقي (458هـ): (وقال أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري رحمه الله: إنا لا ننكر هذا الحديث ولا نبطله لصحة سنده، ولكن ليس فيه أنه يجعل ذلك على إصبع نفسه، وإنما فيه أنه يجعل ذلك على إصبع، فيحتمل أنه أراد إصبعًا من أصابع خلقه قال: وإذا لم يكن ذلك في الخبر لم يجب أن يجعل الله إصبعًا)⁽⁵⁾.

وفي موضع آخر قال: (والناس يقولون: الأشياء في قبضة الله. يريدون في ملكه وقدرته، وقد تكون بمعنى إفناء الشيء وإذهابه، يقال: فلان قبضه الله بمعنى أنه أفناه وأذهبه من دار الدنيا فقلوه جل ثناؤه {والأرض جميعا قبضته يوم القيامة} [الزمر: 67] يحتمل أن يكون المراد به: والأرض جميعًا ذاهبة فانية يوم القيامة بقدرته على إفنائها، وقوله: {والسماوات مطويات بيمينه} [الزمر: 67]، ليس يريد

¹ التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (1185/4).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (3507/8).

³ وبه قال ابن الملك، شرح المشكاة، (2221/6).

⁴ أبو بكر ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك (3/ 463. 464).

⁵ الإمام البيهقي، الأسماء والصفات، (171/2).

به طيًّا بعلاج وانتصاب، وإنما المراد به الفناء والذهاب. يقال: قد انطوى عنا ما كنا فيه، وجاءنا غيره، وانطوى عنا دهر؛ بمعنى: المضي والذهاب⁽¹⁾.

ملخص الوجوه التي ذكرها الإمام القاري:

- 1- التفويض والتسليم مع التنزيه.
 - 2- إظهار القدرة وتصوير العظمة.
 - والوجوه التي ذكرها غيره:
 - 3- على إصبع بعض مخلوقاته.
 - 4- على شيء من المخلوقات اسمه إصبع.
 - 5- النعمة. وهناك كلام آخر وحاصله راجع إلى إحدى الوجوه التي ذكرتها والله أعلم.
- وأما معنى (والأرض جميعا قبضته):
- فقال الإمام القاري: أي: مقبوضته وتحت تصرفه.
- وقال غيره: أي: ذاهبة فانية بقدرته.

هل كان ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وتعجبه تصديقاً للحبر أم إنكاراً عليه؟

ذهب العلماء في ذلك مذهبين؛ فرأى كثير من المفوضين أن ضحكه صلى الله عليه وسلم كان تصديقاً للحبر كما قال الراوي ومنهم الإمام القاري⁽²⁾.

وذهب بعض المؤولين إلى أن ضحكه صلى الله عليه وسلم كان إنكاراً وتعجباً من سوء اعتقاد الحبر وأن كلمة تصديقاً له إنما هي اجتهد من الراوي، ومن هؤلاء الإمام الخطابي والقرطبي⁽³⁾ والبيهقي⁽⁴⁾ لكن القاضي عياض أعطى معنى جميلاً آخر وهو أن ضحك النبي صلى الله عليه وسلم كان تصديقاً لما فهمه الحبر من عظيم قدرة الله، وكلام الزمخشري السابق يفيد مثل هذا.

قال القاضي عياض بعد أن ذكر عدة وجوه من التأويل وذكر أن ضحك النبي صلى الله عليه وسلم كان إنكاراً منه وتعجباً من سوء اعتقاده: (وقوله: "تصديقاً" ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو من كلام الراوي، وقد يكون تصديقه الذي فهم الراوي في عظيم قدرة الله على ذلك)⁽⁵⁾.

وكذلك قال الحافظ العراقي (806هـ): (ويدل على انتفاء الأصابع اختلاف الروايات فيها على كل واحد منها كما تقدم بيانه، فدل على أن ذلك تجوُّز وتقريب للفهم في الدلالة على عظيم قدرته تعالى بتقدير أن يصدق النبي صلى الله عليه وسلم ذلك)⁽⁶⁾.

¹ المصدر السابق، (159/2).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (3507/8).

³ انظر: الحافظ العراقي، طرح الشريب، (262261/8).

⁴ الإمام البيهقي، الأسماء والصفات (172/2).

⁵ القاضي عياض إكمال المعلم بفوائد مسلم (317316/8).

⁶ العراقي، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (المتوفى: 806هـ)، طرح الشريب في شرح التقريب. أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى: 826هـ)، الطبعة المصرية القديمة، (262/8).

الترجيح

أما حديث (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) لو قلنا أن الله تعالى له إصبع حقيقية فسيكون هناك اختلاف كبير بين أصابع الرحمن، إذ سيكون إصبع يحمل السموات، وإصبع يحمل الأرضين، وإصبعان يحملان قلوب المؤمنين، وشتان ما بينهم؟! وستكون أصابعه في الأرض إذ قلوب المؤمنين في الأرض، وهو في السماء وفوق العرش؟! وما الحكمة في قلب القلب لو كان الإصبع هو الجارحة؟! وما فائدة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بتثبيت قلبه على الطاعة والإيمان إذا كان المراد بالأصابع الجوارح؟! أستغفر الله من زيغ الزائغين وجهل الجاهلين، بل من له أدنى معرفة بلسان العرب عرف أن المقصود: قلب المؤمن بين توفيق الله وخذلانه، وتحت قدرته وسلطانه، يقبله كيف يشاء، إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه كما في بعض روايات الحديث⁽¹⁾، وعلى ذلك عدة أدلة نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وفي غيره:

أولها: أنه خص ذكر (الرحمن) من بين الأسماء الحسنى، وهو لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم. وثانيها: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بتثبيت قلبه على الطاعة وعلى الدين، فبمجموع هذه الأحاديث وبمعرفة علوم البلاغة يتبين المراد، وأن هذا الحديث في الأصل لا ينبغي أن يكون من المشكل والمتشابه بل هو محكم والله أعلم. وأما حديث إمساك السموات على إصبع والأرض على إصبع: فدلالته على إظهار القدرة لا ريب فيها. وأما حديث "وجدت برد أنامله" فهو في رؤيا منامية؛ والرؤيا المنامية تأتي على مثال فتحتاج إلى تعبير وتأويل، وأقوى التأويلات: أنه صلى الله عليه وسلم وجد فيوضات العلم الرباني وتنزلات الرحمة على قلبه الشريف، والدليل على ذلك بقية الحديث: (فتجلى لي كل شيء وعرفت) والله أعلم. ومع ذلك كله أقول: لو أمسك الإنسان عن تأويل النصوص التي فيها التحدث عن جناب الله العزيز القدير؛ لم يكن عليه من جناح، مع وضع {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: 11] بين عينيه، وفي ذلك سلامة وفلاح. والإمام القاري كعادته هنا قرر المذهبين بياناً لجواز الأخذ بأحدهما، وفي جانب التأويل نقل عدة أقوال متيحاً للقارئ اتساع الأفق في فهم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المخبرة عن صفات الله تعالى.

¹ رواه الترمذي، أبواب الدعوات، باب، (رقم: 3522) ولفظه: (عن شهر بن حوشب، قال: قلت لأُم سلمة: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت: فقلت: يا رسول الله ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاع. فتلا معاذ {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا}. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

المبحث الثالث الأحاديث المتعلقة بالصورة

الحديث الأول

(14)[4628]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(15)[3525]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا قاتل أحدكم أخاه، فليجنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(16)[725]- عبد الرحمن بن عائش⁽³⁾ رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((رأيت ربي في أحسن صورة، قال: فيم يختصم الملائكة؟ فقلت: "أنت أعلم يا رب" قال: "فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السموات والأرض" وتلا: {وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين} [الأنعام: 75])⁽⁴⁾.

أما الحديث الأول: (خلق الله آدم على صورته): فقد أزال العلماء الإشكال الواقع فيه بطريقتين:

الطريقة الأولى: نفي الإشكال تماماً، وذلك من وجهين:

الأول: إرجاع الهاء إلى الرجل المضروب.

الثاني: إرجاعها إلى آدم عليه السلام.

¹ رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدئ السلام، (رقم: 6227). واقتصر لفظ المراقبة على (إن الله خلق آدم على صورته)، انظر: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (2935/7).

² رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه، (رقم: 2612).

³ عبد الرحمن بن عائش الحضرمي: شامي. قال أبو حاتم: أخطأ من قال له صحبة. وقال أبو زرعة: ليس بمعروف. وقال البخاري: له حديث واحد يضطربون فيه. روى عن مالك بن يخامر، عن معاذ: رأيت ربي. وعنه أبو سلام مطمور، وخالد بن اللجلاج. قلت: حديثه في المسند، وفي جامع أبي عيسى. وحديثه عجيب غريب. وقال ابن حجر: قلت: وقد وجدت له حديثاً آخر مرفوعاً، وله حديث ثالث موقوف. انظر: أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، معرفة الصحابة. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، 1419هـ (4/ 1862)، وابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (2/ 838)، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (المتوفى: 748هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الأولى، 1382هـ (2/ 571) وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (4/ 270-273).

⁴ رواه الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن (المتوفى: 255هـ)، مسند الدارمي (سنن الدارمي). تحقيق: حسين سليم أسد الدارمي، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ، من كتاب الرؤيا، باب رؤية الرب تعالى في النوم، (رقم: 2195)، ورواه الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة ص، عن ابن عباس رضي الله عنهما برقم: (3233) و (3234) وقال بعده هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه برقم: (3235) وقال بعده: هذا حديث حسن صحيح. سألت محمد بن إسماعيل، عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح. هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: حدثنا خالد بن اللجلاج قال: حدثني عبد الرحمن بن عائش الحضرمي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث. وهذا غير محفوظ. هكذا ذكر الوليد، في حديثه عن عبد الرحمن بن عائش، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى بشر بن بكر، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، هذا الحديث بهذا الإسناد عن عبد الرحمن بن عائش، عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا أصح، وعبد الرحمن بن عائش لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم.

فإذا قلنا: الهاء راجعة إلى الرجل المضروب - الذي هو سبب الحديث⁽¹⁾ - فتكون فائدة الحديث حينئذ:

1- كرموا وجه آدم فلا تضربوا وجه أولاده لأنهم يشبهونه. وهو قول كثيرين ومنهم ابن خزيمة ورجحه الإمام القاري.

2- أو لأن فيه أكثر الحواس والمدارك والمحاسن.

وإذا قلنا: الهاء راجعة إلى آدم فالمعنى حينئذ:

1- صورته التي كان عليها في الجنة طوله ستون ذراعاً. وهو قول الخطابي والقاري.

2- أنه لم ينتقل أطواراً كذريته⁽²⁾.

3- أنه خلق عجيب في مبناه ومعناه.

4- أنه ليس على مثال سابق.

5- المراد إظهار الأمر والشأن والحال.

6- أنه لا يشبهه أحد من الملائكة أو الجن⁽³⁾.

7- أن ذلك كان ردّاً على القدرية.

8- هو رد على الدهرية⁽⁴⁾.

9- هو رد على الطبائعيين⁽⁵⁾.

10- أن ذلك تنبيه على أنه لا بد من جريان قضاء الله على خلقه فالسعيد سعيد والشقي شقي إذ إن الله تعالى خلق آدم مع علمه بتركيبته التي فيها قابلية الخير والشر وقد علم أنه سيعصيه ثم سيتوب عليه.

الطريقة الثانية: التعامل مع الإشكال على فرض ثبوت كونه مقصوداً - وهو كون الهاء راجعة إلى الله سبحانه - ⁽⁶⁾. وذلك بوجهين: **الأول:** التفويض والتسليم مع تنزيه الباري عن ظاهر الحديث⁽¹⁾. وهو قول التوربشتي ونقله عنه الإمام القاري.

¹ انظر: ابن حمزة الحسيني، برهان الدين إبراهيم بن محمد (المتوفى: 1120هـ)، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف. تحقيق: سيف الدين الكاتب، دار الكتاب العربي - بيروت، د.ت. (36/2).

² المصدر السابق.

³ انظر: الإمام المظهري، المفاتيح في شرح المصايح (120/5).

⁴ (وأفادنا بذلك عليه السلام إبطال قول الدهرية أنه لم يكن قط إنسان إلا من نطفة، ولا نطفة إلا من إنسان فيما مضى ويأتي، وليس لذلك أول ولا آخر، فعرفنا عليه السلام تكذيبهم، وأن أول البشر هو آدم خلق على صورته التي كان عليها من غير أن كان نطفة قبله أو عن تناسل، ولم يكن قط في صلب ولا رحم، ولا خلق علقه ولا مضغة، ولا طفلاً، ولا مراهقاً، بل خلق ابتداء بشراً سوياً كما شوهه. وقد قال آخرون: المعنى في رجوع الهاء إلى آدم تكذيب القدرية، لما زعمت أن من صور آدم وصفاته ما لم يخلقه الله، وذلك أن القدرية تقول: إن صفات آدم على نوعين منها ما خلقها الله، ومنها ما خلقها صورته وصفاته وأعراضه. وقال آخرون: يحتمل أن يكون رجوع الهاء إلى آدم وجهاً آخر على أصول أهل السنة أن الله خلق السعيد سعيداً والشقي شقياً، فخلق آدم وقد علم يعصيه ويخالف أمره، وسبق العلم بذلك وأنه يعصى ثم يتوب، فيتوب الله عليه تنبيهاً على وجوب جريان قضاء الله على خلقه، وأنه إنما تحدث الأمور وتتغير الأحوال على حسب ما يخلق عليه المرء ويسر له). انظر: ابن بطلال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)، شرح صحيح البخاري. تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الطبعة: الثانية، 1423هـ - 2003م، (7-6/9).

⁵ وقيل للرد على الطبائعيين الزاعمين أن الإنسان قد يكون من فعل الطبع وتأثيره). انظر: الإمام ابن حجر، فتح الباري، (3/11).

⁶ قال ابن بطلال: (وذهب طائفة إلى الهاء كناية عن الله تعالى وهذا أضعف الوجوه، - ثم علل ثم بين أنواع الإضافات ثم قال - . ثم نظرنا إلى إضافة الصورة إلى الله فلم يصح أن يكون وجه إضافتها إليه على نحو إضافة الصفة إلى الموصوف بما من حيث تقوم به، لاستحالة أن يقوم بذاته تعالى حادث فبقى من وجوه الإضافة للملك والفعل والتشريف، فأما الملك والفعل فوجه عام وتبطل فائدة التخصيص فبقى إنما إضافة تشريف، وطريق ذلك أن الله هو الذي ابتداء تصوير آدم إضافة تشريف، وطريق ذلك أن الله هو الذي ابتداء تصوير آدم لا على مثال سبق بل اخترعه، ثم اخترع من بعده على مثاله، فتشرفت صورته بالإضافة إليه لا أنه أريد به إثبات صورة لله تعالى على التحقيق هو بما مصور، لأن الصورة هي التألف والهيئة، وذلك لا يصح إلا على الأجسام المؤلفة، والله تعالى عن ذلك). انظر: الإمام ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، (7/9-8).

الثاني: التأويل بما يتناسب مع جلال المولى وما تتسع له اللغة، فقالوا:

- 1- حمل حال الخلافة على حال السلطنة الإلهية⁽²⁾. وهو قول ابن الجوزي.
 - 2- المراد بالصورة: صفته من السمع والبصر وغيرها. ونقله الإمام القاري.
 - 3- من صفات الكمال الجامعة لنعوت الجمال والجلال. وهو قول الإمام القاري.
 - 4- أنها إضافة تشريف.
 - 5- إضافة الملك والخلق أي: أنه على صورته التي هي مخلوقة لله فهي صورة الله التي هو خالقها كما نقول بيت الله وأرض الله وأمثاله.
 - 6- صورة اجتباها وجعلها نسخة من جملة مخلوقاته.
 - 7- أن ذلك استعارة للتعظيم.
 - 8- على الصورة التي ارتضاها الرحمن أن تكون صورة لآدم⁽³⁾. وهو قول الكلاباذي.
 - 9- أن الحديث على ظاهره أي: صورة لا كالصور. كما قال ابن قتيبة⁽⁴⁾ (وغلطه الجمهور ووافق الإمام القاري).
- وقد أطال النفس في شرح هذا الحديث أغلب شراح الحديث، وأغلبهم ذكر أغلب الوجوه التي جمعها، ومن جملتهم الإمام القاري أتى بأغلب هذه الأقوال ورجح بعضها على بعض، وقد اكتفى ببعض الأقوال عند ذكر كل حديث فيه ذكر للصورة.

ذكر الإمام القاري رحمه الله عقب الحديث الأول وجوهًا لدفع إشكال الحديث الشريف:

عود الضمير لله تعالى وأن المراد به أن الله خلق آدم على صفته تعالى من العلم والسمع والبصر...

وذكر عود الضمير إلى آدم عليه السلام ويكون المعنى حينئذ أن الله خلق آدم على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط ولم يتغير.

وذكر عود الضمير إلى الرجل الذي ضربه أخوه على وجهه ورآه النبي صلى الله عليه وسلم ونهاه عن ذلك بأن آدم عليه السلام خلق على صورة وجه هذا الرجل المضروب.

ثم ذكر قول الخطابي في بعض التأويلات وقول التوريشي في التسليم وتأويله بأنها إضافة تشريف ورجح هذا القول. قال

الإمام القاري عقب الحديث الأول: (أي: على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط، وإلى أن مات دفعًا لتوهم أن

¹ قال القاضي عياض: (وإذا نزهنا الله تعالى عن الصورة الجثمانية فلا يبال بعد، وسلمنا معنى مشكل الحديث للعالم بعينه، على مذهب أكثر السلف من الإيمان بما والتسليم إلى الله في معناها، وتنزيهه عن ظاهرها، أو: تأويله على ما عليه من رأى التأويل، وعلى مقتضى كلام النبي العربي ولغته العربية، وكلام العرب ومجازات كلامها ومقاصدها في استعاراتها وتمثيلات التي خوطبنا بها، وجاء الشرح والقرآن بما وعلى تصرف وجوهاها). القاضي عياض، إكمال المعلم، (91/8).

² قال الإمام ابن الجوزي: (أما قوله: ((خلق الله آدم على صورته)) فللناس فيه ثلاثة مذاهب: أحدها: مذهب جمهور السلف وهو السكوت عن تفسير هذا وأمثاله. والثاني: أن الهاء راجعة إلى آدم، فيكون المعنى: أنه خلقه على تلك الحال ولم ينقله من نطفة إلى علقة، وهذا مذهب أبي سليمان الخطابي. والثالث: أنها ترجع إلى الله سبحانه، فهي مضافة لإضافة ملك لا إضافة ذات، كما أضاف الروح التي نفخت في آدم إليه فقال: ((ونفخت فيه من روحي)) [ص: 72] وهذا مذهب ابن عقيل. قال: وإنما خص آدم بإضافة الصورة إليه لخصيصة فيه، وهي السلطنة التي تشاكل الإلهية استعبادًا وسجودًا واستخدامًا وأمرًا نافذًا وسياسات يعمر بها البلاد ويصلح بها من أمر العباد، وليس في الجن والملائكة من يجتمع على طاعته نوعه وقبيله سوى الآدمي، وهذه الصورة هي حال، والصورة قد تقع على الحال، فهذا موضع حمل الصورة على الصورة، وهي حمل حال الخلافة والمملكة والسلطنة على حال الإلهية). انظر: ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/498).

³ قال الكلاباذي: ((على صورة الرحمن)) فإن كان محفوظًا فيجوز أن يكون معناه: أي خلقه على الصورة التي ارتضاها الرحمن أن تكون صورة لآدم، إذ لم يكن في خلق الله خلقًا على صورته في البنية والحال). انظر: الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق (المتوفى: 380هـ)، بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار. تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ (ص: 79).

⁴ انظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت: 276هـ)، تأويل مختلف الحديث. المكتب الاسلامي، مؤسسة الإشراف، الطبعة الثانية، 1419هـ (ص: 322).

صورته كانت في الجنة على صفة أخرى. وقيل: الضمير لله، والمراد بالصورة الصفة من الحياة والعلم والسمع والبصر، وإن كانت صفاته تعالى لا يشبهها شيء، وقيل: الضمير للعبد المحذوف من السياق، وإن سبب الحديث أن رجلاً ضرب وجهه غلاماً فيها عن ذلك وقال: إن الله خلق آدم على صورته. وقال الخطابي: الهاء مرجعها إلى آدم عليه السلام، فالمعنى: أن ذرية آدم خلقوا أطواراً في مبدأ الخلق نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم صاروا صوراً أجنة إلى أن تتم مدة الحمل، فيولدون أطفالاً وينشؤون صغاراً إلى أن يكبروا، فيتم طول أجسادهم، يقول: إن آدم لم يكن خلقه على هذه الصفة، ولكنه أول ما تناولته الخلقة وجد خلقاً تاماً، (طوله ستون ذراعاً). وقال الشيخ التوريشي: هذا كلام صحيح في موضعه، فأما في تأويل هذا الحديث، فإنه غير سديد لما في حديث آخر: خلق آدم على صورة الرحمن، ولما في غير هذه الرواية ((أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يضرب وجهه غلاماً، فقال: "لا تضرب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته")) فالمعنى الذي ذهب إليه هذا المؤلف لا يلائم هذا القول. وأهل الحق في تأويل ذلك على طبقتين؛ إحداهما: المنزهون عن التأويل مع نفي التشبيه، وعدم الركون إلى مسميات الجنس وإحالة المعنى فيه إلى علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً، وهذا أسلم الطريقتين. والطبقة الأخرى: يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف، وذلك أن الله تعالى، خلق آدم أبا البشر على صورة لم يشاكلها شيء من الصور في الجمال والكمال، وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة، فاستحقت الصورة البشرية أن تكرم ولا تهان اتباعاً لسنة الله تعالى فيها وتكريماً لما كرمه الله. وهو في غاية البهاء، ويؤيده قوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} [التين: 4] (1).

قلت: قد رجح ابن خزيمة (311هـ) كون الحديث وارداً على سبب ونفى رحمه الله تعالى التشبيه، وقال أنه ضلال، وأتى بأدلة كثيرة في كتابه التوحيد، ثم قال: (وقال: {فطرة الله التي فطر الناس عليها} [الروم: 30]، فأضاف الله الفطرة إلى نفسه إذ الله فطر الناس عليها، فما أضاف الله إلى نفسه على معنيين: أحدهما: إضافة الذات، والآخر: إضافة الخلق ففهموا هذين المعنيين، لا تغالطوا فمعنى الخبر إن صح من طريق النقل مسنداً، فإن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن، حين صور آدم، ثم نفخ فيه الروح، قال الله جل وعلا: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم} [الأعراف: 11] (2).

وأما الحديث الثاني: (إذا قاتل أحدكم أخاه، فليجنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته): فقال فيه الإمام **القاري:** ("فإن الله خلق آدم على صورته": أي: صورة الوجه، لأنه أشرف أعضائه ومعدن جماله ومنبع حواسه، فلا تغيره، أو على صورة آدم أي على صورة مختصة به لم يخلق عليها غيره أي: بالله، والإضافة للتكريم كما في: بيت الله وناقاة الله أي: إن الله أكرم هذه الصورة لأنه خلقها بيده، وأمر ملائكته بالسجود لها، فأكرموها، ويؤيده ما في رواية: على صورة الرحمن. وقيل: الضمير راجع إلى المضروب... قال الطيبي فيه أقوال:

الأول: أن الضمير راجع إلى آدم، وهو اختيار ابن الجوزي وفيه وجوه:

- الوجه الأول: عدم تغير هيئة سيدنا آدم عليه السلام -

أحدها: أنه خلق على صورة آدم: ومعنى الإضافة وكل شيء خلق على صورة نفسه، بأنه خلق على صورته التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى منقرض عمره ولم تتفاوت قامته ولم تتغير هيئته بخلاف سائر الناس، فإن كل واحد منهم يكون أولاً نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظاماً وأعصاباً عارية، ثم عظاماً وأعصاباً مكسوة لحماً، ثم حيواناً مخيضاً في الرحم لا

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (7/2935).

² ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق (المتوفى: 311هـ)، التوحيد. تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد - السعودية، الطبعة: الخامسة، 1414هـ - 1994م، (84/1-93).

يأكل ولا يشرب بل يتغذى من عرق كالنبات، ثم يكون مولوداً رضيعاً، ثم طفلاً مترعرعاً ثم مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً.

- الوجه الثاني: أنه خلق على صورة حال لا يشاركه فيها أحد من المخلوقات -

ثانيها: أنه خلق على صورة حال يختص به لا يشاركه نوع آخر من المخلوقات، فإنه يوصف مرة بالعلم، وأخرى بالجهل وتارة بالغواية والعصيان وأخرى بالهداية والاستغفار فلحظة يقرن بالشيطان في استحقاق اسم العصيان والإخراج عن الجنان ولحظة يتسم بسمة الاجتباء ويتوج بتاج الخلافة والاصطفاء وبرهة يستعمل بتدبير الأرضين وساعة يصعد بروحه إلى أعلى عليين وطوراً يشارك البهائم في مأكله ومشربه ومنكحه وطوراً يسابق الكروبيين في فكره وذكره وتسبيحه وتخليه.

- الوجه الثالث: أنه خلق على صورة عجيبة ليست على مثال سابق -

ثالثها: أنه تعالى اخترعها اختراعاً عظيماً في خلقه، إذ كل مخلوق قد تقدم أمثال له، فيخلقون على صورة أمثالهم المتقدمة، وأما آدم فاخترع خلقاً جديداً عجيباً ملكي الروح، حيواني الجسم، منتصب القامة، فلم يوجد على مثال له تقدم كأنه قال: ارتحل صورته اختراعاً لا تشبيهاً بمقدم، ولا محاذياً بخلق آخر، بل تولى القدم بنفسه خلق هذه الصورة إبداعاً جديداً لم يسبقه ما يشبهه بصفة ما، وتعظيم وجه الإنسان إما لأنه أشرف أجزائه من الإنسان، إذ أكثر الحواس فيه، أو لأنه إذا عدم عدم الكل بخلاف بقية الأعضاء وفي هذا التأويل إضمار كأنه قيل: هذا المضروب من أولاد آدم، فاجتنبوا ضرب العضو الأشرف احتراماً له، لأنه يشبه وجه آدم.

- القول الثاني: أن الله خلق آدم عليه السلام على صورة الرجل المضروب على وجهه -

الثاني: أن الضمير راجع إلى المضروب قال الشيخ محيي الدين: وهو رواية مسلم، ويحتمل أن يرجع إلى الوجه يعني فيلجنب الوجه؛ فإنه تعالى كرمه وشرفه بأحسن صورة، وجمع فيه المحاسن والحواس والإدراكات، والضرب في الوجه قد ينقصها ويشوه الحسن ويظهر الشين الفاحش ولا يمكن ستره، وخلق آدم عليه الصلاة والسلام على تلك الصورة، فلا تضربه تكريماً لصورة آدم؛ فإنك إن ضربت فقد أهنتها ونظيره ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((تسمون أولادكم محمداً فتلعنونه))⁽¹⁾ أنكر اللعن إجلالاً لاسمه. كما منع الضرب على الوجه تعظيماً لصورة آدم عليه الصلاة والسلام.

- القول الثالث: أن آدم عليه السلام خلق على صورة نسبت لله تشريفاً وفيه قول ابن قتيبة صورة لا كالصور وتغليط الجمهور له وموافقة الإمام القاري له -

الثالث: أن الضمير راجع إلى الله تعالى، وهو اختيار الشيخ التوربشتي قال: والوجه فيه أن يكون الضمير راجعاً إلى الله سبحانه تشريفاً وتكريماً كالإضافة في بيت الله وناقة الله، لما صح من طرق هذه الأحاديث فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن قال الشيخ محيي الدين: هذا الحديث بهذا اللفظ ثابت، ورواه بعضهم أن الله خلق آدم على صورة الرحمن، وهو ليس بثابت عند أهل الحديث، وكان من نقله رواه بالمعنى الذي وقع له وغلط في ذلك أه كلامه. وفي هذا القول وجوه: أولها: أن يجري على ظاهره، وهو قول ابن قتيبة، قال المازري: وقد غلط فيه ابن قتيبة وقال: إن الله تعالى صورة لا كالصور، وهو ظاهر الفساد؛ لأن الصورة تفيد التركيب وكل مركب محدث، وتعالى الله عن ذلك. قلت: العلة والمعلول

¹ رواه الحاكم، محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، المستدرک علی الصحیحین. تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ، كتاب الأدب، حديث سالم بن عبيد النخعي في هذا الباب، (رقم: 7795) بلفظ: (تسمون أولادكم محمداً ثم تلعنوهم). وقال الحاكم: تفرد الحكم بن عطية عن ثابت وقال الذهبي: الحكم بن عطية وثقه بعضهم وهو لين.

مدفوعان بقوله: لا كالصور، فهو نظير لكلام السلف في إثبات اليد والعين له تعالى مع التنزيه عن الجارحة له سبحانه قال: وقالت المجسمة: جسم لا كالأجسام لما سمعوا من أهل السنة أنه تعالى شيء لا كالأشياء طردوا هذا الاستعمال، والفرق ظاهر. أقول: إن اليد والعين والشيء، وكذا الصورة عند من يقول بها ثبت إطلاقها عليه تعالى، فيجب إثباتها وتنزيهه تعالى عما يرادفها بخلاف الجسم، فإنه لم يرد إطلاقه على الله تعالى، لا في كتاب، ولا في سنة، فلا يجوز إثباته له سبحانه. قال: العجب من قول ابن قتيبة في صورة لا كالصور، مع أن ظاهر الحديث على رأيه يقتضي خلق آدم على صورته، فالصورتان على رأيه سواء، فإذا قال: لا كالصور ناقض كلامه. قلت: قد تقدم وجه عدم المناقضة في كلامه على مقتضى مرامه فإنه أراد والله أعلم: أن آدم خلق على صورة الرحمن، صورة معنوية حيث اتصف بالسمع والبصر والكلام، مع أن الحقائق مختلفة كما هو مقرر محله.

وثانيها: قول القاضي إن صحت هذه الرواية تعين أن يكون الضمير لله تعالى، ويكون المعنى خلق آدم على صورة احتباها وجعلها نسخة من جملة مخلوقاته، إذ ما من موجود إلا وله مثال في صورته، ولذلك قيل: الإنسان عالم صغير أقول: بل قيل: إنه عالم كبير لحديث: ((لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن))⁽¹⁾. قال: ثم إن مجمع محاسنه ومظهر لطائف الصنع فيه هو الوجه، فبالحري أن يحافظ عليه ويتحرز عما يشوهه فلا يناسب أن يخرج ويقبح وإن لم تصح احتمال ذلك. وثالثها. قول بعضهم: إن الصورة بمعنى الأمر والشأن أي: خلق آدم على حاله وشأنه في كونه مسجوداً للملائكة، مالكا للحيوانات في كونها مسخرات له تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: 30] تعظيماً واحتراماً بشأنه كقوله صلى الله عليه وسلم: ((الحجر الأسود يمين الله في الأرض))⁽²⁾ لأنه مخصوص بالتقريب والاستسلام تعظيماً، كيمين الملك في حق من يتقرب إليه، فإذا الإضافة فيه ليست كإضافة بيت الله وناقة الله تعالى للتشريف بل الكلام وارد على التمثيل والاستعارة، وسئل سهل بن عبد الله عن قوله تعالى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: 30] قال: صورة الملك الذي تولاه فخلق آدم عليها وملكه من ملكه ما تولى، وسئل عن معنى ذلك؟ فذكر خلق آدم على صورته، وهذا أقصى ما يمكن أن يقال في هذه المقام، والله تعالى أعلم بالمرام⁽³⁾.

¹ ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين وقال الحافظ العراقي لم أجد له أصلاً. انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، إحياء علوم الدين. دار المعرفة - بيروت، (15/3).

² رواه الأزرقي، محمد بن عبد الله (المتوفى: 250هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق: رشدي الصالح ملحق، دار الأندلس للنشر - بيروت. د. ت. ما جاء في فضل الركن الأسود، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، وعن عكرمة. وقال الإمام العجلوني: "الحجر الأسود يمين الله في أرضه" رواه الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس - رضي الله عنهما - رفعه، وذكر ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصياته عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أنه قال: "الحجر يمين الله عز وجل في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الحجر؛ فقد بايع الله ورسوله"، وكذا أخرجه الأزرقي في تاريخه، وأخرجه أيضاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "الركن يمين الله في الأرض، يضاف بها عبادته كما يضاف أحدكم أخاه" وفي لفظ: "أن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل في الأرض، يضاف بها عبادته مصافحة الرجل أخاه"، ورواه القضاعي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه، لكنه صحيح بلفظ: "الركن يمين الله عز وجل يضاف بها خلقه، والذي نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئاً إلا أعطاه إياه ومثله، مما لا مجال للرأي فيه"، وله شواهد فالحديث حسن وإن كان ضعيفاً بحسب أصله كما قال بعضهم: منها ما رواه الديلمي عن أنس بلفظ: "الحجر يمين الله، فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله". ومنها ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ: "الحجر يمين الله في الأرض، يضاف بها عبادته" ومعناه كما قال الحب الطبري: أن كل ملك إذا قدم عليه قبلت يمينه، ولما كان الحاج والمعتمر يسن لهما تقبيله نزل منزلة يمين الملك على سبيل التمثيل والله المثل الأعلى؛ ولذلك من صافحه كان له عند الله عهد كما أن الملك يعطي العهد بالمصافحة. انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد (المتوفى: 1162هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس. تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندواوي، المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى، 1420هـ - 2000م، (402/1).

³ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (2302-2304هـ).

قلت: لقد دافع الإمام القاري عن قول ابن قتيبة (276هـ) (أن الله تعالى صورة لا كالصور) وجعل ذلك نظير قول السلف لله تعالى عين لا كالعيون.

لكن أقول: بينهما فرق، وهو: أن النصوص التي جاءت بها صفة العين والوجه وأمثالها؛ حين وُصف الله بها لم تكن على وجه تشبيهه بشيء أو بأحد. أما الصورة: فقد جاء الوصف بها أن صورة آدم عليه السلام خُلقت عليها، فلو فرضنا أن المراد: (على صفة الرحمن) فقد أولنا الصورة بالصفة فلم يبق لإثبات لفظ الصورة معنى، وإن أولنا الصورة بغير ذلك من الوجوه فلا يكون في الحديث إثبات لصورة ولا يكون فيه إشكال أصلاً. والتفريق بين المسألتين دقيق جداً، ولم أعثر على مؤيد لقول ابن قتيبة غير الإمام القاري - في حدود بحثي - وكلاهما يثبتون تنزيه الباري عن مشابهة الحوادث، لكن هذا الرأي منهما غير مرضي، والله أعلم.

لكني وجدت الإمام القاري قد استشهد بكلام الإمام الغزالي (505هـ) رحمه الله ووافقه في نفيه الصورة عن الله تعالى في كلام نفيس عن رؤية الله تعالى في المنام فقال: (وقال الشيخ أبو حامد الغزالي: ... وكذلك ذات الله منزّهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور، أو غيره من الصور الجميلة التي تصلح أن تكون مثالا للجمال الحقيقي المعنوي الذي لا صورة فيه ولا لون، ويكون ذلك المثال صادقا وحقا وواسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله تعالى في المنام لا بمعنى أني رأيت ذاته).

وقال الإمام القاري أيضاً: ("إن الله خلق آدم على صورته" أي: على صفة الكمال الجامعة لنعوت الجلال والجمال)⁽¹⁾.

وأما الحديث الثالث: (رأيت ربي في أحسن صورة): فإزالة الإشكال في هذا الحديث على النحو التالي:

- 1- أن هذه الرؤيا في النوم.
- 2- ذات الله منزّهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور، أو غيره من الصور الجميلة التي تصلح أن تكون مثالا للجمال الحقيقي المعنوي الذي لا صورة فيه ولا لون.
- 3- الرؤية بمعنى العلم والمعرفة.
- 4- رأيت ربي حال كوني أنا في أحسن صورة من إنعام الله علي. وعلى ذلك لا إشكال في الحديث.
- 5- التسليم والتفويض.
- 6- المراد بالصورة الصفة.
- 7- تجليات صورية مع تنزه الذات الأحادية عن الجسمية.

قال الإمام القاري: (قال ابن الملك هذا الحديث مرسل. ... (رأيت ربي عز وجل في أحسن صورة): الظاهر أن هذا الحديث مستند إلى رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه روى الطبراني بإسناده، عن مالك بن يخامر، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: ((احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغدوة، حتى كادت الشمس تطلع، فلما صلى الغدوة قال: (إني صليت الليلة ما قضى ربي ووضعت جنبي في المسجد فأتاني ربي في أحسن صورة))، وعلى هذا لم يكن فيه إشكال إذ الرائي قد يرى غير المتشكل متشكلا، والمتشكل بغير شكله، ثم لم يعد ذلك بخلل في الرؤيا ولا في خلد الرائي، بل له أسباب أخر تذكر في علم المنام، أي: التعبير، ولولا تلك الأسباب لما افتقرت رؤيا الأنبياء عليهم السلام إلى تعبير، وإن كان في اليقظة وعليه ظاهر ما روى أحمد بن حنبل، فإنه فيه: ((فنعست في

¹ انظر: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (3217/8).

صلاحي حتى استيقظت فإذا أنا بري عز وجل في أحسن صورة)..⁽¹⁾ الحديث⁽¹⁾، فذهب السلف في أمثال هذا الحديث إذا صح أن يؤمن بظاهره، ولا يفسر بما يفسر به صفات الخلق، بل ينفي عنه الكيفية ويوكل علم باطنه إلى الله تعالى، فإنه يُري رسوله ما يشاء من وراء أستار الغيب مما لا سبيل لعقولنا إلى إدراكه.

لكن ترك التأويل في هذا الزمان مظنة الفتنة في عقائد الناس لفشو اعتقادات الضلال. وإن تُؤوّل بما يوافق الشرع على وجه الاحتمال لا القطع حتى لا يحمل على ما لا يجوز شرعاً فله وجه. فقله: في أحسن صورة يحتمل أن يكون معناه: رأيت ربي حال كوني في أحسن صورة وصفة من غاية إنعامه ولطفه علي، أو: حال كون الرب في أحسن صورة، وصورة الشيء ما يتميز به عن غيره، سواء كان عين ذاته أو جزئه المميز له عن غيره أو صفته المميزة، وكما يطلق ذلك في الجنة يطلق في المعاني يقال: صورة المسألة كذا، وصورة الحال كذا، فصورته تعالى - والله أعلم - ذاته المخصوصة المنزهة عن مماثلة ما عداه من الأشياء البالغة إلى أقصى مراتب الكمال، أو: صفته المخصوصة به، أي: كان ربي أحسن إكراماً ولطفاً من وقت آخر كذا نقله الطيبي والتوريشي، وقال ابن حجر: والظاهر أن رواية: حتى استيقظت تصحيف فإن المحفوظ من رواية أحمد والترمذي كما سيذكره المصنف حتى استقلت - أي نوماً - اهـ. ويؤيده أن تلك الرواية أصح من هذه. قال بعضهم: ويحتمل أن يكون معنى رأيت: علمته وعرفته في أحسن صورة. وسمعت شيخنا الشيخ عطية السلمى ناقلاً عن شيخه أبي الحسن البكري أن الله تعالى تجليات صورية مع تنزه ذاته الأحادية عن المثلية، وكذا يندفع كثير من المتشابهات القرآنية والحديثية، والله أعلم⁽²⁾.

الترجيح

قلت: الإمام القاري في بعض الحالات يرى التسليم أسلم وفي بعض الأحيان يرى التأويل ضرورة لابد منها ويقسم على ذلك وهو في ذلك يريد - والله أعلم - حين يرجح التسليم يريد أن لا يكثر النقاش والجدال في مسائل مهيبة مثل هذه المسائل التي تخوض في ذات الله وصفاته والخوض فيها خطير. أو: أن التسليم لسليم الصدر أولى.

وحين يرجح التأويل يكون استحضاره لإفتتان العامة بضلالات المشبهة وأهل الزيغ فيرجح التأويل وبيان تلك المشكلات وإزالة إشكالاتها عن قلب المسلم الذي يرسخ في العلم والإيمان. وقد أتى الإمام القاري بما شفى وكفى ووفى بالمقصود فلن أطيل بذكر نصوص العلماء وأكتفي بالإحالة على المصادر والمراجع⁽³⁾ والله ولي التوفيق.

¹ أحمد ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م. حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، (رقم: 22109).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (608/2). وانظر أيضاً: المصدر نفسه (626/2).

³ انظر: الخطابي، أعلام الحديث (3/ 2227 - 2228)، وابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 45 - 73)، وابن بطال، شرح صحيح البخاري (7/ 69 - 70)، والمازري، المعلم بفوائد مسلم (3/ 300)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/ 498 - 506)، والقاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/ 87 - 91)، وابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (7/ 235)، والتوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (3/ 824) و(3/ 1022)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (2/ 488 - 490)، والمظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (4/ 223 - 224)، والنووي، شرح صحيح مسلم (16/ 166) و(17/ 178)، والطبي، شرح المشكاة (8/ 2491 - 2493) و(10/ 3035 - 3036)، والكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (11/ 101) و(22/ 72 - 73) والحافظ العراقي، طرح الثريب في شرح التقريب (8/ 17 - 18) و(8/ 104 - 105)، وابن الدمامي، مصابيح الجامع (9/ 373)، والبرماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (8/ 56) و(15/ 267 - 268)، وابن حجر، فتح الباري (5/ 183) و(11/ 3)، وابن الملك، شرح المصابيح (4/ 163) و(5/ 153 - 154)، والعيني، عمدة القاري (13/ 116) و(22/ 229)، الكوراني، أحمد بن إسماعيل (المتوفى 893 هـ)، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري. تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، 1429 هـ (5/ 10) و(6/ 10)، والسيوطي، شرح السيوطي على مسلم (5/ 539) و(6/ 187)، والتوشيح شرح الجامع الصحيح (8/ 3739)، زكريا الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد (المتوفى: 926 هـ)، منحة الباري بشرح=

المبحث الرابع الأحاديث المتعلقة بالوجه

الحديث الأول

(17)[5656]- عن صهيب⁽¹⁾ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]) رواه مسلم.

قلت: هذا لفظ المصاحيح وليس في لفظ مسلم في النسخ التي بين أيدينا جملة: ((فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله)) وإنما فيها فقط: ((فيكشف الحجاب فما أعطوا ...)) الحديث⁽²⁾.

الحديث الثاني

(18)[2074]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من صام يوماً ابتغاء وجه الله بَعَدَهُ الله من جهنم كبعد غراب طائر وهو فرخ حتى مات هرمًا)). رواه أحمد، وروى البيهقي في (شعب الإيمان) عن سلمة بن قيس رضي الله عنه⁽³⁾.

أما الحديث الأول: فقال بعده الإمام القاري: (وقوله: "فيرفع الحجاب" بصيغة المجهول ورفع الحجاب رفع للتعجب، كأنه قيل لهم: هذا هو المزيد، والله سبحانه وتعالى منزّه عن الحجاب، فإنه محبوب غير محبوب، إذ المحجوب مغلوب، فالمعنى: فيرفع الحجاب عن أعين الناظرين، كما يدل عليه قوله: "فينظرون إلى وجه الله"، أي: ذاته المنزهة عن الصورة والجهة ونحو ذلك)⁽⁴⁾.

= صحيح البخاري (تحفة الباري). تحقيق: سليمان بن دريع العازمي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1426 هـ (9/304)، والقسطلاني، إرشاد الساري (4/327) و(9/130)، المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين (المتوفى: 1031 هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير. المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، 1356 هـ، (1/397) و(3/445)، والتيسير بشرح الجامع الصغير. مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، الطبعة الثالثة، 1408 هـ (1/517)، والعريزي، علي بن أحمد (المتوفى: 1070 هـ)، السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، د. ت. (3/120). و اللاعي المغربي، الحسين بن محمد (المتوفى: 1119 هـ)، البدرُ التمام شرح بلوغ المرام. تحقيق: علي بن عبد الله الزين، دار هجر، الطبعة الأولى، (10/291)، والصنعاني، محمد بن إسماعيل (المتوفى: 1182 هـ)، التنوير شرح الجامع الصغير. تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، 1432 هـ (5/496)، والتحرير لإيضاح معاني التيسير، تحقيق: محمد حلاق، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، 1433 هـ (6/591-592).

¹ صهيب بن سنان بن مالك الرومي، كناه النبي صلى الله عليه وسلم أبا يحيى، وهو نمري من النمر بن قاسط، سبته الروم وهو صغير فأخذ لسائهم فصار ألكن في العربية، قيل: اشتراه عبد الله بن جدعان التميمي فاعتقه. ويقال: بل هرب من الزوم فقدم مكة، فحالف ابن جدعان. يعد في المدنيين. أسلم هو وعمّار رضي الله عنهما في يوم واحد وقت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم. وكان من المستضعفين ممن يعذب في الله، وهاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر في تلك السنة فقدموا في نصف ربيع الأول وشهد بدرا والمشاهد بعدها. ومات صهيب سنة ثمان وثلاثين: وقيل سنة تسع وثلاثين ودفن بالبقع. انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (2/726-733)، وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (3/364-366).

² رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم عز وجل، (رقم: 181).

³ رواه الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (رقم: 10808)، ورواه البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (المتوفى: 458 هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م، الصيام، فضائل الصوم، (رقم: 3318). عن سلمة بن قيس وقيل اسمه سلمة بن قيس وهو مختلف في صحبته وإسناد الحديث ضعيف لجهالة ربعة الراوي عن سلمة بن قيس.

⁴ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (9/3602).

وأما الحديث الثاني: فقال بعده الإمام القاري: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صام يوماً ابتغاء وجه الله) نصب على العلة، وفي نسخة: ابتغاء لوجه الله، وفي نسخة: لا ابتغاء وجه الله أي: ذاته وطلب قربه. أو: جهته التي رضي بها من الرجاء به أو من خوف عقابه. ولذا يفسر عند حل مشكلاته بابتغاء مرضاته⁽¹⁾.

- وقد فسر الإمام القاري جملة "ينظرون إلى وجه الله" فقال: (أي: ذاته المنزهة عن الصورة والجهة).
 وفسر جملة: "ابتغاء وجه الله" فقال: 1- أي: ذاته، وطلب قربه.
 2- جهته التي رضي بها سواء أ كانت الرجاء أو الخوف منه.
 3- وقال أنها تفسر عند حل إشكال المشبهة بابتغاء مرضاته.
 وقد فسرها بابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى مقتصرًا على ذلك في جميع مواطن ورودها في المرقاة⁽²⁾.

قلت: ولالإمام الفخر الرازي (606هـ) في هذه المسألة إلزام وإفحام منطقيٍّ للمجسمة الضالين والمشبهة الزائعين لا بد من ذكرها فلا استغناء عنها، قال رحمه الله: (الوجه يطلق على الذات، والمجسم يحمل الوجه على العضو، وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأن قوله تعالى: {كل شيء هالك إلا وجهه} [القصص: 88] يدل على أن لا يبقى إلا وجه الله تعالى، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء وهو كذلك، وعلى قول المجسم يلزم أن لا تبقى يده التي أثبتها ورجله التي قال بها، لا يقال: فعلى قولكم أيضًا يلزم أن لا يبقى علم الله ولا قدرة الله، لأن الوجه جعلتموه ذاتًا، والذات غير الصفات فإذا قلت: كل شيء هالك إلا حقيقة الله خرجت الصفات عنها فيكون قولكم نفيًا للصفات.!

نقول: الجواب عنه بالعقل والنقل، أما النقل فذلك أمر يذكر في غير هذا الموضع، وأما العقل فهو أن قول القائل: لم يبق لفلان إلا ثوب يتناول الثوب وما قام به من اللون والطول والعرض، وإذا قال: لم يبق إلا كفه لا يدل على بقاء جيبه وذيله، فكذلك قولنا: يبقى ذات الله تعالى يتناول صفاته، وإذا قلتم: لا يبقى غير وجهه بمعنى العضو يلزمه أن لا تبقى يده⁽³⁾).

الترجيح

لقد فهم العلماء من كلمة (وجه الله) الذات العلية المنزهة وهذا بديهي عقلاً وعرفاً ولغةً ولم يستشكلوها. وليكون جملة: (فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله) لم توجد في رواية مسلم لم يتطرق لها الشراح، بل حتى شراح المشكاة لم تستوقفهم كلمة (وجه الله) إذ المقصود منها معلوم عندهم بلا ريب أو شبهة، فهي حين نقول: (النظر إلى وجه الله) يتبادر إلى الذهن المعنى المراد وهو: (النظر إلى الله تعالى) فقد شاع في اللغة استعمال الوجه نيابة عن الذات. وإذا قلنا: (ابتغاء وجه الله) تبادر إلى الذهن (طلبًا لرضاه) فقد شاع في اللغة أيضًا استعمال ابتغاء الوجه بدلًا من ابتغاء الرضى.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (4/1429).

² انظر: المصدر السابق، (4/1491) و(8/3196) و(9/4001). وانظر: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (4/1355) و(9/3578).

³ الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (المتوفى: 606هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (تفسير الرازي). دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ. (29/355). وانظر: (26/410-412).

المبحث الخامس الأحاديث المتعلقة بالساق

الحديث الأول

(19)[5520]- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يخرج الدجال فيمكث أربعين " لا أدري أربعين يوماً أو شهراً أو عاماً " فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث في الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه "، قال: " فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها، ورفع ليتا " قال: " وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل، فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس! هلم إلى ربكم، {وقفوهم إنهم مسئولون} [الصفات: 24] فيقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين " قال: " فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(20)[5542]- عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً))⁽²⁾.

قلت: لقد ذكر الإمام القاري في تأويل الساق في الحديث الشريف وجوهاً، وصدرها بقول المفوضين المسلمين، واقتصر في بعض الأحيان على تأويل واحد من وجوه التأويل اكتفاءً به وملخصها ما يلي:

- 1- التسليم والتفويض مع تنزيه الباري عن مشابحة الحوادث.
- 2- الكشف عن الساق كناية عن الشدة العظيمة. وهو قول أكثر أهل التأويل.
- 3- المراد: عن قدرته التي تنكشف عند الشدة.
- 4- استعارة حاصلها: أن الله يأخذهم بالشدائد.
- 5- يكشف عن نور عظيم. كما في الحديث الشريف.
- 6- المراد أنه تجلٍّ صوري. وهذا الذي يرجحه الإمام القاري من التأويلات ويندفع به كثير من الإشكاليات.
- 7- كناية عن زوال الخوف والهول.
- 8- لكن: بعد استقراء أقوال العلماء وجدت لهم أوجهاً أخرى من التأويل لم يذكرها الإمام القاري، أُجملها فيما يلي:
- 8- المراد بالساق جماعة من الملائكة.

¹ رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب خروج الدجال ومكته في الأرض، (رقم: 2940).

² رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى (يوم يكشف عن ساق)، (رقم: 4919).

9- المراد ساق مخلوقة كعلامة لأهل الموقف.

10- المراد من الساق النفس.

11- التجلي، وكشف الحجب، وكشف ستور رب العزة.

12- كشف ساق العرش.

13- يرفع الستر من الدنيا والآخرة.

14- تكشف القيامة عن ساقها.

أما الحديث الأول: (وذلك يوم يكشف عن ساق): **فقال فيه الإمام القاري:** ("يوم يكشف" في كثير من النسخ برفع يوم منوًناً، وفي بعضها بالفتح مضافاً، وهو أوفق لما في القرآن يوم يكشف "عن ساق" أي: شدة عظيمة، يقال: كشفت الحرب عن الساق إذا اشتد فيها، وكان أصله أن الولد يموت في بطن الناقة، فيدخل المدمر يده في رحمها فيأخذ ساقه؛ فجعل لكل أمر عظيم وخطب جسيم⁽¹⁾). قال الخطابي: هذا مما هاب القول فيه شيوخنا، فأجروه على ظاهر لفظه، ولم يكشفوا عن باطن معناه، على نحو مذهبهم في التوقف عن تفسير كل ما لا يحيط العلم بكنهه من هذا الباب. أما من تأوله فقال: ذلك يوم يكشف عن شدة عظيمة وبلية فظيعة، وهو إقبال الآخرة وظهورها وذهاب الدنيا وإدبارها، ويقال للأمر إذا اشتد وتفاقم وظهر وزال خفاؤه: كشف عن ساقه، وهذا جائز في اللغة، وإن لم يكن للأمر ساق⁽²⁾).

وأما الحديث الثاني: (يكشف ربنا عن ساقه) **فقال بعده الإمام القاري:** (قال التوريشي رحمه الله: مذهب أهل السلامة من السلف التنوع من التعرض للقول في مثل هذا الحديث، وهو الأمثل والأحوط، وقد تأوله جمع من العلماء بأن الكشف عن الساق مثل في شدة الأمر، وصعوبة الخطب، واستعماله فيها شائع، ومنه قول الشاعر:

عجبت من نفسي ومن إشفافها

ومن طراذي الطير عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها

ومنه قوله تعالى: {يوم يكشف عن ساق} [القلم: 42] أي: عن شدة، وتنكير الساق في الآية من دلائل هذا التأويل، ووجه تعريف الساق في الحديث دون الآية: أن يقال: أضافها إلى الله تعالى تنبيهاً على أنها الشدة التي لا يجليها لوقتها إلا هو. أو: على أنها هي التي ذكرها في كتابه اهـ. وعند الحاكم عن ابن عباس في الآية: هو يوم كرب وشدة. وقال الخطابي: المعنى يكشف عن قدرته التي تكشف عن الشدة والكرب. وقيل: الأصل فيه أن يموت الولد في بطن الناقة، فيدخل يده في رحمها، فيأخذ بساقه ليخرجه، فهذا هو الكشف عن الساق، ثم استعمل في كل أمر فظيع. أقول: ويمكن أن يكون استعارة، وحاصله أن الله تعالى يأخذهم بالشدائد، كمن يكشف عن ساقه بالتشمير عند دخوله في أمر خطير. (فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة) أي: من كمال الشدة يقعون في السجدة طالبين رفعها بتلك القرية. وأخرج أبو يعلى بسند فيه ضعف ((عن أبي موسى مرفوعاً في قوله تعالى: {يوم يكشف عن ساق} [القلم:

¹ وقال التوريشي: (قلت: وأصله في الفرع والهرمة وتشمير المخدرات عن شوقه في الحرب). انظر: التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة، (4/1193).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (8/3504).

[42] قال: عن نور عظيم فيخرون له سجداً⁽¹⁾ فهذا يشعر بأنه تعالى يتجلى للناس تجلياً صورياً، وبهذا ينحل الإشكال في كثير من أحاديث الصفات على ما قرره بعض مشايخنا، والله تعالى أعلم... والمعنى أنه تعالى يكشف يوم القيامة عن شدة يرتفع دونها سواتر الامتحان؛ فيتميز أهل الإخلاص والإيقان بالسجود، عن أهل الريب والنفاق في اليوم الموعود، كما قال تعالى: {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} [القلم: 42-43]. وأخرج الإسماعيلي الحديث بلفظ: يكشف عن ساق. قال: وهذا أصح لموافقة لفظ القرآن، والله سبحانه وتعالى أعلم⁽²⁾.

وقال في موضع آخر: ("يقولون: نعم، فيكشف عن ساق" بصيغة المجهول، وقيل على بناء الفاعل، قيل: معنى كشف الساق زوال الخوف والهول⁽³⁾). واكتفى الإمام القاري بهذا القول هنا.

قلت: سأورد من نصوص العلماء ما فيه زيادة على ما قاله الإمام القاري بحيث تشمل كل آراء العلماء في المسألة، ويكون الكلام وافيًا بالمقصود إن شاء الله تعالى، فعلى تأويل الساق بالنور العظيم يكون المعنى ما قاله ابن فورك (406هـ): (ومعنى ذلك ما يتجدد للمؤمنين عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطف، ويظهر لهم من فضل سرائرهم التي لم يطلع عليها غيره تعالى. وقال المهلب: هذا يدل على أن كشف الساق للكافرين نقمة وعذاب، وللمؤمنين نور ورحمة ونعمة)⁽⁴⁾.

ونقله عنه القاضي عياض (544هـ) ثم قال: (وقيل: قد تكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة شنيعة؛ لأنه يقال: ساق من الناس وقدم كما قيل: رجل من جراد. وقيل: قد يكون ساقاً مخلوقة جعلها الله علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة. وقيل: هو مثل يضرب للعزم على المراء كما يقال: شمر فلان في كذا عن ساقه. وقيل: معناه: كشف الخوف وإزالة الرعب عنهم وما كان غلبت على عقولهم من هول الحال، فتطمئن حينئذ نفوسهم عند ذلك ويتجلى لهم فيخرون سجداً. وقيل: هي عبارة عن التجلي⁽⁵⁾). وأولها بمعنى الشدة في موضع آخر⁽⁶⁾.

وأول كشف الساق الإمام ابن الجوزي (597هـ) بكشف النعم الموعود بها فيكون ذلك سبب سرور المؤمنين: ("عن ساقه" يعني: عن شدة القيامة التي صدرت عنه، والتغيرات أليق بفعله الذي هو إحالات الأعيان وتغيرات الزمان. وأما ذاته ووصفه فتعالى عن ذلك. فيكشف لهم عما وعدهم به، فيخرون سجداً لنعمته، شاكرين له على إنجاز وعده، فيقع الخير مقبولا. ولو حل - ونعوذ بالله - على ما قالت المحسمة من صورة ترجع إلى ذاته لكان ذلك تجويزاً لتغيير صفاته وخروجه في صورة. فإن كانت حقيقة فهو استحالة، وإن كانت تخيلاً فليس ذاك هو، وإنما يريهم غيره، فما أشنع مقالة من يصدر قوله عن الجهالة، ويتعلق بالظواهر كما تعلقت النصارى في المسيح وقالوا: هو روحه حقيقة⁽⁷⁾).

وقال الإمام المظهري (727هـ): (- ذكر قول الإمام الخطابي المتقدم ثم قال: - يقال: أسفر وجه الأمر، واستقام صدر الرأي. قال الشاعر يصف حرباً: كشفت لهم عن ساقها ... وبدا من الشر الصراح
وقيل: معناه: أن يرفع الستر من الدنيا والآخرة، وقيل: هو المراد بقوله: {يوم تبلى السرائر} [الطارق: 9].

¹ رواه أبو يعلى، أحمد بن علي الموصلي (المتوفى: 307هـ)، مسند أبي يعلى. تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، 1404 هـ - 1984م، حديث أبي موسى الأشعري، (رقم: 7283).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (8/3519-3520).

³ المصدر السابق، (8/3550).

⁴ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (10/464).

⁵ القاضي عياض، إكمال المعلم، (1/549).

⁶ انظر: المصدر السابق (8/496).

⁷ الإمام ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (3/135).

وقيل: عن ساق؛ أي: عن ساق العرش. وقيل: عن نور عظيم. قال ابن قتيبة: تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج فيه إلى الجهد، ومقاساة الشدة: شمر عن ساقه... فعلى هذا القول معناه: المبالغة في التجلي والظهور عن ذاته؛ لأنه في اللغة عبارة عن الجهد في الأمر، أو لأن الساق يكون مستورًا غالبًا، فكشفه مبالغة في هذا الوجه أيضًا⁽¹⁾.

وذكر الإمام ابن الملقن (804هـ) عدة أوجه وجيهة فقال: (وقد اختلف العلماء في هذا الحديث، فمنهم من توقف عن كشف معناه. - ثم ذكر وجه تأويلها بالشدة ثم قال: - وقريب منه أن المراد بالساق: النفس. ومنه قول علي حين راجعه أصحابه في قتال الخوارج فقال: والله لأقاتلنهم ولو تلفت ساقِي. يريدُ نفسه. والمراد: التجلي وكشف الحجب حتى إذا رآوه سجدوا له، ومنهم من قال: المراد: يكشف لهم عن ساق بعض المخلوقين من الملائكة، فيجعل لهم شيئًا لبيان ما يشاء من حكمته في أهل الإيمان والنفاق. وقرأها ابن عباس بضم الياء. وردَّ الحكيم الترمذي (320هـ) على ابن قتيبة حيث قال في "مشكله": المراد بقوله: {يوم يكشف عن ساق} أي: عن شدة الأمر بحديث ابن مسعود السالف. وأن هذا يوم سرور المؤمنين وقرّة عيونهم إذا كشف لهم الغطاء عن معبودهم، وأما في غير هذه الآية فالأمر كما قاله، وأما قوله تعالى: {والنفث الساق بالساق} [القيامة: 29] فالمراد: ساق الدنيا أو أمرها أو أعمالها بالآخرة عند الموت. وقيل: يلفان في الأكفان⁽²⁾).

وقال الإمام العيني: (- ذكر وجه تأويلها بالشدة ثم قال: - قوله: (يكشف ربنا عن ساقه) من المتشابهات، ولأهل العلم في هذا الباب قولان: أحدهما: مذهب معظم السلف أو كلهم تفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والإيمان به، واعتقاد معنى يليق بجلال الله عز وجل. والآخر: هو مذهب بعض المتكلمين أنها تتأول على ما يليق به. ولا يسوغ ذلك إلا لمن كان من أهله بأن يكون عارفاً بلسان العرب، وقواعد الأصول والفروع اهـ). ثم ذكر التأويلات⁽³⁾.

الترجيح

لقد أزال الشراخ الإشكال في هذه المسألة بعدة وجوه؛ فمن مكثف بالتسليم، ومن معدّد أوجهًا وتأويلها حال كونه عارفاً بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع فجزاهم الله تعالى خيرًا⁽⁴⁾، وأولى ما نُفسرُ به الحديث هو الحديث الشريف. فالقائلون بأن: (كشف الساق هو الكشف عن نور عظيم) مؤيدون بحديث شريف، وإن كان في إسناده ضعف؛ إلا أنه صالح للترجيح، وهو جامع لعدة أقوال؛ فنقول: يكشف عن نور عظيم يهابه الكافرون والمنافقون فيكون عليهم شدة عظيمة، ويُسرُّ به المؤمنون فيكون يوم فرح لهم، ويؤيد ذلك ولا يناقضه قول الإمام القاري: "هو تجلٍّ صوري"، وهي قاعدته القوية في دفع كثير من المشكلات الحديثية، والله أعلم.

¹ المظهر، المفاتيح في شرح المصاييح، (466-465/5).

² ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (448-447/23).

³ الإمام العيني، عمدة القاري، (257/19).

⁴ انظر: الخطابي، أعلام الحديث (3/ 1930-1933)، وابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 347) و(ص: 442)، و ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف (المتوفى: 569هـ)، مطالع الأنوار على صحاح الآثار. تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، الطبعة الأولى، 1433 هـ (5/ 550)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/ 135)، و التوريشتي، الميسر في شرح مصاييح السنة (4/ 1192-1193)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصاييح السنة (3/ 389)، والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، (3/ 27) و(18/ 77)، والطبي، شرح المشكاة، (11/ 3486) و(11/ 3502)، والكرماني، الكواكب الدراري (18/ 163-164)، وابن الدمامي، مصاييح الجامع (8/ 470)، والبرماوي، اللمع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (12/ 522-523)، وابن حجر، فتح الباري (8/ 664) و(13/ 428)، وابن الملك، شرح المصاييح (6/ 18)، والعيني، عمدة القاري (19/ 257-258) و(25/ 129)، والكوبراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (8/ 326) و(11/ 241-242)، والسيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح، (7/ 3098)، وزكريا الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري (8/ 213)، والقسطلاني، إرشاد الساري (7/ 399) و(10/ 404)، ومحمد علي البكري الصديقي، دليل الفالحين (8/ 633)، والصنعاني، التحبير لإيضاح معاني التيسير (2/ 422) و(2/ 424)، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري (المتوفى: 1353هـ)، فيض الباري على صحيح البخاري. تحقيق: محمد بدر عالم الميرقي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، 1426 هـ (5/ 432)، ومحمد الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (9/ 319).

المبحث السادس

الأحاديث المتعلقة بالرجل أو القدم

(21)[5694]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار: فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة: فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقاً))⁽¹⁾.

قلت: بعض الروايات ذكرت القدم، وبعضها الرجل، وبعضها مضاف للرب تعالى، وبعضها للجبار، وبعضها غير مضاف، ولذلك تشعبت أقوال العلماء، وكثرت تفنيدهم لهذا الحديث، وقد اقتصر الإمام القاري على ما رآه كافياً وقوياً في هذه المسألة، وملخص دفعه لإشكال الحديث الشريف كالآتي:

- 1- التسليم أسلم مع التنزيه عن التكييف والتشبيه. وهو الذي رجحه الإمام القاري.
- 2- المراد: قدم بعض مخلوقاته.
- 3- قوم قدمهم الله للنار من أهلها. وهذا والذي قبله رجحهما القاضي عياض.
- 4- كناية عن تسكين فورقها.
- 5- وضع القدم مثل للروع والقمع فكأنه قال يأتيها أمر الله فتمتلئ.
- 6- الرجل جماعة من الجراد.
- 7- الراوي أخطأ في لفظ الرجل لظنه أنها تسد مسد القدم فروى بالمعنى. وهذا ما رجحه الإمام التوريشي⁽²⁾.

وقد ترك أوجه كثيرة يحتملها الحديث الشريف فمن ذلك:

- 8- الرجل كناية عن طلب الأمر بجدد.
- 9- الرجل الجماعة من الناس.
- 10- المراد بالقدم: موضع من المواضع التي ستلقى في النار. وهو قول ابن حبان.
- 11- القدم هو آخر الأعضاء فكذلك هنا بمعنى: آخر من سيلقى في النار.
- 12- مخلوق اسمه قدم. (أو: رجل).
- 13- قدم صدق أي: شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وضعفه بعض العلماء.
- 14- القدم بكسر القاف: قوم خلقهم الله قبل آدم فعصوا ربه فأهلكهم يضعهم في النار حين تطلب المزيد فتمتلئ.

¹ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى (وتقول هل من مزيد)، (رقم: 4848) بلفظ: (حتى يضع قدمه)، و(رقم: 4849)، بلفظ: (فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها)، و(رقم: 4850)، بلفظ: (فلا تمتلئ حتى يضع رجله)، وكتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعة الله وصفاته وكلماته، (رقم: 6661)، بلفظ: (حتى يضع رب العزة فيها قدمه)، وكتاب التوحيد باب قوله تعالى وهو العزيز الحكيم سورة إبراهيم، (رقم: 7384) بلفظ: (حتى يضع فيها رب العلمين قدمه) و باب ما جاء في قوله تعالى ان رحمت الله قريب من المحسنين. (رقم: 7449)، ورواه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (رقم: 2846)، بلفظ: (فيضع قدمه عليها) و (حتى يضع الله، تبارك وتعالى، رجله) و(رقم: 2848) بلفظ: (حتى يضع فيها رب العزة، تبارك وتعالى، قدمه) و: (حتى يضع رب العزة فيها قدمه).

² الإمام التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (4/ 1230).

15- المراد فعل من أفعال الله بجهنم يقتضي انزواءها وأن تصير ملأى عبر عنه بما ذكر في الحديث.

16- المراد إذلال جهنم بعد طغيانها وطلبها المزيد. وضعفه بعض العلماء.

17- الجبار ملك من الملائكة.

18- المراد بالجبار إبليس فهو أول من تجبر. وهو أضعف الأقوال.

قال الإمام القاري: (فمذهب السلف: التفويض مع التنزيه، وأرباب التأويل من الخلف يقولون: المراد بالقدم: قدم بعض مخلوقاته. أو: قوم قدمهم الله للنار من أهلها، وتقدم في سابق حكمه أنهم لاحقوها، فتمتلئ منهم جهنم، والعرب تقول: كل شيء قدمته من خير أو شر فهو قدم، ومنه قوله تعالى: {أن لهم قدم صدق عند ربهم} [يونس: 2] أي: ما قدموه من الأعمال الصالحة الدالة على صدقهم في تصديقهم، والمراد بالرجل الجماعة من الجراد، وهو إن كان موضوعاً لجماعة كثيرة من الجراد، لكن استعارته لجماعة الناس غير بعيد، وأخطأ الراوي في نقله الحديث بالمعنى، وظن أن الرجل سد مسد القدم، هذا وقد قيل: وضع القدم على الشيء مثل للروع والقمع، فكأنه قال: يأتيها أمر الله فيكفيها من طلب المزيد، ويدل على هذا المعنى قوله: " فيضع الرب قدمه عليها " ولم يقل فيها، كذا قاله شارح المصابيح، لكن الرواية الآتية بلفظ: " فيها " في المشكاة. نعم "في" قد تأتي بمعنى "على"، على ما في التنزيل {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه: 71]. وقيل: أريد به تسكين فورتحا، كما يقال للأمر يراد إبطاله: وضعته تحت قدمي، ذكره في النهاية. وفي شرح السنة: القدم والرجل المذكوران في هذا الحديث من صفات الله المنزهة عن التكيف والتشبيه، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب أو السنة، كاليد والأصبع والعين، والحيء والإتيان والنزول، فالإيمان بما فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغ والمنكر معطل، والمكيف مشبه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: 11] انتهى. وهو الموافق لمذهب الإمام مالك رحمه الله، ولطريق إمامنا الأعظم، على ما أشار إليه في الفقه الأكبر، فالتسليم أسلم، والله تعالى أعلم⁽¹⁾.

الإمام القاري هنا مع ذكره ستة أوجه من التأويل؛ وتتركه اثني عشر وجهاً آخر من التأويل؛ رجح التفويض، وقال أنه أسلم. وقوله: (أسلم) يدل على سلامة من قال بالتأويل أيضاً، فالمسألة بين سليم وأسلم، ووجه أفضلية المفوضين أنهم بالتسليم انتهت مهمتهم ومساءلتهم وتنفيذ واجبهم من الإيمان بالغيب وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن صفات ربه سبحانه وتعالى.

وأما المؤولون وإن اشتركوا في ذلك مع المفوضين إلا أنهم بقيت مساءلتهم على أي المعاني استقر اعتقادهم؟ وهل أصاب وجه الحقيقة أم لا؟ وهل كان التأويل قريباً أم بعيداً؟ ومؤيداً بأدلة أم لا؟ فمن أجاب عن هذه الأسئلة منهم كان في سلامة أيضاً، والله أعلم.

نصوص بعض العلماء

وكانت الوجوه التي ذكرها الإمام الخطابي (388هـ) موافقة لأقوال الإمام القاري قال بعد إيراد روايات الحديث: (كما ترى إما صريح الإضافة من غير رفع وإما رفع من غير تصريح بالإضافة، فيشبه أن يكون من ذكر القدم والرجل وترك الإضافة، إنما تركها تحيياً لها وطلباً للسلامة من خطأ التأويل فيها. وكان أبو عبيد - وهو أحد أئمة أهل العلم - يقول: نحن نروي هذه الأحاديث ولا نريغ

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (9/ 3629).

لها المعاني، ونحن أحرىء بأن لا نتقدم فيما تأخر عنه من هو أكثر علماً وأقدم زماناً وسناً، ولكن الزمان الذي نحن فيه قد جعل أهل هذه الحزبين: منكر لما يروى من نوع هذه الأحاديث رأساً، ومكذب به أصلاً، وفي ذلك تكذيب العلماء الذين رَوَوْا هذه الأحاديث؛ وهم أئمة الدين ونقله السنن، والوسائطُ بيننا وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، والطائفة الأخرى: مسلمة للرواية فيها ذاهبة في تحقيق الظاهر منها مذهباً يكاد يفضي بهم إلى القول بالتشبيه، ونحن نرغب عن الأمرين ولا نرضى بواحد منهما مذهباً، فيحق علينا أن نطلب لما يرد من هذه الأحاديث إذا صحت من طريق النقل والسند تأويلاً يخرج على معاني أصول الدين، ومذاهب العلماء، ولا تبطل الرواية فيها أصلاً؛ إذ كانت طرقها مرضية ونقلتها عدولاً. — ثم ذكر وجوه التأويل المحتملة ثم قال — قلت: وفيه وجه آخر وهو أن هذه الأسماء أمثال يرد لها إثبات معاني لا حَظَّ لظاهر الأسماء فيها من طريق الحقيقة، وإنما أريد بوضع الرجل عليها نوع من الزجر لها والتسكين من غيرها، كما يقول القائل للشيء، يريد محوه وإبطاله: جعلته تحت رجلي، ووضعت تحت قدمي، وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فقال: ((ألا إن كل دم ومأثرة في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت))⁽¹⁾، يريد محو تلك المآثر وإبطالها، وما أكثر ما تُضرب العرب الأمثال في كلامها بأسماء الأعضاء، وهي لا تريد أعينها كقولهم في الرجل يسبق منه القول أو الفعل ثم يندم عليه: قد سقط في يده، أي: ندم، وكقولهم: رغم أنف فلان إذا ذلَّ⁽²⁾.

وذكر الإمام ابن فورك رحمه الله بعض الأوجه التي مرت، ثم بيّن أنه إذا احتملت اللغة واحداً من هذه الأوجه كانت أولى مما يتوهمه المجسمة وما يذهب إليه المعطلة من إبطال هذه الأحاديث⁽³⁾.

وجمع الإمام ابن حجر العسقلاني أوفى جَمْعٍ لأقوال العلماء في هذه المسألة، فقال: (واختلف في المراد بالقدم فطريق السلف في هذا وغيره مشهورة، وهو: أن تمر كما جاءت ولا يتعرض لتأويله بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله. وخاض كثير من أهل العلم في تأويل ذلك... يكون هناك مخلوق اسمه قدم. أو: المراد بالقدم الأخير، لأن القدم آخر الأعضاء فيكون المعنى: حتى يضع الله في النار آخر أهلها فيها ويكون الضمير للمزيد. وقال ابن حبان (354هـ) في صحيحه بعد إخراجه: "هذا من الأخبار التي أطلقت بتمثيل المجاورة، وذلك أن يوم القيامة يلقي في النار من الأمم والأمكنة التي عصي الله فيها فلا تزال تستريد حتى يضع الرب فيها موضعاً من الأمكنة المذكورة فتمتلئ لأن العرب تطلق القدم على الموضع قال تعالى: {أَن لَّهم قدم صدق} [يونس: 2] يريد: موضع صدق". وقال الداودي (402هـ): المراد بالقدم قدم صدق وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والإشارة بذلك إلى شفاعته، وهو المقام المحمود فيخرج من النار من كان في قلبه شيء من الإيمان، وتُعقَّب بأن هذا منابذ لنص الحديث، لأن فيه يضع قدمه بعد أن قالت: هل من مزيد، والذي قاله مقتضاه: أنه ينقص منها، وصريح الخبر أنها تنزوي بما يجعل فيها لا يخرج منها. قلت: ويحتمل أن يوجه بأن من يخرج منها يبدل عوضهم من أهل الكفر كما حملوا عليه حديث أبي موسى في صحيح مسلم ((يعطى كل مسلم رجلاً من اليهود والنصارى فيقال هذا فداءك من النار))⁽⁴⁾ فإن بعض العلماء قال: المراد بذلك أنه يقع عند إخراج الموحدين وأنه يجعل مكان كل واحد منهم واحداً من الكفار بأن يعظم حتى يسد مكانه ومكان الذي خرج، وحينئذ فالقدم سبب للعظم المذكور فإذا وقع العظم حصل الماء الذي تطلبه. ومن التأويل البعيد قول من قال: المراد بالقدم قدم إبليس، وأخذَه من قوله: "حتى يضع الجبار فيها قدمه" وإبليس أول من تكبر فاستحق أن يسمى متجبراً وجباراً، وظهور بُعد هذا يغني عن تكلف الرد عليه. وزعم ابن الجوزي: أن الرواية التي جاءت بلفظ الرجل تحريف من بعض الرواة لظنه أن المراد بالقدم الجارحة فرواها بالمعنى فأخطأ، ثم قال: ويحتمل أن يكون المراد بالرجل إن كانت محفوظة الجماعة كما تقول رجل من جراد فالتقدير يضع فيها جماعة وأضافهم إليه إضافة اختصاص. وبالع أن فورك: فجزم بأن الرواية بلفظ الرجل غير ثابتة عند أهل النقل وهو مردود لثبوتها في الصحيحين... وقيل: إن الرجل تستعمل في طلب الشيء على سبيل الجذع كما تقول قام في هذا الأمر على رجل... يفعل فيها شيئاً عبر عنه بما ذكر يقتضي لها أن ينضم بعضها إلى بعض فتصير ملأى ولا تحتمل مزيداً⁽⁵⁾.

¹ رواه أبو داود، كتاب الديات، باب الدية كم هي؟ (رقم: 4547)، وابن ماجه، كتاب الديات، باب دية شبه العمد مغلفة، (رقم: 2628).

² الإمام الخطابي، أعلام الحديث (3/ 1907-1910).

³ الإمام ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 134).

⁴ رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (رقم: 2767)، بلفظ: ((إذا كان يوم القيامة، دفع الله عز وجل إلى كل مسلم، يهودياً، أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاكك من النار)).

⁵ الإمام ابن حجر فتح الباري (8/ 596-597).

وذكر الإمام العيني قولاً يزيل الإشكال عن رواية واحدة بعينها على فَرَضِ ثبوتها فقال: (وروي عن حسان بن عطية: حتى يضع الجبار قدمه، بكسر القاف، وكذلك روي عن وهب بن منبه، وقال: إن الله تعالى قد كان خلق قومًا قبل آدم عليه السلام، يقال لهم: القِدَم، رؤوسهم كرؤوس الكلاب والدواب، وسائر أعضائهم كأعضاء بني آدم، فعصوا ربهم فأهلكهم الله تعالى، بئلاً الله جهنم منهم حين تستزيد)⁽¹⁾.

وقال أيضًا: (واختلف المؤولون فيه، - فذكر بعض التأويلات، ثم قال: - ومنهم من أنكر هذه الأحاديث كلها وكذبها، وهذا طعن في الثقات، وإفراط في رد الصحاح، ومنهم من روى بعضها وأنكر أن يتحدث ببعضها وهو مالك، روى حديث النزول، وأؤله، وأنكر أن يُتحدث بحديث: (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ، رضي الله تعالى عنه)، ومنهم من تأولها تأويلًا يكاد يفضي فيه إلى القول بالتشبيه)⁽²⁾.

والمقصود من هذا الحديث: إعلام الخلق أن النار إذا سُلِّطَتْ أَتَتْ على الأشياء، حتى إنه لولا رحمة الإله سبحانه لأتت على السموات والأرض وسائر المخلوقات، فمجموع هذا يبين من قوله: سبقت رحمتي غضبي، وقد شرحناه فيما قبل. وإنما كانت السنة المتبوعة في رواية الحديث أن تمر هذه الأحاديث كما جاءت، ولا ينقلوا نطقها عن صيغته اكتفاء بما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في صيغتها؛ إذ نقلها عن صيغتها قد لا تقع من البلاغة مع سعتها عن نفي التشبيه موقع نُطِقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذُكر من هذه الأحاديث مع كونه قد أنزل عليه قوله عز وجل: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} (الشورى: 11)، وأنزل عليه قوله سبحانه: {ولا يحيطون به علمًا} [طه: 10]. فإنما أراد الله - فيما أرى - تحقيق الصفات المقدسة، وتمكين الآيات بما ذكره صلى الله عليه وسلم عن ربه ليكون كافيًا لقلب أهل الصلاة بذلك، وناكبًا لقلب أهل الزيف، ودامعًا رؤوس أهل التعليل، الذين لما اضطهرهم الاعتراف بوجود الخالق سبحانه عدلوا إلى جحد صفاته سبحانه وتعالى... فكانت هذه الأحاديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم كبا لقلوب الكافرين، ونكًا لصدور المعطلين، وعلم بما أهل الحق أنه سبحانه وتعالى كما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم يؤمنون بأنه {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: 11]. لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحد والحصر والميل والشبه والتأليف والاقتران والمضامة والاتساق، بل هو سبحانه واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد)⁽³⁾.

قاعدة عظيمة

وأرشدنا الإمام المناوي إلى قاعدة عظيمة في التأويل تغني اللبيب، وأنا أنقلها بحروفها، قال رحمه الله: (والجبار في اللسان: الملك العظيم، وكذا القدم يضع الجبار فيها قدمه، أصل القدم الجارحة، ويقال: لفلان في هذا قدم أي: ثبوت، وقد يكون الجبار ملكًا، وهذه القدم لذلك الملك، ومثل هذه الأخبار كثيرة، منها صحيح وسقيم، وما منها خبر إلا وله وجه من وجوه التنزيه، وإن أردت أن يقرب عليك ذلك فاعمد إلى اللفظة الموهمة للتشبيه وخذ فائدتها أو روحها أو ما تكون عنها فاجعله في حق الحق تُفَرِّجْ بدرجة التنزيه كما حاز غيرك درك التشبيه هكذا فافعل وطهر ثوبك وقلبك فيكفي هذا القدر والسلام)⁽⁴⁾.

¹ الإمام العيني، عمدة القاري (23/ 186).

² الإمام العيني، عمدة القاري (188/ 189).

³ ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (7/ 223-224).

⁴ الإمام المناوي، فيض القدير (4/ 255).

وعلى مثل ما ذكرت سار كثيرٌ من المحدثين والشرح¹.

الترجيح

الوجوه التي ذكرها الإمام القاري كافية وقوية ومقبولة، وأقواها كما يرى الباحث (التفويض والتسليم مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات)، للأسباب التي مرَّ ذكرها بعد كلام الإمام القاري من هذا المطلب، وذلك لمن لم يكن عنده شبهة أو استشكل في المسألة، وأما من كان عنده استشكل فيها؛ فليُنظر أيُّ هذه الأوجه الثمانية عشر التي ذكرناها فليأخذ منها ما يُسَكِّنُ نفسه ويَطْمَئِنُّ قلبه، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.



¹ انظر: ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 125-130)، والمازري، المعلم بفوائد مسلم (3/ 353-355)، وأبو بكر ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك (3/ 466)، والقاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/ 378-380)، والتوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (4/ 1229-1230) والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (3/ 437-438)، وابن الملحن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (33/ 213-216)، والعيني، عمدة القاري (23/ 186)، و(189-188/19).

المبحث السابع

الأحاديث المتعلقة بالحقوق

(22)[4919]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطعية. قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب! قال: فذاك))⁽¹⁾.

- لقد أزاح الإمام القاري الإشكال في هذا الحديث بعدة وجوه؛ فخواها: النظر إلى فحوى الحديث الشريف، وهي:
- 1- المراد بالحقوق: كتفي الرحمة الخاصة والعامة، أي: المقصود به: الاستعارة عن الاستغاثة والاستعانة.
 - 2- إزارا الرحمن: أي: الاستعانة بإزار العزة ورداء العظمة بلسان المقال أو لسان الحال. ورجحه ابن حجر.
 - 3- المراد: بأطراف عرش الرحمن.
 - 4- أحاديث الرحم من أحاديث الصفات فإما التسليم وإما التأويل.

وقال غيره:

- 5- هذا مجاز، إدناءً للمعنى المعقول، إلى المثال المحسوس المعتاد بينهم؛ ليكون أقرب إلى فهمهم وأمكن في نفوسهم.
 - 6- استعارة تمثيلية أو مكنية أو تخيلية. أو كناية إيمائية.
 - 7- هو على حذف مفعول (أخذت) - كما في بعض الروايات - ويكون المعنى: فأخذت بقائمة من قوائم عرش الرحمن.
- ومغزى هذه الوجوه جميعاً التعبير عن استعانة الرحم بالرحمن من القطعية. **وفحوى هذا:** إظهار فضيلة صلة الرحم، وعظم جرمه قطيعتها، والله أعلم.

قال الإمام القاري: (قامت الرحم) أي: قيام صورة مصورة، أو معنوية مقدرة⁽²⁾ (فأخذت بحقوي الرحمن) أي: بكتفي رحمته العامة والخاصة، والحقو بفتح الحاء وسكون القاف: الإزار والخصر، ومعقد الإزار في اللغة، والمراد به هنا: - والله أعلم - الاستعارة عن الاستغاثة والاستعانة، كما يقال: أخذت بذيل الملك حتى أنصفي. وتوضيحه: أنه لما كان من شأن المستجير أن يستمسك بحقوي المستجار به، وهما: جنباه الأيمن والأيسر، استعير الأخذ بالحقوق في اللياذ بالشيء. تقول العرب: عذت بحقو فلان أي: استجرت واعتصمت به. والحاصل: أن الرحم استعادت بلسان المقال، أو بيان الحال، والتجأت وعادت بعزة الله وعظمته من أن يقطعها أحد، ووجه تخصيص الرحمن لا يخفى من مناسبة المبنى والمعنى. ولا يبعد أن يقال: التقدير بحقوي عرش الرحمن أي: بطرفيه، أو أطراف ذيله مترددة من جانب إلى جانب، كما يدل عليه حديث عائشة الآتي: الرحم معلقة بالعرش... (قالت: هذا) أي: مقامي هذا (مقام العائذ) أي: المستعيز بك (من القطعية) أي: قطيعتي، والمعنى: أن سبب عيادي وباعث ليأذي بذيل رحمتك التي وسعت كل شيء

¹ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب وتقطعوا أرحامكم، (رقم: 4830)، و كتاب الأدب باب من وصل وصله الله (رقم: 5987)، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، (رقم: 2554)، بدون لفظ: (بحقوي الرحمن)، ولفظ البخاري (بحقو الرحمن).

² قال العيني: (قوله: (قامت الرحم) أي القرية مشتقة من الرحمة، وهي عرض جُعِلَتْ في جسم فلذلك قامت وتكلمت). انظر: الإمام العيني، عمدة القاري (19/172).

أن يقطعني أحد، فيقع في غضبك وسخطك... قال النووي: الرحم التي توصل وتقطع إنما هي معنى من المعاني، والمعاني لا يتأتى منها القيام ولا الكلام، فيكون المراد تعظيم شأنها وفضيلة واصلها وعظم إثم قاطعها⁽¹⁾.

وقال في موضع آخر: (وأما حديث الرحم فمن أحاديث الصفات، والرحم معنى من المعاني، فإذا أن يترك على حاله ولا ينصرف في منواله كما هو طريق السلف، أو يؤول على دأب الخلف، مع أن المحققين على أن المعاني لها حقائق ثابتة في علم الله، أو يجعلها الله تعالى صوراً وأجساماً، ويجعلها ناطقة وسائله ومجيبه، وأمثال ذلك)⁽²⁾.

قلت: وليس مراد الإمام القاري هنا أن قيام الرحم حال كونها معنى من المعاني أنه من أحاديث الصفات؛ إذ لا صلة بين قيام الرحم وبين صفات الله تعالى، وإنما مراده هو أن استعاضتها بحقو الرحمن - وليس للرحمن حقو إذ هو سبحانه مُنَزَّهٌ عن مشابهة المخلوقات، ومُنَزَّهٌ عن التَّكُّب من أجزاء - هو الإشكال، وهو الذي فيه المذهبان: التفويض مع نفي التشبيه أو التأويل كما مر، وقد سار الشراح على خطوات متشابهة في شرح هذا الحديث وتبع المتأخر المتقدم في طريقة إزالة الإشكال، ولذلك سأكتفي بنصوص من كان كلامه مرجعاً لمن بعده⁽³⁾.

قال الإمام المظهري (727هـ): (بحقوي الرحمن) أي: بإزاري الرحمن، والمراد بالإزارين هنا: ما أراد بقوله: ((الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري))⁽⁴⁾. يعني: التجأت الرحم وعازت بعزة الله وعظمته من أن يقطع أحد الرحم)⁽⁵⁾.

وقال الإمام الطيبي (743هـ): ("قض": لما كان من عادة المستحجر أن يأخذ بذيل المستحجر به أو بطرف إزاره، وربما يأخذ بحقو إزاره - وهو مشد - تفضيلاً للأمر ومبالغة وتوكيداً في الاستحارة. وكأنه يشير به إلى أن المطلوب أن يحرسه ويذب عنه ما يؤذيه. كما يحرص ما تحت إزاره ويذب عنه، وأنه لاصق به لا ينفك عنه، فاستعير ذلك للرحم، واستعاضتها بالله من القطيعة. وإليه أشار بقوله: ((هذا مقام العائذ بك))، وهي أيضاً مجاز، إنداءً للمعقول، إلى المثال المحسوس المعتاد بينهم؛ ليكون أقرب إلى فهمهم وأمكن في نفوسهم.

- ثم ذكر قول النووي السابق ثم قال - : أقول: القول الأول مبني على الاستعارة التمثيلية التي الوجه فيها منتزع من أمور متوهمة للمشبه المعقول، فما كانت ثابتة للمشبه به المحسوس؛ وذلك أن شبهت حال الرحم وما هي عليه من الافتقار إلى الصلة والذب عنها من القطيعة بحال مستحجر يأخذ بذيل المستحجر به وحقو إزاره. ثم أدخل صورة حال المشبه في جنس المشبه به، واستعمل في حال المشبه ما كان مستعملاً في حال المشبه به في الألفاظ بدلالة قرائن الأحوال. ويجوز أن تكون مكنية، بأن يشبه الرحم بإنسان مستحجر بمن يحميه ويجيره ويذب عنه ما يؤذيه، ثم أسند على سبيل الاستعارة التخيلية ما هو لازم للمشبه به من القيام؛ لتكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة، ثم رشت الاستعارة بأخذ الحقو والقول. وقوله: ((بحقوي الرحمن)): استعارة أخرى مثلها. والقول الثاني على الكناية الإيمائية. وهي أخذ الزبدة والخلاصة من مجموع الكلام من غير نظر إلى مفردات التركيب حقيقتها ومجازها. "الكشاف" في قوله تعالى: {والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه} [الزمر: 67]، الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته والتوقف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز. ثم قال: ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات من كلام الله في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء! فإن أكثره وأغلبه تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً وحديثاً. والله أعلم بالصواب⁽⁶⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (3085/7).

² المصدر السابق، (1253/3).

³ انظر: إبراهيم ابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار (2/ 347)، والتوريشي، المسر في شرح مصابيح السنة (3/ 1067)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (3/ 250)، وابن الملتن، التوضيح (23/ 243)، وابن الدماميني، مصابيح الجامع (8/ 397)، وابن الملك، شرح المصابيح (5/ 279)، والعيني، عمدة القاري (19/ 172-173)، والقسطلاني، إرشاد الساري (7/ 342-343)، وابن حجر الهيتمي، فتح الإله في شرح المشكاة (9/ 620).

⁴ رواد مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، (رقم: 2620).

⁵ الإمام المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح، (5/ 205).

⁶ الإمام الطيبي، شرح مشكاة المصابيح (10/ 3161).

وقال شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله: (قوله: (قامت الرحم) يحتمل أن يكون على الحقيقة، والأعراض يجوز أن تتجسد وتتكلم بإذن الله، ويجوز أن يكون على حذف، أي: قام ملك فتكلم على لسانها، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها وفضل أصلها وإثم قاطعها، قوله: (فأخذت) كذا للأكثر بحذف مفعول أخذت وفي رواية بن السكن (فأخذت بحقو الرحمن) وفي رواية الطبري: (بحقوي الرحمن) بالثنية. قال القاسبي (403هـ): أئى أبو زيد المروزي أن يقرأ لنا هذا الحرف لإشكاله، ومشى بعض الشراح على الحذف فقال: أخذت بقائمة من قوائم العرش. وقال عياض: الحقو معقد الإزار وهو الموضع الذي يستجار به ويحترم به على عادة العرب لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع، كما قالوا نمنعه مما نمنع منه أُرزنا فاستعير ذلك مجازاً للرحم في استعاذتها بالله من القطيعة انتهى. وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه كما في حديث أم عطية ((فأعطاها حقوه فقال أشعرنھا إياه))⁽¹⁾ يعني: إزاره. وهو المراد هنا، وهو الذي جرت العادة بالتمسك به عند الإلحاح في الاستجارة والطلب، والمعنى على هذا صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة. - ثم نقل قول الإمام الطبري السابق -⁽²⁾.

الترجيح

مغزى هذه الوجوه جميعاً: التعبير عن استعاذة الرحم بالرحمن من القطيعة. وفحوى الحديث: إظهار فضيلة صلة الرحم، وعظم جريمة قطيعتها، وهذا واضح بلا تكلف، والله أعلم.

¹ رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب غسل الميت ووضوئه بالماء والسدر، (رقم: 1253)، ورواه مسلم، كتاب الجنائز، باب في غسل الميت، (رقم: 939).

² الإمام ابن حجر، فتح الباري (8/ 580).

المبحث الثامن الأحاديث المتعلقة بالعين

الحديث الأول

(23)[5470] - عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا يخفى عليكم، إن الله تعالى ليس بأعور وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبه طافئة))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(24)[5471] - عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من نبي إلا أندر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ريكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: ك ف ر))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(25)[5485] - عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إني حدثكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن المسيح الدجال قصير أفحج جعد أعور مطموس العين، ليست بناتئة ولا حجرا، فإن ألبس عليكم فاعلموا أن ريكم ليس بأعور))⁽³⁾.

قلت: صفة العين لله تعالى جاءت بالكتاب والسنة، - مع التنزيه عن الجارحة وعن مشابهة الحوادث - لكن لم يرد منها في مشكاة المصابيح شيء سوى هذه الأحاديث التي تفهم منها صفة العين بمفهوم المخالفة لثبوت العور للدجال، وأن الله تعالى ليس بأعور، لكن جمهور العلماء لم يفهموا ذلك من هذه الأحاديث ولم يروا في هذه الأحاديث التفويض والتسليم كسائر أحاديث الصفات بل فهموا منها التنزيه عن النقائص وهذه هي خلاصة أقوالهم واقتصر عليها الإمام القاري رحمه الله تعالى.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ("إن الله لا يخفى عليكم" أي: بالنظر إلى نعوته الثبوتية، وصفاته السلبية، وتنزهه عن العيوب والنقائص، وسائر الحدوثات الزمانية والمكانية، فالجملة توطئة لقوله: "إن الله تعالى ليس بأعور" ومفهومه لا يعتبر فإن المراد به نفي النقص والعيوب لا إثبات الجارحة بصفة الكمال قال الطيبي: هو للتنزيه)⁽⁴⁾.

وقال بعد الحديث الثاني: ("وإن ريكم ليس بأعور"، أي: تنزه أن يكون ناقصاً ومعيباً في ذاته وصفاته، وهذا الكلام منه عليه الصلاة والسلام من باب التنزل إلى عقل العوام وفهومهم، كما ورد: كلم الناس على قدر عقولهم، ونظيره ما في التنزيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ - ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها { [الأعراف: 194 - 195]، والمعنى: أن الأصنام مع كمال عجزهن ونقصان آلاتهن بالنسبة إلى العابدين، كيف يصلح أن يكن في مرتبة المعبودين؟ وليس القصد أنهن لو فرض أن تكون هذه الأعضاء ثابتة لهن، لكان يجوز أن يعبدن)⁽⁵⁾.

¹ رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، (رقم: 3439)، ورواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، (رقم: 169).

² رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (ولتصنع على عيني)، (رقم: 7408)، ورواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، (رقم: 2933).

³ رواه أبو داود، أول كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، (رقم: 4320).

⁴ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (8/3452).

⁵ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (8/3453).

وقال بعد الحديث الثالث: ("فإن ألبس عليكم": بصيغة المجهول أي: إن اشتبه عليكم أمر الدجال بنسيان ما بينت لكم من الحال، أو إن لبس عليكم أمره بما يدعيه من الألوهية بالأمر الخارقة عن العادة، "فاعلموا أن ربكم ليس بأعور" أي: أقل ما يجب عليكم من معرفة صفات الربوبية هو التنزيه عن الحدوث والعيوب، لا سيما النقائص الظاهرة المرئية⁽¹⁾).

نصوص بعض العلماء

قال ابن فورك: (ومعنى هذا الخبر أيضا تحقيق وصف الله تعالى بأنه بصير وأنه لا يصح عليه النقص والعمى ولم يرد بذلك إثبات الجارحة وإنما أراد نفي النقص لأن العور نقص وقد ذكرنا أنه لا مدح في إثبات الجوارح بل إثباتها لله تعالى مستحيل ووصفه بما يؤدي إلى القول بنفيه وحديثه⁽²⁾).

وقال ابن المنير: (وجه الاستدلال على إثبات العين لله من حديث الدجال من قوله: إن الله ليس بأعور من جهة أن العور عرفاً عدم العين وضد العور ثبوت العين فلما نزعنا هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها وهو وجود العين وهو على سبيل التمثيل والتقريب للفهم لا على معنى إثبات الجارحة، ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صفات ذات أثبتتها السمع ولا يهتدي إليها العقل. والثاني: أن العين كناية عن صفة البصر واليد كناية عن صفة القدرة والوجه كناية عن صفة الوجود. والثالث: إمرارها على ما جاءت مفوضاً معناها إلى الله تعالى⁽³⁾). وقال المظهري: (وربكم ليس بأعور؛ يعني: فاعلموا أنه تعالى منزّه عن سمة الحدوث، فضلاً عن النقائص والعيوب، وفيه دليل على جواز إثبات ذاته تعالى وصفاته القديمة بالمعقول؛ إذ كل ما في الوجود من الحوادث لا بد لها من أن تنتهي إلى شيء يقوم بنفسه، ولا يحتاج إلى موجد، وذلك المنتهى إليه الدال عليه البرهان العقلي هو واجب بنفسه، مستغن عن غيره، وهو المعبود الحق الذي يسمى إلهاً⁽⁴⁾).

وقال شيخ الإسلام ابن حجر: (وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله الاستواء والنزول والنفس واليد والعين فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى... - ثم قال ابن حجر-: (الإشارة إلى عينه صلى الله عليه وسلم إنما هي بالنسبة إلى عين الدجال فإنها كانت صحيحة مثل هذه ثم طرأ عليها العور لزيادة كذبه في دعوى الإلهية وهو أنه كان صحيح العين مثل هذه فطرأ عليها النقص ولم يستطع دفع ذلك عن نفسه⁽⁵⁾).

الترجيح

الأحاديث كما رأى الإمام القاري وجمهور العلماء تنزه الباري عن صفات الحدوث والنقص، ودلالاتها بمفهوم المخالفة - إن اعتبرنا مفهوم المخالفة فيها - فهو على إثبات صفة البصر لله عز وجل، وليس على إثبات الجارحة وأي تنزيه وأي علامة ربوبية في إثبات الجارحة لله تعالى؟! حاشا لله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (8/ 3479). وانظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (1/ 521)، والمظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (5/ 411)، وابن حجر، فتح الباري، (13/ 96). والعيني، عمدة القاري (15/ 219).

² ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 253).

³ ابن المنير، المتواري على أبواب البخاري (ص: 419).

⁴ المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (5/ 433).

⁵ الإمام ابن حجر، فتح الباري (13/ 390).

الفصل الثالث

أحاديث الصفات الخيرية التي يوهم ظاهرها قيام الحوادث بذات الله تعالى.

وفيه مباحث: المبحث الأول: حديث الرحمة.

المبحث الثاني: أحاديث الغضب.

المبحث الثالث : أحاديث الضحك والتعجب.

المبحث الرابع: حديث التردد.

المبحث الخامس: أحاديث الملal والنسيان.

المبحث السادس: حديث النزول .

المبحث السابع: أحاديث الإتيان.

المبحث الثامن: أحاديث الغيرة.

المبحث التاسع: أحاديث المعية.

المبحث العاشر: أحاديث الفرح.

المبحث الحادي عشر: أحاديث التأذي.

المبحث الثاني عشر: أحاديث (الله الطيب) و (الله هو الدهر).

المبحث الأول

حديث الرحمة

(26)[2365]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة))⁽¹⁾.

قلت: جملة ما تحصل من المعاني التي تحملها الرحمة هنا ستة، وهي:

- 1- أن المقصود غايتها ولازمها، وهو: النعمة والإحسان والتفضل، وهي متعلق الإرادة.
- 2- المثوبة ولا ينافي تأويلها بالنعمة بل تؤول بمهما جميعاً عند من فسرها بذلك.
- 3- الرحمة التي خلقها الله في نفوس عباده.
- 4- هي استغفار ملائكته سبحانه للمؤمنين.
- 5- القدرة المتعلقة بإيصال الخير.
- 6- الرحمة هي المغفرة.

اختار الإمام القاري تأويلين للرحمة في حق الله تعالى، فقال: (إن لله مائة رحمة" أي: غايتها، وهي النعمة لاستحالة حقيقة الرحمة في حقه تعالى وتعددتها... "رحمة واحدة" أي: تعطفاً روحانياً وميلاً نفسانياً، وحملت الرحمة هنا على حقيقتها لإمكانها فهي أثر من آثار رحمته تعالى، والإنزال تمثيلٌ مشيراً إلى أنها ليست من الأمور الطبيعية بل هي من الأمور السماوية مقسومة بحسب قابلية المخلوقات لمظاهر آثار صفة الرحمانية الواقعة... - ثم نقل قول الطيبي -: "رحمة الله تعالى لا نهاية لها لم يرد بما ذكره تحديداً بل تصويراً للتفاوت بين قسط أهل الإيمان منها في الآخرة وقسط كافة المربوبين في الدنيا. اهـ"⁽²⁾ - وعلق عليه قائلاً: - وهو في المرتبة الحسنى، ولا ينافي تفسير الرحمة بالنعمة فإن نعمه لا تحصى دنيا وعقبى، ولا يعارضه تقسيم الرحمة بمعنى المثوبة العظمى على ما ورد من نزول مائة وعشرين رحمة كل يوم على الكعبة ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين)⁽³⁾⁽⁴⁾.

بعض نصوص العلماء

قال ابن الجوزي: "اعلم أن رحمة الله عز وجل صفة من صفات ذاته وليست على معنى الرقة كما في صفات بني آدم، وإنما ضرب مثلاً بما يعقل من ذكر الأجزاء أو رحمة المخلوقين، والمراد أنه أرحم الراحمين"⁽⁵⁾.

ومن ذهب إلى أن المراد من الرحمة هنا هي الرحمة التي خلقها الله في نفوس عباده أو: هي استغفار الملائكة للمؤمنين الإمام المهلب (435هـ) رحمه الله: ("قال المهلب: وهذه الرحمة التي خلقها لعباده وجعلها في نفوسهم، والتي أمسك عند نفسه هي ما يتراحمون به يوم القيامة، ويتغافرون) من التبايعات التي كانت بينهم في الدنيا، وقد يجوز أن يستعمل تلك الرحمة المخلوقة فيهم

¹ رواه البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، (رقم: 6000)، ومسلم، كتاب الأدب، باب في سعة رحمة الله تعالى (رقم: 2752) واللفظ لمسلم.

² الطيبي، شرح المشكاة (1861/1860/6).

³ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (1639/4).

⁴ رواه البيهقي، شعب الإيمان، كتاب المناسك، فضيلة الحجر الأسود والمقام (رقم: 3760).

⁵ ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/331330).

فيرحمهم بما سوى رحمته التي وسعت كل شيء، التي لا يجوز أن تكون مخلوقة وهي صفة من صفات ذاته لم يزل موصوفاً بها، فهي التي يرحمهم بما زائداً على الرحمة التي خلقها لهم. وقد يجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارهم لهم دليل على أن في نفوس الملائكة رحمة على أهل الأرض⁽¹⁾.

وحاصل كلامه أن الرحمة رحمتان رحمة من صفة الذات وهي لا تتعدد ورحمة من صفة الفعل وهي المشار إليها هنا ولكن ليس في شيء من طرق الحديث أن التي عند الله رحمة واحدة بل اتفقت جميع الطرق على أن عنده تسعة وتسعين رحمة وزاد في حديث سلمان أنه يكملها يوم القيامة مائة بالرحمة التي في الدنيا فتعدد الرحمة بالنسبة للخلق. وقال القرطبي (656هـ): مقتضى هذا الحديث أن الله علم أن أنواع النعم التي ينعم بها على خلقه مائة نوع فأنعم عليهم في هذه الدنيا بنوع واحد انتظمت به مصالحهم وحصلت به مرافقهم فإذا كان يوم القيامة كمل لعباده المؤمنين ما بقي فبلغت مائة وكلها للمؤمنين وإليه الإشارة بقوله تعالى: {وكان بالمؤمنين رحيماً} [الأحزاب: 43] وقال أيضاً: "قال القرطبي هذا نص في أن الرحمة يراد بها متعلق الإرادة لا نفس الإرادة وأنها راجعة إلى المنافع والنعم⁽²⁾."

وفسرها الإمام الكرمانى بالقدرة المتعلقة بإيصال الخير والقدرة صفة واحدة والتعلق غير متناه فحصره على رقم المئة على سبيل التمثيل تسهياً للفهم وتعليلاً لما عندنا من الرحمة وتكثيراً لما عنده سبحانه⁽³⁾.

وقال أيضاً: (فإن قلت: ما معنى الغلبة في صفات الله القديمة؟ قلت: الرحمة والغضب من صفات الفعل فيجوز غلبة أحد الفعلين على الآخر، وكونه أكثر منه أي: تعلق إرادتي بإيصال الرحمة أكثر من تعلقها بإيصال العقوبة وسبب ذلك أن فعل الرحمة ممن مقتضيات صفته، بخلاف الغضب فإنه باعتبار معصية العبد تتعلق الإرادة به)⁽⁴⁾.

وفسر الرحمة بالمغفرة الإمام ابن الملقن فقال: (و"الصلاة": الرحمة المترادفة، كذا قالوه، وفيه نظر من وجهين: أحدهما: أن الرحمة عطف عليها في قوله: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} [البقرة: 157] والعطف يقتضي المغايرة. ثانيهما: أن الرحمة رقة القلب، وهي مستحيلة في حقه تعالى!. والصواب: أنها المغفرة في حقه تعالى، وأصلها لغة: الدعاء، فحملت على المغفرة؛ لأنه محال في حقه تعالى)⁽⁵⁾.

وفسر المناوي رحمة الله تعالى بالإحسان والتفضل باعتبار غايتها ولازمها⁽⁶⁾.

وقال الإمام الزبيدي (1205هـ): (قال الراغب: "الرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد يستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف، وعلى هذا قوله صلى الله عليه وسلم ذكراً عن ربه: ((أنه لما خلق الرحم قال له: أنا الرحمن، وأنت الرحم، شققت اسمك من اسمي، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته))⁽⁷⁾، فذلك

¹ انظر: ابن الملقن، التوضيح، (298-299).

² الإمام ابن حجر، فتح الباري، (432/10).

³ انظر: الكرمانى، الكواكب الدار (165/21).

⁴ المصدر السابق (118/25).

⁵ ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي (المتوفى: 804 هـ)، المعين على تفهم الأربعين. دراسة وتحقيق: الدكتور دغش بن شبيب العجمي، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، حولي - الكويت، الطبعة الأولى، 1433 هـ (ص: 40).

⁶ الإمام المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير (37/2).

⁷ رواه الإمام أحمد في المسند في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (رقم: 1680) وابن حبان، محمد بن حبان البستي (المتوفى: 354هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: 739 هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1408 هـ، باب صلة الرحم وقطعها (رقم: 433) ولفظ أحمد: ((عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته")).

إشارة إلى ما تقدم، وهو أن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان، فصار كما أن لفظ الرحم من الرحمة؛ فمعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله، فتَناسَبَ معناهما تناسُبَ لفظيهما⁽¹⁾.

وقال الصنعاني (1182هـ): (أقول: الرحمة هي الرقة المؤلمة تعزي من يرحم فيتحرك إلى قضاء حاجة المرحوم. هذا في حق العباد. وأما رحمة الله؛ فهي إضافة الخير على المحتاجين وإرادته لهم عناية بهم، وهي الرحمة الحقيقية، ورحمة الله عامة تعم المستحق وغير المستحق، وتامة؛ وذلك أنه حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين قضاه)⁽²⁾.

الترجيح

كل الوجوه هذه محتملة مقبولة، غير متضادة، فيحمل معنى الرحمة في حق الله تعالى: على تعلق القدرة والإرادة وعلى النعمة والمثوبة والإحسان وإيصال الخير والمغفرة واستغفار الملائكة للمؤمنين، والرحمة التي خلقها الله في نفوس مخلوقاته، والله أعلم.



¹ مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس. دار الهداية، د ت. (225/32 - 226) فصل الرأ مع الميم.

² الصنعاني، التحبير لإيضاح معاني التيسير (4/ 426).

المبحث الثاني

أحاديث الغضب

الحديث الأول

(27)[5700] - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله تعالى كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي؛ فهو مكتوب عنده فوق العرش))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(28)[4755] - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل كان يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله))⁽²⁾.

قلت: الحديث مشكل من وجوه: الوجه الأول: نسبة صفة الغضب لله تعالى، والغضب في حق البشر صفة نقص يترافق معها تغير وهيجان قلب وانفعال نفس، والإشكال الثاني: سبقٌ وغلبةٌ بعض صفات الله تعالى لبعض وهو مستلزم الحدوث، وثالث وجوه الإشكال العندية، وهي تستلزم المكان، وسيمر معنا الحديث عن المعية والعندية في المبحث التاسع من هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

وملخص وجوه تأويل صفة الغضب في حق الله تعالى:

1- الرحمة إرادة الخير والغضب إرادة الشر والعقوبة.

2- الغضب والغیظ: شدة كراهية الفعل.

3- المراد: غاية الغضب والغیظ وهو مجاز عن إنزال العقوبة.

وتأويل السبق والغلبة:

1- هو تقريب للأفهام لإدراك معنى صفات الرحمة والغضب.

2- السبق والغلبة بحسب كثرة متعلقات الرحمة، أو مجاز عن المبالغة في الرحمة.

3- الرحمة والغضب من صفات الفعل فجاز سبق أحدهما للآخر.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ("إن الله كتب" أي أثبت أو أمر أن يكتب الملائكة "كتابًا" أي مكتوبًا وهو اللوح، أو كتب كتابة مستقلة "قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي" بكسر الهمزة وفتحها "سبقت غضبي" أي غلبت، كما في رواية، والمعنى غلبت الرحمة بالكثرة في متعلقها على الغضب، والحاصل أن إرادة الخير والنعمة والمثوبة منه سبحانه لعباده أكثر من إرادة الشر والنقمة والعقوبة؛ لأن الرحمة عامة، والغضب خاص... قال التوريشتي رحمه الله: يحتمل أن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، ويكون معنى قوله: فهو مكتوب عنده، فعلم ذلك عنده، ويحتمل أن يراد منه القضاء الذي قضاه، وعلى الوجهين فإن قوله: فهو عنده فوق العرش تنبيه على كينونته مكتوبًا عن سائر الخلائق،

¹ رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (بل هو قرآن مجيد)، (رقم: 7554). ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، (رقم: 2751).

² رواه البخاري، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى، (رقم: 6205 و 6206) بلفظ: ((أخنى)) و ((أخنع)) بدل ((أغيظ))، ورواه مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك، (رقم: 2143) ولفظه: ((أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله)).

مرفوعاً عن حيز الإدراك، ولا تعلق لهذا القول بما يقع في النفوس من التصورات تعالى عن صفات المحدثات فإنه هو المبين عن جميع خلقه المتسلط على كل شيء بقهره وقدرته...

وقال النووي: غضب الله تعالى ورضاه يرجعان إلى إثابة المطيع وعقاب العاصي، والمراد بالسبق هنا والغلبة في أخرى كثرة الرحمة وشمولها، كما يقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة، إذا أكثر منه. أقول: ولو أبقيا على حقيقتيهما من غير إرادة الجاز جاز أيضاً؛ لأن رحمته تعالى سابقة على غضبه باعتبار التعلق بالنسبة إلى كل أحد من مخلوقاته، فإن أول الرحمة نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد، فلا يخلو عن النعمتين أحد من العباد، وكذا منحه سبحانه بالنسبة إلى محنه غالبية كثيرة شاملة لعموم الخلائق، سواء من أطاعه أو عصاه في البلاد⁽¹⁾.

وقال بعد الحديث الثاني: ("أغيظ رجل": اسم تفضيل بني للمفعول أي: أكثر من يغضب عليه ويعاقب، فإن الغيظ غضب العاجز عن الانتقام، وهو مستحيل في حقه سبحانه، فيكون كناية عن شدة كراهة هذا الاسم أو مجازاً عن عقوبته للتسمي بالاسم الآتي، وأضيف إلى مفرد بمعنى الجمع أي: أشد أصحاب الأسماء الكريهة عقوبة... وفي النهاية هذا مجاز الكلام معدول عن ظاهره، فإن الغيظ صفة تعزري المخلوق عند احتداده يتحرك لها، والله تعالى يتعالى عن ذلك، وإنما هو كناية عن عقوبته للتسمي بهذا الاسم أي: إنه أشد أصحاب هذه الأسماء عقوبة عند الله سبحانه. قال الطيبي: إن الغيظ والغضب من الأعراض النفسانية لها بدايات وغايات، فإذا وصف الله تعالى بها يتعين حملها على الغايات من الانتقام بإنزال الهوان وحلول العقاب، لا على بداياتها من التغيير النفسي، فعلى هذا في معنى الوجوب أي: واجب على الله تعالى على سبيل الوعيد أن يغيظ عليه، وينكل به، ويعذبه أشد العذاب⁽²⁾.

نصوص بعض العلماء

قال الإمام ابن الجوزي: ("سبقت غضبي". ربما وقع في وهم القليل العلم أن بعض صفاته قد سبق بعضاً، أو غلب، أو أن "عنده" تقتضي مكاناً يوجب القرب إلى الذات وليس كما يقع له، وإنما هذا الخطأ على سبيل التقريب إلى الأفهام ما تعرفه من سبق الشيء وغلبته، فإنه لما بدأ سبحانه بالإنذار قبل التعذيب وحكم وأمهل وعفا، كان معنى هذا سبق رحمته وغلبتها⁽³⁾).

وقال التوريشي: (المراد من هذا الكلام بيان سعة الرحمة وشمولها على الخلق، حتى كأنها السابق والغالب، وهو جار مجرى الاستعارة على مجاز كلام العرب في المبالغة، يقال: غلب فلان المنع، وغلب على فلان العطاء، أي أن الشيء الموصوف بالغلبة أكثر أفعاله وأظهر خصاله⁽⁴⁾).

وقال الحافظ العراقي: (قال المازري غضب الله ورضاه يرجعان إلى إرادته لإثابة المطيع ومنفعة العبد وعقاب العاصي وضرر العبد فالأول منهما يسمى رحمة والثاني يسمى غضباً وإرادة الله سبحانه قديمة أزلية بها يريد سائر المرادات فيستحيل فيها الغلبة والسبق، وإنما المراد هنا متعلق الإرادة من النفع والضرر فكان رفقه بالخلق ونعمه عندهم أغلب من نقمه وسابقة لها⁽⁵⁾).

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (9/ 3634-3635).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (7/ 2998-2999). وانظر: القاضي عياض، إكمال المعلم (7/ 19)، وابن الملك، شرح المصابيح (5/ 209)، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (8/ 130)، والبكري، دليل الفالحين (4/ 321).

³ ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/ 430-431).

⁴ التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (2/ 548).

⁵ الحافظ العراقي، طرح التشريب في شرح التقريب (8/ 84).

وقال الإمام العيني: (قيل: صفاته تعالى قديمة كيف يتصور السبق بين الرحمة والغضب؟ وأجيب: بأتهما من صفات الفعل لا من صفات الذات، فجاز سبق أحد الفعلين على الآخر، وذلك لأن إيصال الخير من مقتضيات صفته بخلاف غيره فإنه بسبب معصية العبد)¹.

الترجيح

المراد غاية هذه الصفات فإن إنزال العقوبة بالعاصي من كمال صفات الجلال، وأما الغضب والغيظ والتغير والإنكماش وسوء المزاج فهي من نقائص البشر، فلا تصلح لاتصاف الباري سبحانه وتعالى بها، فالمراد غاية هذه الصفات، واستعمال كلمات الغضب والغيظ هو لتقريب المعنى لأفهام الناس، ومما يدل على ذلك أيضًا أن الإمام القاري رحمه الله، وغيره من العلماء لم يذكروا مذهبي التفويض والتأويل في دفع إشكال هذه الصفة وكأنهم يرون إرادة المجاز فيها واضحة، والله أعلم.

¹ الإمام العيني، عمدة القاري (25/ 139).

المبحث الثالث

أحاديث الضحك والتعجب

الحديث الأول

(29)[1228]- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة والقوم إذا صفوا في قتال العدو))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(30)[3807]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يضحك الله تعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة: يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(31)[665]- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية للجبل يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله عز وجل -: انظروا إلى عبدي هذا، يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي، وأدخلته الجنة))⁽³⁾.

الحديث الرابع

(32)[2434]- عن علي رضي الله عنه: أنه أتى بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ثم قال: {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون} [الزخرف: 13-14] ثم قال: الحمد لله ثلاثا والله أكبر ثلاثا سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقيل: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ثم ضحك فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: ((إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي يقول: يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري))⁽⁴⁾.

الحديث الخامس

(33)[1251]- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وظيفته ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته، فيقول الله ملائكته: انظروا إلى عبدي، ثار عن فراشه ووظيفته من بين حبه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقا مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه،

¹ رواه الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة رضي الله عنهم، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (رقم: 11761). قال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط إسناده ضعيف لضعف مجالد، وهو ابن سعيد الهمداني، وهشيم وهو: ابن بشير مدلس وقد عنعن وهو لم يسمع من مجالد. ورواه الإمام البيهقي، الأسماء والصفات، باب ما جاء في الضحك، (رقم: 985).

² رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ثم يقتل (رقم: 2826). ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة (رقم: 1890).

³ رواه أبو داود، كتاب تفرغ أبواب صلاة السفر، باب الأذان في السفر، (رقم: 1203). والنسائي، كتاب الأذان، باب الأذان لمن يصلي وحده، (رقم: 666). سكت عنه أبو داود وقال الشيخ الأرنؤوط إسناده صحيح.

⁴ رواه أبو داود، أول كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا ركب، (رقم: 2602)، والترمذي، أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا ركب دابة، (رقم: 3446). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فعلّم ما عليه في الانحزام وما له في الرجوع، فرجع حتى هريق دمه، فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، وشفقاً مما عندي حتى هريق دمه⁽¹⁾.

الحديث السادس

(34)[3960] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل)) وفي رواية: ((يقادون إلى الجنة بالسلاسل))⁽²⁾.

الحديث السابع

(35)[5582] عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((آخر من يدخل الجنة رجل، يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة فيقول: أي رب أدني من هذه الشجرة فلا أستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله: يا ابن آدم لعلني أعطيتكها سألني غيرها؟ فيقول: لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها؛ فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب! أدني من هذه الشجرة لأشرب من مائها، وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلني إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها؛ فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين، فيقول: أي رب! أدني من هذه فلا أستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى يا رب هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: يا رب! أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم ما يصريني منك؟ أيرضيك إن أعطيتك الدنيا ومثلها معها، قال: أي رب! أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود؛ فقال: ألا تسألوني مما أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ فقال ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر⁽³⁾.

قلت: مذاهب العلماء في نسبة الضحك لله تعالى ستة:

- 1- التفويض وعدم الاشتغال بتفسيرها وأن المقصود الترغيب بالأعمال التي ورد الضحك منها.
- 2- أن الضحك كناية عن الرضا والعناية والرحمة أو: الرضا والقبول.
- 3- أن المقصود تبين النعمة وإبدائها وإظهار الكرامة لمن رضي الله عمله.

¹ رواه أبو داود، أول كتاب الجهاد، باب في الرجل يشري نفسه (رقم: 2536) مختصراً بلفظ: (عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجب ربنا عز وجل من رجل غزا في سبيل الله فانهزم -يعني أصحابه- فعلم ما عليه، فرجع حتى أهرق دمه، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، حتى أهرق دمه"، و الطبراني، سليمان بن أحمد (المثوق: 360هـ)، المعجم الكبير. تحقيق: حمدي بن عبد الحميد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية، باب العين، خطبة ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، (رقم: 8532)، بلفظ: (قال: ألا إن الله عز وجل يضحك إلى رجلين رجل قام في ليلة باردة من فراشه وحافه ودثاره فتوضأ ثم قام إلى صلاة، فيقول الله عز وجل لملائكته: ما حمل عبدي هذا على ما صنع؟ فيقولون: ربنا رجاء ما عندك، وشفقة مما عندك، فيقول: إني قد أعطيته ما رجا وأمنته مما خاف، ورجل كان في فئة فعلم ما له في الفرار، وعلم ما له عند الله، فقاتل حتى قتل فيقول للملائكة: ما حمل عبدي هذا على ما صنع؟، فيقولون: ربنا رجاء ما عندك، وشفقة مما عندك، فيقول: إني أشهدكم أني قد أعطيته ما رجا وأمنته مما خاف " أو كلمة شبيهة بها).

² رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، (رقم: 3010).

³ رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، (رقم: 187).

4- يضحك أي: يجزل العطاء.

5- أن المقصود ضحك بعض ملائكته سبحانه كالملائكة الموكلين بقبض روح العبد.

6- التجلي على العبد.

وأما نسبة التعجب لله تعالى ففيها ثلاثة مذاهب:

1- الرضا.

2- استحسان فعل العبد.

3- استعظام الله لفعل العبد.

وكان اختيار الإمام القاري التأويل بالرضا والرحمة مرة، والاقتصار على ذلك، ومرة أخرى ذكر فيها الرضا وضحك الملائكة والتسليم مع التنزيه.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ((يضحك الله إليهم)) أي: يرضى عنهم، وينظر إليهم نظر عناية بالغة، ويرحم عليهم رحمة سابعة⁽¹⁾.

وقال بعد الحديث الثاني: ("يضحك الله تعالى": أي: يرضى مقبلاً (إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة): أي معاً (يقاتل): استئناف مبين؛ أي: يجاهد (هذا): أي أحدهما (في سبيل الله فيقتل): أي: فيرحمه ؛ لأنه قتل شهيداً (ثم يتوب الله على القاتل): أي الكافر بأن يوفقه للإيمان فيؤمن (فيستشهد): فيقتل شهيداً فيرحمه بفضل؛ لأنه مات سعيداً. - ثم نقل قول الإمام النووي من أن المراد ضحك الملائكة الذين يقبضون روحه ثم قال -: (وقيل: هو من الصفات المتشابهات ينزه عن التشبيه، ويوكل علمه إليه سبحانه)⁽²⁾.

وقال بعد الحديث الثالث: ("يعجب ربك" أي: يرضى. قال النووي: التعجب على الله محال إذ لا يخفى عليه أسباب الأشياء، والتعجب إنما يكون مما خفي سببه، فالمعنى عظم ذلك عنده وكبر، وقيل: معناه الرضا، والخطاب إما للراوي، أو لواحد من الصحابة غيره. وقيل: الخطاب عام لكل من يتأتى منه السماع لفحامة الأمر، فيؤكد مع التعجب)⁽³⁾.

وقال بعد الحديث الرابع: ("قال: إن ربك يعجب" بفتح الجيم أي: يرضى "من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي" قال الطيبي: أي يرتضي هذا القول ويستحسنه استحسان المعجب، وقال شارح: التعجب من الله استعظام الشيء ومن ضحك من أمر إنما يضحك منه إذا استعظمه، فكان أمير المؤمنين وافق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وافق الرب تعالى وتقدس)⁽⁴⁾.

وقال بعد الحديث الخامس: ("عجب ربنا"، أي: رضي واستحسن "من رجلين"، أي: فعلهما، وقال الطيبي، أي: عظم ذلك عنده منهما، قال ابن الملك: فسماه عجباً مجازاً ؛ لأن التعجب إنما يكون مما خفي سببه، ولا يخفى عليه شيء)⁽⁵⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (927/3).

² المصدر السابق (2466/6).

³ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (565/2).

⁴ المصدر السابق (1690/4).

⁵ المصدر السابق (937/3).

وقال بعد الحديث السادس: ("عجب الله": أي رضي "من قوم يدخلون الجنة" ... قال القاضي: قد سبق غير مرة أن صفات العباد إذا أطلقت على الله تعالى أريد بها غاياتها، فغاية التعجب والاستبشار بالشيء الرضا به واستعظام شأنه، فالمعنى عظم الله شأن قوم يؤخذون عنوة في السلاسل، فيدخلون في الإسلام فيصيرون من أهل الجنة ورضي عنهم، وأحلهم محل ما يتعجب منه)⁽¹⁾.

وقال بعد الحديث السابع: (وتوضيحه، ما ذكره ابن الملك: إن قيل: صدر منه هذا القول بعد كشف الغطاء، واستواء العالم والجاهل في معرفة الله تعالى فيما يجوز على الله، وما لا يجوز. قلت: مثابة هذا العالم مثابة العالم الذي يستولي عليه الفرح بما آتاه الله؛ فيزل لسانه من شدة الفرح، كما أخطأ في القول من ضلت راحلته بأرض فلاة، عليها طعامه وشرابه، فأيس منها، ثم بعدما وجدها وأخذ بخطامها قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك... قال التوربشتي رحمه الله: الضحك من الله ومن رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ وإن كانا متفقين في اللفظ، فإنهما متباينان في المعنى؛ وذلك أن الضحك من الله سبحانه يحمل على كمال الرضا عن العبد، وإرادة الخير ممن يشاء من عباد الله أن يرحمه)⁽²⁾.

نصوص بعض العلماء

1- التفويض مع التنزيه:

وقد نقل التسليم الإمام ابن الجوزي فقال: ("يضحك الله إلى رجلين": قد ذكرنا أن أكثر السلف كانوا يمتنعون من تفسير مثل هذا ويمرونه كما جاء، وينبغي أن تراعى قاعدة في هذا قبل الإمرار: وهي أنه لا يجوز أن يحدث لله صفة، ولا تشبه صفاته صفات الخلق، فيكون معنى إمرار الحديث الجهل بتفسيره)⁽³⁾.

قلت: هي قاعدة عظيمة تبين زيف من يدعون أنهم يتبعون السلف الصالح وأنهم على طريقة أهل الحديث؛ فيفسرون تسليم السلف وتفويضهم بإثبات التشبيه، ثم ينفون الكيفية فقط، وهذا جهل عظيم، وافتراء وخيم تعالى الله عن ذلك. وكذلك قال الإمام البيهقي: (فأما المتقدمون من أصحابنا فإنهم فهموا من هذه الأحاديث ما وقع الترغيب فيه من هذه الأعمال، وما وقع الخبر عنه من فضل الله سبحانه، ولم يشتغلوا بتفسير الضحك، مع اعتقادهم أن الله ليس بذي جوارح ومخارج، وأنه لا يجوز وصفه بكسر الأسنان وفغر الفم، تعالى الله عن شبه المخلوقين علواً كبيراً)⁽⁴⁾.

2- إبداء النعمة والكرامة:

(قال أبو الحسن- ابن مهدي الطبري⁽⁵⁾) - : فمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يضحك الله) أي: يبين ويبيد من فضله ونعمه ما يكون جزاء لعبده الذي رضي عمله)⁽⁶⁾.

وقريب منه قول الإمام أبي بكر ابن العربي: "يظهر لهما أدلة الكرامة وعلامات الرضا كما يفعل الضاحك منا لما يُسرُّ به"⁽¹⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (2546/6).

² المصدر السابق، (3559/8).

³ ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (506/3). ونقله عنه الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (المتوفى: 1122هـ)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1424هـ، (52/3).

⁴ الإمام البيهقي، الأسماء والصفات، (414/2).

⁵ علي بن محمد بن مهدي، أبو الحسن الطبري، العلامة المتكلم الأصولي تلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري، صحبه بالبصرة وأخذ عنه وكان من المبرزين في علم الكلام والقوانين بتحقيقه وله كتاب "تأويل الأحاديث المشكوكات الواردة في الصفات" وكان مفتتاً في أصناف العلوم توفي في حدود (380هـ). انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (المتوفى: 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: بشار عؤاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003 م، (492/8). والإمام السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (3/466-467).

⁶ الإمام البيهقي، الأسماء والصفات (413/2).

3- الرضا والرحمة واللفظ وما شابه ذلك:

ومن قال بأن الضحك هو الرضا والرحمة والرأفة وما شابه ذلك الإمام ابن عبد البر قال رحمه الله: (وأما قوله: (يضحك الله إليه) أي: يتلقاه الله عز وجل بالرحمة والرضوان والعفو والغفران، ولفظ الضحك ها هنا مجازاً لأن الضحك لا يكون من الله عز وجل على ما هو من البشر لأنه ليس كمثله شيء ولا تشبيهه الأشياء)⁽²⁾.

وكذلك الإمام النووي: (قال العلماء: ضحك الله تعالى منه هو رضا بفعل عبده، ومحبة إياه، وإظهار نعمته عليه وإيجابها عليه، والله أعلم)⁽³⁾.

وقال الإمام الكرمانى: (فإن قلت ما معنى الضحك؟ قلت: أمثال هذه الألفاظ إذا أطلقت على الله يراد لها لوازمها مجازاً، ولازم الضحك الرضا)⁽⁴⁾.

قلت: وقد فسر الضحك بالرضا غالب شراح الحديث الشريف⁽⁵⁾ (6).

4- عدة أقوال: الرضا، وضحك بعض الملائكة، وإجزال العطاء، والتجلى على العبد:

ومن العلماء الذين ذكروا الرضا وذكروا معه عدة احتمالات الإمام ابن حجر قال رحمه الله: (قال - الخطابي - وقد تأول البخاري الضحك في موضع آخر على معنى الرحمة وهو قريب وتأويله على معنى الرضا أقرب؛ فإن الضحك يدل على الرضا والقبول، قال والكرام يوصفون عند ما يسألهم السائل بالبشر وحسن اللقاء فيكون المعنى في قوله (يضحك الله) أي: يجزل العطاء. قال: وقد يكون معنى ذلك أنه يُعجب الله ملائكته ويضحكهم من صنيعهما وهذا يتخرج على الجواز ومثله في الكلام يكثر - ثم ذكر قول ابن الجوزي

¹ أبو بكر ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك (3/ 464).

² ابن عبد البر، الاستدكار، (97/5).

³ الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، (24/3).

⁴ الإمام الكرمانى، الكواكب الدراري، (123/12).

⁵ انظر: البيهقي، الأسماء والصفات، (401/2)، والتوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (3/ 876)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (2/ 586)، والمظاهري، المفاتيح في شرح المصابيح (2/ 275)، وابن الملك، شرح المصابيح (4/ 316)، والطبي، شرح المشكاة (4/ 1206)، والإمام العيني، عمدة القاري (14/ 122)، والإمام السيوطي، شرح صحيح مسلم (4/ 487)، والتوشيح شرح الجامع الصحيح (5/ 1922)، والإمام القسطلاني، إرشاد الساري، (5/ 57)، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (5/ 242) وغيرهم.

⁶ قلت: للإمام مرعي المقدسي هنا كلام نفيس قال رحمه الله: (وقال الإمام فخر الدين: جميع الأعراض النفسانية أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياة والمكر والاستهزاء ونحو ذلك لها أوائل ولها غايات، مثاله الغضب فإن أوله: غليان دم القلب، وغايته: إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب بل على غايته أو غرضه الذي هو إرادة الإضرار وكذلك الحياة له أول وهو إنكسار يحصل في النفس وله غرض وهو ترك الفعل فلفظ الحياة في حقه تعالى يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس انتهى. قلت: - القائل هو الشيخ مرعي - وعلى هذا الضابط فكذلك يقال في الرضا والكرم والحلم والشكر والمحبة ونحو ذلك فإن الظاهر أن هذه كلها في حقنا كصفات نفسانية قيل: والحق أن الكيفيات النفسانية تحتاج إلى تعريف لكونها وجدانيات.

وفي تفسير القرطبي في قوله تعالى {وإن تشكروا يرضه لكم} [الزمر: 7] ويرضى بمعنى يثيب ويثني فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل كقوله {لئن شكرتم لأزيدنكم} [إبراهيم: 7] وإما ثناؤه فهو صفة ذات انتهى. قلت: ومن هذا يعلم جواب سؤال كنت أوردته في مؤلف لطيف سميت: (الأسئلة عن مسائل مشكلة) قلت فيه: ومنها أن أهل السنة جعلوا الصفات القديمة لله سبحانه ثمانية وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام والبقاء وبعضهم يقول والتكوين محتجج في ذلك بالإشتقاق وأنه لا يعقل مفهوم عليهم إلا بعلم وسميع إلا بسمع وهكذا، وحينئذ فيقال: موجه الاقتصار على هذه الصفات الثمان مع أنه تعالى عزيز فمن أوصافه العزة وعظيم فيمن أوصافه العظمة وحليم فمن أوصافه الحلم فهل يصح أن يقال مثلاً حليم بحليم كما يقال عليم بعلم وهكذا في البقية. ولعل الجواب على طريقة الخلف أن هذه الأوصاف كلها كصفات وانفعالات تحدث في النفس والله منزّه عنها فتؤخذ كلها باعتبار الغايات، بخلاف العلم والقدرة والسمع والبصر ونحوهما فإنها من الأوصاف الذاتية لا من الكيفيات النفسانية. وللسلف أن يقولوا إن هذه الأوصاف على ظاهرها وهذا التعليل لا يستلزم أن يكون كذلك في حقه تعالى كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر تستلزم من النقص في حقنا ما يجب تنزيه الله تعالى عنه من جهة أنها أعراض ونحوه فمذهب السلف أسلم لا سيما وقد نقل البخاري وغيره عن الفضيل بن عياض قدس الله روحه أنه قال ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو لأن الله عز وجل وصف نفسه فأبلغ فقال {قل هو الله أحد} السورة فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه فهذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع كما شاء الله أن ينزل وكما شاء أن يباهي وكما شاء أن يضحك وكما شاء أن يطلع فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف فإذا قال الجهمي أنا أكثر برب ينزل عن مكانه فقل أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء انتهى). انظر: مرعي بن يوسف بن أبي بكر المقدسي (المتوفى: 1033هـ)، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ، (ص: 74 - 76).

السابق ثم قال: - قلت: ويدل على أن المراد بالضحك الإقبال بالرضا تعديته بإلى، تقول: ضحك فلان إلى فلان إذا توجه إليه طلق الوجه مظهرًا للرضا عنه⁽¹⁾.

وقال القاضي عياض بعد أن ذكر وجه تأويل الضحك بالرضا: (وقد حملوه أيضًا على التجلي للعبد، وكشف الحجاب عن بصره حتى يراه، والضحك يعبر به عن الظهور)⁽²⁾.

وقال الإمام مرعي المقدسي (1033هـ)⁽³⁾: (وقال بعضهم الضحك استعارة في حق الرب سبحانه لأنه لا يجوز عليه تغير الحالات، والتعجب: انفعال يحدث في النفس عند الشعور بأمر خفي سببه وخرج عن نظائره، ولهذا يقال: إذا ظهر السبب بطل العجب فلا يطلق على الله أنه متعجب لأنه لا يخفى عليه شيء... قالوا: فالعجب من الله تعالى؛ إما على الفرض والتخييل، أو: هو مصروف للمخاطب بمعنى أنه يجب أن يتعجب منه، أو: هو على معنى الاستعظام اللازم له، فإنه: روعة تعترى الإنسان عند استعظامه الشيء، وقال المهدي: يجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولًا على أنه ظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين كما يخبر عنه تعالى بالضحك عمن رضي عنه بمعنى أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم مقام الضحك من المخلوقين مجازًا واتساعًا، وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيمًا)⁽⁴⁾.

الترجيح

بين صفتي العجب والضحك تداخلٌ حتى أن ألفاظ الحديث الواحد جاءت مرة بلفظ: (يضحك) ومرة بلفظ: (يعجب) وكذلك العلماء لما شرحوا الأحاديث الشريفة كان تداخل الصفتين في كلامهم واضح، وأوضح التأويلات أن المراد لازم الضحك والعجب وهو: الرضا، وهو ما عليه الجمهور، والله أعلم.

¹ الإمام ابن حجر، فتح الباري، (40/6).

² انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (558/1).

³ مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ثم المقدسي، أحد أكابر علماء الحنابلة بمصر كان إمامًا محدثًا فقيها ذا اطلاع واسع على نقول الفقه ودقائق الحديث ومعرفة تامة بالعلوم المتداولة، دخل مصر وتوطنها وأخذ بها عن كثير من المشايخ المصريين وأجازة شيخه وتصدر للإقراء والتدريس بجامع الأزهر ثم تولى المشيخة بجامع السلطان حسن، من مؤلفاته: "الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة" و"تنبيه الماهر على غير ما هو المتبادر من الأحاديث الواردة في الصفات"، توفي في مصر (1033هـ). انظر: المحي، خلاصة الأثر (4/358-361)، و الزركلي، الأعلام (7/203).

⁴ انظر: مرعي المقدسي، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص: 73-74).

المبحث الرابع

حديث التردد

(36)[2266]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى قال: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه))⁽¹⁾.

قلت: ملخص الأقوال التي ذكرها الإمام القاري أن التردد هو:

- 1- ترديد الأسباب والوسائط أي: الملائكة أو البلائيا التي تنزل كراهة المؤمن للموت.
- 2- إزالة كراهة الموت عن المؤمن بما يتلوه الله به من المرض والفاقة شيئاً فشيئاً يشبه فعل المتردد.
- 3- المراد غاية التردد وهو: التوقف والتأني في فعل الشيء.

وإليك نص الإمام القاري رحمه الله قال: ("وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن": قال ابن حجر: - الهيتمي - قيل: التردد هو التخيير بين أمرين لا يدرى أيهما أصلح، وهو محال على الله سبحانه، فأولوه على ترديد الأسباب والوسائط، وجعلوا قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع ملك الموت سنداً لقولهم، وقيل: المراد من لفظ التردد إزالة كراهة الموت عن المؤمن. مما يتلوه الله به من المرض والفاقة وغيرها، فأخذ المؤمن عما تشبث به من حب الحياة شيئاً فشيئاً بالأسباب التي ذكرنا يشبه فعل المتردد من حيث الصفة، فعبّر عنه بالتردد. وقال القاضي: التردد تعارض الرأيين وتراصف المخاطر، وهو وإن كان محالاً في حقه تعالى إلا أنه أسند إليه باعتبار غايته ومنتهاه الذي هو التوقف والتأني في الأمر، وكذلك في سائر ما يسند إلى الله تعالى من صفات المخلوقين كالغضب، والحياء⁽²⁾، والمكر⁽³⁾، والمعنى ما أخرت وما توقفت توقف المتردد في أمر أنا فاعله إلا في قبض نفس عبدي المؤمن، أتوقف فيه وأريه ما أعددت له من النعم والكرامات حتى يسهل عليه ويميل قلبه إليه شوقاً إلى أن ينخرط في سلك المقربين، ويتبوأ في أعلى عليين⁽⁴⁾).

أكثر وجوه التأويل اشتهاً قولان:

- 1- ترديد الرسل التي تقبض روح المؤمن.
- 2- دفع المكروهات ومعافاته من الابتلاءات مرات ومرات كمثّل فعل المتردد.

¹ رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (رقم: 6502).

² قال الإمام القاري في شرح حديث: ((إن ريكتم حيي كرم)): (فعل أي: مبالغ في الحياء، وفسر في حق الله بما هو الغرض والغاية، وغرض الحيي من الشيء تركه، والإبقاء منه، لأن الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب ويذم بسببه، وهو محال على الله تعالى، لكن غايته فعل ما يَسُر وترك ما يضر، أو معناه عامل معاملة المستحي). الإمام القاري، مرقة المفاتيح (4/1533).

³ الإمام ابن حجر الهيتمي قال أن ذلك قاعدة في فهم صفات الله التي يستحيل وصف المولى بظواهرها وهي: أن المراد غايات تلك الصفات قال رحمه الله: (والتردد لاستحالة على الله تعالى إذ هو تعارض الرأيين أريد به غايته على القاعدة في صفاته تعالى المحال عليه ظاهراً كالرحمة والغضب والمكر والضحك وهي التوقف على الشيء توقف المتردد)، انظر: ابن حجر الهيتمي، فتح الإله في شرح المشكاة (315/7-316).

⁴ الإمام القاري، مرقة المفاتيح، (4/1545-1546).

وأول من قال بهما الإمام الخطابي رحمه الله قال: (وقوله: ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، فإنه أيضا مثلٌ، والتردد في صفة الله عز وجل غير جائز والبداء عليه في الأمور غير سائغ، وتأويله على وجهين: أحدهما: أن العبد قد يشرف في أيام عمره على المهالك مرات ذوات عدد من داء يصيبه وآفة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منا ويدفع مكروهها عنه، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً، ثم يبدو له في ذلك ويتركه ويعرض عنه، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله، فإنه قد كتب الفناء على خلقه واستأثر بالبقاء لنفسه، وهذا على معنى ما روي أن الدعاء يرد البلاء والله أعلم. وفيه وجه آخر: وهو أن يكون معناه ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله ترددي إياهم في نفس المؤمن، كما روى من قصة موسى وملك الموت صلوات الله عليهما وما كان من لطمه عينة وتردده إليه مرة أخرى وحقيقة المعنى في الوجهين معاً عطف الله على العبد ولطفه به وشفقته عليه والله أعلم⁽¹⁾).

3- قبض روح المؤمن بالتأني والتدريج:

وقد ذكر هذين الوجهين وأضاف لهما ثالثاً الإمام الكرمانى (786هـ) والعزيرى (1070هـ). قال الإمام الكرمانى: (وقيل ههنا وجه ثالث وهو أن يقبض روح المؤمن بالتأني والتدريج بخلاف سائر الأمور فإنها تحصل بمجرد قول كن سريعاً دفعة واحدة)⁽²⁾.

4- إزالة كراهة الموت عن المؤمن تدريجياً:

قال الإمام التوريشي: (فأخذ المؤمن عما تشبث من حب الحياة شيئاً فشيئاً بالأسباب التي أشرنا إليها، يضاهي فعل المتردد من حيث الصيغة، فعبر عنه بالمتردد، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المخبر عن الله تعالى وعن صفاته وأحواله بأمور غير معهودة، لا يكاد يعرفها على ما هي عليه أذن له أن يعبر عنها بألفاظ مستعملة في أمور معهودة، تعريفاً للأمة وتوقيفاً لهم بالحجاز على الحقيقة، وتقريباً لما ينأى عن الإفهام، وتقريباً لما يضيق عن الإفصاح به نطاق الحجاز، وذلك بعد أن عرفهم ما يجوز على الله، وما لا يجوز)⁽³⁾.

5- خطاب لنا بما نعقل لإظهار كرامة المؤمن الولي.

لخص الأقوال كلها الحافظ ابن حجر العسقلاني وزاد هذا الوجه الخامس من التأويل قال رحمه الله: (...وهو: أن يكون هذا خطاباً لنا بما نعقل والرب منزّه عن حقيقته بل هو من جنس قوله: ((ومن أتاني يمشي أتيت هرولة))⁽⁴⁾ فكما أن أحدنا يريد أن يضرب ولده تأديباً فتمنعه المحبة وتبعته الشفقة فيتردد بينهما ولو كان غير الوالد كالمعلم لم يتردد بل كان يبادر إلى ضربه لتأديبه فأريد تفهيمنا تحقيق المحبة للولي بذكر التردد... - ثم ذكر قول الكرمانى الآنف ذكره ثم شرع في شرح المسألة -...)⁽⁵⁾.

وأفضل ما قيل في مسألة كره المؤمن للموت هو ما قاله الإمام ابن هبيرة (560هـ).

قال رحمه الله: (وقوله: ما ترددت عن شيء أنا فاعله ما ترددت عن نفس المؤمن) فإن المعنى فيه على ما أراه: أن المؤمنين لا يكرهون الموت إلا لنقلهم من الخدمة إلى النعمة، فيرون أنهم لم يقضوا نعمهم من عبادة الله ولا من خدمته سبحانه في أرضه، فإذا نقلوا إلى مقر الراحة وموطن الإباحة ومحل النعم، لم يكونوا إلى ذلك مشتاقين ولا عليه متهافتين. فأما من دون هؤلاء في المقام، فإنهم قد يكرهون

¹ الإمام الخطابي، أعلام الحديث (3/ 2260/2259).

² انظر: الإمام الكرمانى، الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري، (23/23). والعلامة العزيرى، السراج المنير شرح الجامع الصغير (1/ 373).

³ التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة، (2/ 525).

⁴ رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه، (رقم: 7536)، ورواه مسلم، كتاب العلم، باب الحث على ذكر الله تعالى، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (رقم: 2675).

⁵ الإمام ابن حجر، فتح الباري، (346/11).

الموت لخوفهم من بعض أعمالهم، ويحبون البقاء لتدارك الفأث وتلافي الفارط. ودون هؤلاء أيضاً: من يكره الموت؛ لأنه لم يقض بعد أشغاله، ولم يفرغ من استعداد جهازه للقاء ربه⁽¹⁾.

الترجيح

الحديث الشريف يتحدث عن العباد المتقربين إلى الله الذين يحبهم الله فنهايته أيضاً مناسبة لإظهار فضيلة المؤمن بهذه العبارات التي تَلَطَّفَ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بإخبارنا بها بألفاظ تناسب مدارك المخاطبين، ولا يناقض هذا القول أن الله تعالى يتلى المؤمن ويعافيه مرات ومرات في حياته ليذهب تعلق قلبه بالدنيا ويزيل كراهة الموت عنه تدريجياً ثم عندما يحين نزح روحه يخرجها برفق تدريجياً فيكون فعله سبحانه في كل ذلك كالمتردد في فعل الشيء وليس هو تردّد حقيقة وإنما هو إظهار لكرامة المؤمن الولي.



¹ ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (7/ 304 305).

المبحث الخامس أحاديث الملال والنسيان

الحديث الأول

(37)[1243]- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(38)[5555]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: فهل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا: لا قال: فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال: فيلقى العبد فيقول: أي فل: ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول بلى قال: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول لا فيقول: فأني قد أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثاني فذكر مثله ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدق وتبني بخير ما استطاع فيقول: ههنا إذا. ثم يقال الآن تبعث شاهداً عليك ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه: انطقي فتتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك يسخط الله عليه))⁽²⁾.

قلت: اتفق العلماء من السلف والخلف عن نفي صفة الملال عن الله سبحانه وتعالى فهو صفة نقص ناشئة عن ضعف وهو محال على الله تعالى وكان توجيههم للحديث من زوايا ثلاث، وهي: (لا يمل الله) و (حتى) و (تملوا).

فكان ملخص أقوالهم في (لا يمل الله):

- 1- لا يترك إعطاء الثواب.
 - 2- لا يترك القبول.
 - 3- لا يقطع الرحمت والبركات.
 - 4- لا يعرض إعراض الملول.
- وهذه الأقوال تفيد أن الفعل جاء والمقصود منه غايته وسببه، وهو من أنواع المجاز.
- 5- أن هذا من ألفاظ التفهيم والتعارف التي لا بد منها ليُفهم المقصود.
 - 6- أن هذا من باب الازدواج والمشكلة.
 - 7- لا يتناهى حقه عليكم حتى يتناهى جهدكم.

وكانت أقوالهم في (حتى):

- 1- أنها بمعنى الواو.
- 2- أو بمعنى حين.

¹ رواه البخاري، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصى ونحوه، (رقم: 5861)، وكتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه، (رقم: 43)، وكتاب التهجد، باب، (رقم: 1151)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، (رقم: 782)، وباب أمر من نعس في صلاته. (رقم: 785).

² رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (رقم: 2968).

وكانت أقوالهم في (تملوا):

1- تفتروا في العبادة وتؤدوها مألين سائمين.

2- تتركوا العمل والعبادة.

3- تتركوا السؤال وهو راجع لما قبله.

وقد اقتصر الإمام القاري على جملة منها تفي بالمقصود.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: (قال ابن الملك: يعني لا تحملوا على أنفسكم أوراذا كثيرة بحيث لا تقدر على مداومتها فتتركونها، "فإن الله لا يمل": قال ابن الملك: معنى الملل من الله ترك إعطاء الثواب، "حتى تملوا" أي: تتركوا عبادته⁽¹⁾). وقال بعضهم: معناه فإن الله لا يعرض عنكم إعراض الملل عن الشيء، ولا يقطع عنكم الثواب والرحمة ما بقي لكم نشاط الطاعة. وقيل: لا يترك فضله عنكم حتى تتركوا سؤاله، وذكر بهذه العبارة للزواج مثل: {نسوا الله فأنسيهم} [التوبة: 67]، وإلا فالملل وهو فتور يعرض للنفس من كثرة مزاوله شيء فيوجب الكلال في الفعل والإعراض عنه مستحيل عن الله تعالى⁽²⁾.

لقد قال بمثل ذلك جمهور الأئمة الشراح إن لم يكن كلهم على الإطلاق⁽³⁾. لكن بعض المنتسبين لطلب العلم الشرعي قال: (إن الله ملالا يليق به) ولم يدر القائل أن الملل صفة نقص وأن كلامه هذا بمثابة قول القائل: (إن الله نقصاً يليق به لا نعرف كيفيته، ونقصه هذا منزه عن النقص)!! وهذا تناقض عجيب ظهور بطلانه يغي عن الرد عليه. ولنتقل لأقوال العلماء الربانيين الذين نصَّروهم الله بالاشتغال بحديث رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم.

بعض نصوص العلماء

قال الإمام أبو بكر ابن العربي (543هـ) أنه عبارة عن الترك لأن فائدة الملل الترك وهو من أقسام المجاز⁽⁴⁾. وقال الإمام التوريشي (661هـ): (قلت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب بهذا القول وأشباهه أقواماً يعرفون صرف الكلام وفصل الخطاب ويفهمون مواقعته من اللهجة العربية، بعد أن شملتهم بركة الصحبة فألهموا الصواب، وقد علموا أن الله تعالى منزه عن النقائص والعوارض والحوادث، فلا يعتريه الملل ولا تعتوره الأحوال، وقد سلك سبيلهم العلماء الراسخون وبينوا للناس ما أشكل عليهم من ذلك، وقد تكلم جمع منهم في معنى هذا الحديث واستخرجوه على وجوه قابلة للاحتمال، ووقع الاختيار منها على وجهين فيما نرى؛

¹ ابن الملك، شرح المصاييح، (171/2).

² الإمام القاري، مرآة المفاتيح، (933/3).

³ انظر: الإمام الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (المتوفى: 388هـ)، معالم السنن، (شرح سنن أبي داود). المطبعة العلمية - حلب، الطبعة: الأولى 1351 هـ (1/280)، وابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 272)، وابن عبد البر، التمهيد (1/194-195)، والمازري، المعلم بفوائد مسلم (1/458)، والقاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (3/147)، وابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار (4/42)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (4/277)، والنووي، شرح صحيح مسلم (6/71)، والمظهر، المفاتيح في شرح المصاييح (2/278)، والطبي، شرح المشكاة (4/1212)، وابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد (المتوفى: 795هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محمود بن شعبان وآخرون، مكتبة الغرياء الأثرية - المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، 1417 هـ (1/166-167)، وابن الدماميني، مصاييح الجامع (1/138-139)، والعيني، عمدة القاري (11/85)، والكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (4/309)، والسيوطي، شرح صحيح مسلم (2/386)، والسيوطي، حاشية السيوطي على سنن النسائي. مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406 هـ (2/64) و السيوطي، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك. المكتبة التجارية الكبرى - مصر، د. ت. 1389 (1/107)، والقسطلاني، إرشاد الساري (8/450)، والمنائي، فيض القدير (2/97) و (3/160)، والتيسير بشرح الجامع الصغير (1/205)، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (3/79)، والشوكاني، محمد بن علي (المتوفى: 1250هـ)، نيل الأوطار. تحقيق: عصام الدين الصباطي، دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، 1413 هـ (3/232)، ومحمود السبكي، المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود (7/302).

⁴ الإمام أبو بكر بن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك، (2/488).

أحدهما: أن الله لا يمل أبداً وإن مللتم، وذلك نظير قولهم: فلان لا ينقطع حتى ينقطع خصمه، أي: لا ينقطع بعد انقطاع خصمه بل يكون على ما كان عليه قبل ذلك؛ لأنه لو انقطع على عقب من انقطاع خصمه لم يظهر له بهذا القول مزية ولم يثبت فضيلة، وعلى هذا المعنى قول الشنفرى: صليت مني هذيل بحرق لا يمل الشر حتى يملوا

والوجه الآخر: - هو أجودهما- أن نقول: ذكر الملال فيما أسند إلى الله تعالى على طريق الازدواج، والعرب تفعل ذلك في معارضة الفعل بالفعل فتذكر إحدى اللفظتين موافقة للأخرى وإن خالفتها في المعنى، وله في التنزيل نظائر منها قوله تعالى: {يخادعون الله وهو خادعهم} [النساء: 142] وقوله: {فيستخرون منهم سخر الله منهم} [التوبة: 9] وقوله: {وجزاء سيئة سيئة مثلها} [الشورى: 40] وقوله: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} [البقرة: 194] وقوله: {نسوا الله فانسىهم} [التوبة: 67]... ومعنى الحديث: لا يعرض الله عن العبد إعراض الملل عن الشيء حتى يمل هو عن القيام بطاعة الله، ويمتنع بالإعراض عن خدمته⁽¹⁾.

وقال الإمام البيضاوي: ("الملال": فتور يعرض للنفس من كثرة مزاوله شيء، فيوجب الكلال في الفعل والإعراض عنه، وهو و أمثال ذلك على الحقيقة إنما يصدق في حق من يعتريه التغير والانكسار ، فأما من تنزه عن ذلك فيستحيل تصور هذا المعنى في حقه، بل إذا أسند إليه شيء من ذلك يجب أن يؤول ، فيحمل على ما هو منتهاه وغاية معناه ، كإسناد الرحمة والغضب والحياة إلى الله تعالى. فمعنى الحديث والله أعلم ... - ثم ذكر مثل قول التوريشتي-)⁽²⁾.

وقال الإمام الكرمانى: (اعلم أن الملال لا يجوز على الله ولا يدخل تحت صفاته فلا بد من تأويل، واختلف العلماء فيه ... وقال ابن قتيبة: معناه أنه لا يمل إذا مللتم قال ومثله قوله: ما في البليغ فلان لا ينقطع حتى ينقطع خصومه معناه لا ينقطع إذا انقطعت خصومه ولو كان معناه ينقطع إذا انقطعت خصومه لم يكن له فضل على غيره. وقال بعضهم: معناه أن الله تعالى لا يتناهى حقه عليكم في الطاعة حتى يتناهى جهدكم قبل ذلك فلا تتكلفوا ما لا تطيقون من العمل كني بالملال عنه لأن من تناهت قوته في أمر وعجز عن فعله مله وتركه. التيمي: قالوا معناه أن الله تعالى لا يمل أبداً مللتم أنتم أم لم تملوا نحو قولهم لا أكلمك حتى يشيب الغراب ولا يصح التشبيه لأن شيب الغراب ليس ممكناً عادة بخلاف ملال العباد. وأقول: إنه صحيح لأن المؤمن أيضاً شأنه أن لا يمل من الطاعة وهو قول ابن فورك، وقال ابن الأنباري (328هـ): سمي فعل الله تعالى ملالاً على جهة المزاحمة كقوله تعالى: {وجزاء سيئة سيئة مثلها} [الشورى: 40]. وأقول: فلقوله: (لا يمل حتى تملوا) خمسة تواجيه، والتأويل إما في يمل وهو ثلاثة أوجه، وإما في حتى، وإما في تملوا والله أعلم⁽³⁾). وقد أوضح ابن الملقن رحمه الله أن الملال ليس صفة لله حتى نقول "ملال يليق به" كما يقول الظالمون المشبهون، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقال: ("إن الله لا يمل حتى تملوا" يعني: أنه لا يقطع المجازاة على العبادة حتى تقطعوا العمل، فأخرج لفظ المجازاة بلفظ الفعل؛ لأن الملل غير جائز على الرب جل جلاله، ولا من صفاته⁽⁴⁾).

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله الاتفاق على نفي الملال عن الله تعالى وكان بيانه للحديث من أشمل ما يمكن أن يقال في شرح هذا الحديث فقال: (قوله: (لا يمل الله حتى تملوا) هو بفتح الميم في الموضعين والملال: استئثار الشيء ونفور النفس عنه بعد محبته وهو محال على الله تعالى باتفاق... وقال الهروي: معناه لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا سؤاله فترههوا في الرغبة إليه... وقال المازري: قيل: إن حتى هنا بمعنى الواو فيكون التقدير لا يمل وتملون، فنفي عنه الملل وأثبتته لهم، قال: وقيل: "حتى" بمعنى: "حين" والأول أليق وأجرى على القواعد وأنه من باب المقابلة اللفظية، ويؤيد ما وقع في بعض طرق حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: ((أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل))⁽⁵⁾ لكن في سند موسى بن عبيدة وهو ضعيف وقال ابن حبان في

¹ التوريشتي، الميسر في شرح مصابيح السنة، (1/315).

² الإمام البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (367/1)، وانظر: الإمام العيني، عمدة القاري (28/22) والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، (4/465).

³ الإمام الكرمانى، الكواكب الدراري، (1/172-173).

⁴ ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (9/60).

⁵ أخرجه الطبري، محمد بن جرير (المشوق: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري). تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، سورة المزمل، (23/678). وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني عنه في الفتح: (وفي بعض طرقه ما يدل على أن ذلك مدرج من قول بعض رواة الحديث والله أعلم). انظر: ابن حجر، فتح الباري، (3/37).

صحيحه: هذا من ألفاظ التعارف التي لا يتهيأ للمخاطب أن يعرف القصد مما يخاطب به إلا بها وهذا رأيه في جميع المتشابه⁽¹⁾.

وأما الحديث الثاني: (فإني قد أنساك كما نسيته) فقال فيه الإمام القاري: ("فيقول: إني قد أنساك" أي: اليوم أتركك من رحمتي "كما نسيته" أي: في الدنيا من طاعتي. قال الطيبي رحمه الله: هو مسبب عن قوله: أظننت أنك ملاقي، يعني سودتك وزوجتك، وفعلت بك من الإكرام حتى تشكرني وتلقاني لأزيد في الإنعام، وأجازيك عليه، فلما نسيته في الشكر نسيناك وتركنا جزاءك، وعليه قوله تعالى: {كذلك أتتك آياتنا فنسيته وكذلك اليوم تنسى} [طه: 126] ونسبة النسيان إلى الله تعالى إما مشاكلة أو مجاز عن الترك⁽²⁾.

وقد أول العلماء النسيان هنا: أنه على المشاكلة، أو: أن المقصود ترك الجزاء ومنع الرحمة والفضل. قال ابن قرقول (569هـ): (وقوله: "اليوم أنساك كما نسيته" على طريق المقابلة في الكلام، أي: أجازيك على نسيانك كما قال: {نسوا الله فنسيهم} [التوبة: 67] أي: عاقبهم عقاباً صورته صورة المنسي بتركهم، ومنعهم الرحمة حيث نجا غيرهم وفاز)⁽³⁾. وقال القاضي عياض: (وقوله: "أنساك كما نسيته" مثل قوله تعالى: {نسوا الله فنسيهم} [التوبة: 67] من جنانة اللفظ، مجازة على فعلهم، أي: جازاهم على نسيانهم. والنسيان هو: امتناع من فعل ما نسي. وهو من الله بمنعهم الرحمة والفضل الكبير)⁽⁴⁾. وقال الإمام النووي: (قوله تعالى: "فإني أنساك كما نسيته" أي: أمتنعك الرحمة كما امتنعت من طاعتي)⁽⁵⁾.

الترجيح

النسيان وكذلك الملال: استعملت هذه الألفاظ في الأحاديث الشريفة من باب المشاكلة، أو مجازاً عن الترك، كما قال تعالى: {نسوا الله فنسيهم} وهي من ألفاظ التعريف التي تقرب المقصود إلى الفهم أقوى وأوضح من أي أسلوب آخر، وحاشا لله أن يكون ممن ينسى وقد قال تعالى في محكم تنزيله: {وما كان ربك نسياً} [مریم: 64]، وحاشا لله أن يثقل على نفسه تعالى شيء فيمليه، أو أن يتصف بشيء من ذلك سبحانه وتعالى، ومن الأدلة على امتناع نسبة الملال والنسيان لله تعالى أنه لم يقل أحد من الأئمة في هذين الحديثين أنَّ فيهما التفويضَ والتسليمَ، مع أنهم يقولون ذلك كأحد أنواع التعامل مع أحاديث الصفات عامة، بل نُقلَ اتفاقهم على منع اتصافه سبحانه بها. ومن جملة الأدلة أيضاً: أن الله سبحانه له أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء صفاته منها ما هو بسبب أفعاله سبحانه فمن صفة الرِّزْق نأخذ اسمَ (الرزاق) سبحانه، ومن صفة الرحمة نأخذ اسمَ (الرحيم)، وهكذا، فهل يجوز لنا أن نقول: من أسماء الله تعالى الملول أو الناسي؟! حاشا لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

¹ الإمام ابن حجر، فتح الباري، (102/1). ونقله عنه الزرقاني في شرحه على الموطأ (427/1-428).

² الإمام القاري، مرآة المفاتيح (8/3529)، وانظر: الإمام الطيبي، شرح المشكاة (11/3509).

³ ابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار (4/215).

⁴ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/521).

⁵ الإمام النووي، شرح صحيح مسلم (18/104).

المبحث السادس

أحاديث النزول

الحديث الأول

(39)[1223]- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)) وفي رواية لمسلم: ((ثم ييسط يديه تبارك وتعالى، يقول: من يقرض غير عدوم، ولا ظلوم))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(40)[1299]- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فإذا هو بالبقيع، فقال: أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟، قلت: يا رسول الله! إني ظننت أنك أتيت بعض نساءك. فقال: إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(41)[1308]- عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلها، وصوموا يومها، فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا، فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له؟ ألا مسترزق فأرزقه؟ ألا مبتلى فأعافيه؟ ألا كذا ألا كذا؟ حتى يطلع الفجر))⁽³⁾.

الحديث الرابع

(42)[2601]- عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إذا كان يوم عرفة، إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شعثا غبرا ضاحكين من كل فج عميق، أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فيقول الملائكة: يا رب! فلان كان يرهق، وفلان، وفلانة، قال: يقول الله عز وجل: قد غفرت لهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فما من يوم أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة))⁽⁴⁾.

قلت: لقد أول جمع من السلف والخلف النزول في هذا الحديث بعدة تأويلات:

أ- التسليم مع نفي التشبيه.

ب- التأويل مع التنزيه وذلك على عدة وجوه منها:

1- "ينزل ربنا" أي: أمره لبعض ملائكته

2- تنزل رحماته.

3- ينزل مناديه أو ملائكته.

4- أنها على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعي بالإجابة واللفظ.

¹ رواد البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، (رقم: 1145)، وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، (رقم: 7494)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، (رقم: 758).

² رواد الترمذي، أبواب الصوم، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (رقم: 739) وقال الترمذي: حديث عائشة، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمداً يضعف هذا الحديث. ورواه ابن ماجه، أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (رقم: 1389).

³ رواد ابن ماجه، أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (رقم: 1388). وإسناده تالف فيه ابن أبي سيرة روي بالوضع.

⁴ رواد ابن حبان، باب الوقوف في عرفة والمزدلفة والدفع منهما، ذكر رجاء العتق من النار لمن شهد عرفات يوم عرفة (رقم: 3853).

- 5- المراد الانتقال من مقتضى صفات الجلال إلى مقتضى صفات الجمال.
- 6- المراد بالنزول هو التجلي.
- 7- التجلي الصوري.
- 8- فعل يفعله الله في السماء كالفتح لأبوابها لقبول الدعاء ونزول الرحمات الخاصة.
- 9- النزول هو القول. كقوله تعالى: {سأنزل مثل ما أنزل الله} [الأنعام: 93]. - وهو ضعيف هنا -.
- 10- الإقبال على النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون النزول إظهار ذلك القبول أو تبليغه.

وقد نقل الإمام القاري في هذه المسألة بعد الحديث الأول أكثر من صفحتين بحرفهما من كلام الإمام ابن حجر الهيتمي رحمهما الله وحق له ذلك فكلامه شاف كاف واف بالمقصود.

تأويل الإمام القاري النزول بنزول الأمر أو نزول الملائكة:

((ينزل ربنا، أي: أمره لبعض ملائكته أو ينزل مناديه، "تبارك": كثر خيرته ورحمته وآثار جماله "وتعالى": عن صفات المخلوقين من الطلوع والنزول، وارتفع عن سمات الحدوث بكبريائه وعظمته وجلاله، قيل: إنهما جملتان معترضتان بين الفعل وظرفه للتنبيه على التنزيه، لئلا يتوهم أن المراد بالإسناد ما هو حقيقته، "كل ليلة إلى السماء الدنيا": قال ابن حجر، أي: ينزل أمره ورحمته، أو: ملائكته، وهذا تأويل الإمام مالك وغيره ويدل له الحديث الصحيح: ((إن الله عز وجل يمهّل حتى يمضي شطر الليل، ثم يأمر منادياً ينادي فيقول: هل من داع فيستجاب له))⁽¹⁾ الحديث، والتأويل الثاني: ونسب إلى مالك أيضاً، أنه على سبيل الاستعارة، ومعناه: الإقبال على الداعي بالإجابة واللفظ والرحمة وقبول المعذرة، كما هو عادة الكرماء، لا سيما الملوك إذا نزلوا بقرب محتاجين ملهوفين مستضعفين.

نقل الإمام القاري التسليم وتأنيده مذهب التأويل:

قال النووي في شرح مسلم: في هذا الحديث وشبهه من أحاديث الصفات وآياتها مذهبان مشهوران. فمذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين: الإيمان بحقيقتها على ما يليق به تعالى، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا نتكلم في تأويلها مع اعتقادنا تنزيه الله سبحانه عن سائر سمات الحدوث. والثاني: مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف، وهو محكي عن مالك والأوزاعي إنما تتأول على ما يليق بما بحسب بواطنها، فعليه: الخبر مؤول بتأويلين، أي: المذكورين، وبكلامه وبكلام الشيخ الرباني أبي إسحاق الشيرازي، وإمام الحرمين، والغزالي وغيرهم من أئمتنا وغيرهم يعلم أن المذهبين متفقان على صرف تلك الظواهر، كالجيء، والصورة، والشخص، والرجل، والقدم، واليد، والوجه، والغضب، والرحمة، والاستواء على العرش، والكون في السماء، وغير ذلك مما يفهم ظاهرها لما يلزم عليه من محالات قطعية البطلان تستلزم أشياء يحكم بكفرها بالإجماع، فاضطر ذلك جميع الخلف والسلف إلى صرف اللفظ عن ظاهره، وإنما اختلفوا هل نصرفه عن ظاهره معتقدين اتصافه سبحانه بما يليق بجلاله وعظمته من غير أن نقوله بشيء آخر، وهو مذهب أكثر أهل السلف، وفيه تأويل إجمالي، أو: مع تأويله بشيء آخر، وهو مذهب أكثر أهل الخلف وهو تأويل تفصيلي.

¹ رواه النسائي، السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (رقم: 10243). ولفظه: ((إن الله عز وجل يمهّل حتى يمضي شطر الليل الأول، ثم يأمر منادياً ينادي فيقول: هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، هل من سائل يعطى)).

سبب التأويل التفصيلي عند الخلف - وتأويل بعض السلف -:

ولم يريدوا بذلك مخالفة السلف الصالح، معاذ الله أن يظن بهم ذلك، وإنما دعت الضرورة في أزمئتهم لذلك؛ لكثرة المحسمة والجهمية وغيرها من فرق الضلالة، واستيلائهم على عقول العامة، فقصودوا بذلك ردعهم وبطلان قولهم، ومن ثم اعتذر كثير منهم وقالوا: لو كنا على ما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقائد وعدم المبطلين في زمنهم لم نخض في تأويل شيء من ذلك، وقد علمت أن مالكا والأوزاعي، وهما من كبار السلف أولا الحديث تأويلاً تفصيلياً، وكذلك سفيان الثوري أول الاستواء على العرش بقصد أمره، ونظيره: {ثم استوى إلى السماء} [البقرة: 29]، أي: قصد إليها، ومنهم الإمام جعفر الصادق، بل قال جمع منهم ومن الخلف: إن معتقد الجهة كافر، كما صرح به العراقي، وقال: إنه قول لأبي حنيفة ومالك والشافعي والأشعري والباقلاني. وقد اتفق سائر الفرق على تأويل نحو: {وهو معكم أين ما كنتم} [الحديد: 4]، {ما يكون من نحوى ثلاثة إلا هو رابعهم} [المجادلة: 7] الآية، {فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: 115] و {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} [ق: 16]، و ((قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)) ((والحجر الأسود يمين الله في الأرض)) وهذا الاتفاق يبين لك صحة ما اختاره المحققون أن الوقف على الراسخين في العلم لا الجلالة¹.

لكن الإمام القاري خالف ابن حجر الهيتمي في مسألة الوقف في الآية فرجح الوقف على لفظ الجلالة بخلاف ابن حجر الهيتمي ثم تابع في النقل عنه فقال: (قلت: الجمهور على أن الوقف على (إلا الله) وبعضهم أوقفه وفقاً لازماً، وهو الظاهر؛ لأن المراد بالتأويل معناه الذي أراده تعالى وهو في الحقيقة لا يعلمه إلا الله جل جلاله ولا إله غيره، وكل من تكلم فيه تكلم بحسب ما ظهر له، ولم يقدر أحد أن يقول: إن هذا التأويل هو مراد الله جزمًا، ففي التحقيق الخلاف لفظي، ولهذا اختار كثيرون من محققي المتأخرين عدم تعيين التأويل في شيء معين من الأشياء التي تليق باللفظ، ويكفلون تعيين المراد بما إلى علمه تعالى، وهذا توسط بين المذهبين وتلذذ بين المشريين، واختار ابن دقيق العيد توسطًا آخر، فقال: إن كان التأويل من المجاز البين الشائع، فالحق سلوكه من غير توقف، أو من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه، وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدمه مسألة فقهية اجتهادية، والأمر فيها ليس بالخطر بالنسبة للفريقين)².

قلت: - القائل هو الإمام القاري - التوقف فيها لعدم ترجيح أحد الجانبين، مع أن التوقف مؤيد بقول السلف، ومنهم الإمام الأعظم، والله أعلم.

تعداد الإمام القاري وجوهاً من التأويلات:

(وقال القاضي: المراد بنزوله: دنو رحمته ومزيد لطفه على العباد، وإجابة دعوتهم، وقبول معذرتهم، كما هو ديدن الملوك الكرماء والسادة الرحماء إذا نزلوا بقرب قوم ملهوفين محتاجين مستضعفين، وقد روي: ((يهبط من السماء العليا إلى السماء الدنيا))³، أي: ينتقل من مقتضى صفات الجلال التي تقتضي الأنفة من الأزدال، وعدم المبالاة، وقهر العداة، والانتقام من العصاة إلى مقتضى صفات الجمال المقتضية للرفقة والرحمة وقبول المعذرة والتلطف بالمحتاج، واستقراض الحوائج، والمساهلة، والتخفيف في الأوامر والنواهي، والإغضاء عما يبدو من المعاصي، ولهذا قيل: هذا تجل صوري لا

¹ ابن حجر الهيتمي، فتح الإله في شرح المشكاة، (64/5-66).

² المصدر السابق.

³ رواه الطبراني، المعجم الكبير، مسند من يعرف بالكفى، من يكنى أبا الخطاب (رقم: 927).

نزول حقيقي، فارتفع الإشكال، والله أعلم بالحال. ("حين يبقى ثلث الليل"): بضم لام ثلث وسكونه ("الآخر"): بالرفع صفة ثلث.

قال ابن الملك: قيل هذا الحديث متشابه، وقيل: معناه فينتقل كل ليلة من صفات الجلال إلى صفات الرحمة والجمال، قلت: التعبير بالانتقال لا يرتضيه أهل الكمال لتوهم النقص والزوال، وكأنه أراد به الظهور والتجلي بصفة الجمال).

سبب تخصيص الثلث الآخر - وترجيح تأويل النزول بالتجلي -:

(قال في النهاية: تخصيص الثلث الآخر؛ لأنه وقت التهجد، وغفلة الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله تعالى، وعند ذلك تكون النية خالصة والرغبة وافرة، وقال ابن الملك: وقيل: المراد نزول الرحمة الرحمانية، والألطاف السبحانية، وقربه من العباد بمقتضى الصفة الربوبية، أو نزول ملك من خواص ملائكته، فينقل حكاية كلام الرب في ذلك الوقت بالله تعالى).

ثم عاد إلى كلام الإمام ابن حجر الهيتمي فقال: (وهذه الرواية لا تنافي ما ورد: حتى يمضي ثلث الليل الأول، وفي رواية: ((إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه))⁽¹⁾؛ لأنه يحتمل أن يكون النزول في بعض الليالي هكذا، وفي بعضها هكذا - كذا قاله ابن حبان - وقال ابن حجر: ويحتمل أن يتكرر النزول عند الثلث الأول والنصف والثلث الآخر، واختص بزيادة الفضل لحثه على الاستغفار بالأسحار، ولاتفاق الصحيحين على روايته)⁽²⁾. اهـ.

ثم أبدى رأيه ساجعاً كعادته فقال: (والأظهر أن هذا نزول تجلٍّ فلا يختص بزمان دون زمان، وإنما ذكر هذه الأوقات بحسب أزمنة القائمين عن نوم الغفلة، ومجمله: أن مطلق الليل محل التنزل الإلهي من مقام الجلال إلى مرتبة الجمال، داعياً عباده الذين هم أرباب الكمال إلى منصة الوصال حال غفلة عامة الخلق عن تلك الحال...

(³) (وفي رواية لمسلم: "ثم ييسط يديه")، أي: لطفه ورحمته، قاله ابن الملك، أي: عن مظهريهما، ويحتمل أن يكون بالتجلي الصوري لتنزه ذاته عن الجارحة والنزول الحسي. (يقول): وفي نسخة: (ويقول): أي بذاته أو على لسان ملك من خواص ملائكته...)⁽⁴⁾.

وقد أول الإمام القاري النزول بالتجلي مقتصرًا عليه بعد هذا الحديث بصفحات من المرقاة فقال: (أقرب، أي: أقربيته تعالى من عباده كائنة في الليل؛ لأنه محل التجلي المعبر عنه بالنزول)⁽⁵⁾.

¹ رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، (رقم: 758).

² ابن حجر الهيتمي، فتح الإله في شرح المشكاة، (66-64/5).

³ قال الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله: (قوله حين يبقى ثلث الليل الآخر برفع الآخر لأنه صفة الثلث ولم تختلف الروايات عن الزهري في تعيين الوقت واختلفت الروايات عن أبي هريرة وغيره قال الترمذي رواية أبي هريرة أصح الروايات في ذلك ويقوي ذلك أن الروايات المخالفة اختلف فيها على رواها وسلك بعضهم طريق الجمع وذلك أن الروايات انحصرت في ستة أشياء أولها هذه ثانيها إذا مضى الثلث الأول ثالثها الثلث الأول أو النصف رابعها النصف خامسها النصف أو الثلث الأخير سادسها الإطلاق فأما الروايات المطلقة فهي محمولة على المقيدة وأما التي بأو فإن كانت أو للشك فالجزم به مقدم على المشكوك فيه وإن كانت للتردد بين حالين فيجمع بذلك بين الروايات بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال لكون أوقات الليل تختلف في الزمان وفي الآفاق باختلاف تقدم دخول الليل عند قوم وتأخره عند قوم وقال بعضهم يحتمل أن يكون النزول يقع في الثلث الأول والقول يقع في النصف وفي الثلث الثاني وقيل يحمل على أن ذلك يقع في جميع الأوقات التي وردت بها الأخبار ويحمل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بأحد الأمور في وقت فأخبر به ثم أعلم به في وقت آخر فأخبر به فنقل الصحابة ذلك عنه والله أعلم) انظر: ابن حجر، فتح الباري، (31/3).

⁴ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (925-923/3).

⁵ المصدر السابق، (928/3).

تأويل الإمام القاري النزول بالتجلي بالرحمات في حديثي النزول ليلة النصف من شعبان:

قال الإمام القاري بعد الحديث الثاني: (إن الله تعالى ينزل)، أي: من الصفات الجلالية إلى النعوت الجمالية زيادة ظهور في هذا التجلي ... (إلى السماء الدنيا)، أي: قاصداً إلى السماء القريبة من أهل الدنيا المتلونين بالمعصية، المحتاجين إلى إنزال الرحمة عليهم وأذبال المغفرة، وظاهر الحديث أن هذا النزول المكثى به عن التجلي الأعظم ونزول الرحمة الكبرى والمغفرة العامة للعالمين⁽¹⁾.

وقال بعد الحديث الثالث: ("فإن الله تعالى ينزل"، أي: يتجلى بصفة الرحمة تجلياً عاماً لا يختص بأرباب الخصوص، ولا بوقت دون وقت "فيه"، أي: في تلك الليلة "لغروب الشمس"، أي: أول وقت غروبها "إلى السماء الدنيا": متعلق بينزل بتضمين نظر، نظر العناية إلى جهة السماء الدنيا التي هي مشتملة على أبواب فتوحات أرباب الدنيا، وقبلة دعائهم، ومصعد أعمالهم، ومرتقى أرواحهم⁽²⁾).

تأويل الإمام القاري النزول بالتجلي وبنزول الأمر في حديث النزول ليلة عرفة:

قال بعد الحديث الرابع: ("إذا كان يوم عرفة إن الله ينزل"، أي أمره، أو يتجلى بإنزال الرحمة العامة (إلى السماء الدنيا): ولعل وجه التخصيص زيادة اطلاع أهلها بأهل الدنيا⁽³⁾).

بعض أقوال من فوض من العلماء

ذكر الإمام الخطابي مذهب السلف في هذه المسألة وأنه التسليم والإيمان دون أن يتأولوا لها المعاني لعلمهم بقصور علمهم عن إدراكها وأنه من المتشابه الذي حظ الراسخين منه أن يقولوا آمنا به كل من عند ربنا ثم قال: وقد زل بعض شيوخ أهل الحديث ممن يرجع إلى معرفته بالحديث والرجال فحاد عن هذه الطريقة حين روى حديث النزول ثم أقبل يسأل نفسه عليه فقال: إن قال قائل كيف ينزل ربنا إلى السماء؟ قيل له: ينزل كيف شاء، فإن قال: هل يتحرك إذا نزل أم لا؟ فقال: إن شاء تحرك وإن شاء لم يتحرك. قلت: وهذا خطأ فاحش، والله سبحانه لا يوصف بالحركة لأن الحركة والسكون يتعاقبان في محل واحد، وإنما يجوز أن يوصف بالحركة من يجوز أن يوصف بالسكون، وكلاهما من أعراض الحدث، وأوصاف المخلوقين، والله جل وعز متعال عنهما ليس كمثله شيء⁽⁴⁾.

وأُسند الإمام البيهقي إلى إسحاق بن راهويه قال: "دخلت يوماً على عبد الله بن طاهر فقال لي: يا أبا يعقوب، تقول إن الله ينزل كل ليلة؟ فقلت له: ويقدر. فسكت عبد الله. قال أبو العباس: أخبرني الثقة من أصحابنا قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: دخلت على عبد الله بن طاهر فقال لي: يا أبا يعقوب، تقول إن الله ينزل كل ليلة؟ فقلت: أيها الأمير إن الله تعالى بعث إلينا نبياً، نُقل إلينا عنه أخبار بما نخلل الدماء، وبما نخرم، وبما نخلل الفروج، وبما نخرم، وبما نبيح الأموال وبما نخرم، فإن صح ذا صح ذاك، وإن بطل ذا بطل ذاك. قال: فأمسك عبد الله.

وأُسند الإمام البيهقي إلى الإمام الأوزاعي، عن الزهري، ومكحول، قالوا: أمضوا الأحاديث على ما جاءت.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/ 969).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/ 976).

³ المصدر السابق (5/ 1804).

⁴ الإمام الخطابي، معالم السنن، (4/ 331-332)، وانظر: أعلام الحديث، (1/ 637).

وأُسند كذلك إلى الوليد بن مسلم، قال: سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في التشبيه فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيفية⁽¹⁾.

وذكر مذهب التفويض مع التنزيه الإمام ابن هبيرة ثم توجه إلى فحوى هذه الألفاظ فقال: (وإنما جاءت هذه الأحاديث لفوائد؛ فإن الإنسان إذا سمع هذا الحديث أن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وأنه ييسط يديه، ويدعو عباده إلى سؤاله واستغفاره لم يطمئن المؤمن مضجعه، والألفاظ التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متناهية في بيان اللطف، متجاوزة في الرفق حد قدر الآدميين، وذلك يحث العباد على العبادة الراغبين في السؤال)⁽²⁾.

وقال الإمام العيني: (وفي رواية الأكثرين: "ينزل" من باب التفعّل، وهذا من باب المتشابهات، والأمر فيها قد علم أنه إما: التفويض، وإما: التأويل بنزول ملك الرحمة، ومن القائلين في إثبات هذا وإنه لا يقبل التأويل؛ أبو إسماعيل الهروي، وأورد هذا الحديث من طرق كثيرة في كتابه الفاروق ... - فأوردّها ثم قال: - قال بعضهم: هذه الطرق كلها ضعيفة. قلت: ألم يعلم هو أن الحديث إذا روي من طرق كثيرة ضعيفة تشتد فيشدد بعضها بعضاً؟ وليس في هذا الباب وأمثاله إلا التسليم والتفويض إلى ما أراد الله من ذلك، فإن الأخذ بظاهره يؤدي إلى التجسيم، وتأويله يؤدي إلى التعطيل، والسلامة في السكوت والتفويض)⁽³⁾.

وقال الإمام السندي⁽⁴⁾: (قوله: (ينزل ربنا) حقيقة النزول تفوض إلى علم الله تعالى، نعم؛ القدر المقصود بالفهم يعرفه كل واحد، وهو: أن ذلك الوقت قرب الرحمة إلى العباد فلا ينبغي لهم إضاعته بالغفلة)⁽⁵⁾.

أقوال بعض من ذهب إلى أن ذلك فعل يفعل الله

قال الإمام أبو بكر ابن العربي: (تتميم: ورد فيما قدمناه من الأحاديث ألفاظ من المشكل ... قوله: ينزل ربنا: هذا الحديث أمّ في الأحاديث المتشابهة، وقد ذهب كثير من العلماء، وخاصة من السلف، إلى أن يؤمن بها ولا يخوض في تأويلها؛ ... قال لي شيخ العلماء: لا يمكن لأحد أن يعبر عن جلال الله تعالى وكماله إلا بهذه الألفاظ الناقصة التي يعبر بها عنا، فإذا سمعت العبارة عن الله تعالى فيجب عليك الإيمان بمعناها، ثم تعلم أنه ليس له مثل في ذلك لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء} وهو كلام بديع، وليسغة اللغة في العبارة بالحقيقة والمجاز والحذف والزيادة والتطويل والاختصار يتمكن العالم بالله تعالى من العبارة عنه والتنزيه به والعلم به عندنا إلى قوله: "ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا" ... ومن أقسام المجاز التعبير عن الشيء بفائدته وثمرته، ويكون ذلك عبارة: عن كثرة ما يفيض من الرحمة وينشر على الخلق منها ويوسعهم من عطائه على جميع المعاني من إجابة دعوة، وقضاء حاجة، ونيل مغفرة مما كان قبل ذلك ممتنعاً عليهم كاستئذان ما يكون في العلو من فوقهم، وإلى هذا أشار الأوزاعي بقوله: (يفعل الله ما يشاء)، فجعله من صفات الفعل لا من صفات الذات وهذا فصل بالغ فاتخذوه دستوراً وشرعوه في سائر المشكلات سبيلاً)⁽⁶⁾.

اختلف الناس في هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث المشكلات والآيات المتشابهات: فمنهم: من رد هذا الخبر؛ لأنه خبر آحاد، ورد بما لا يجوز ظاهره على الله تعالى، وهم المبتدعة. ومنهم: من قبله وأمره كما جاء ولم يتأوله ولا تكلم فيه، مع اعتقاده أن الله ليس كمثله شيء. ومنهم: من تأوله وفسره -وبه أقول- لأنه معنى قريب عربي فصيح. أما

¹ انظر: البيهقي، الأسماء والصفات، (2/375-377)، ونقل ذلك عنه العظيم آبادي، في عون المعبود (4/140).

² ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، (6/196).

³ الإمام العيني، عمدة القاري، (25/159).

⁴ محمد بن عبد الهادي التنوي، أبو الحسن، نور الدين السندي: فقيه حنفي عالم بالحديث والتفسير والعربية. أصله من السند ومولده فيها، وتوطن بالمدينة إلى أن توفي ودفن بالقيع سنة (1138هـ) له حواشي على الكتب الستة، وحواشٍ غيرها كثيرة نافعة. انظر: عبد الحي الطالبي، نزعة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (6/685)، والزركلي، الأعلام (6/253).

⁵ الإمام السندي، محمد بن عبد الهادي التنوي، (المتوفى: 1138هـ)، كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه. دار الفكر، الطبعة الثانية. (1/412-413).

⁶ الإمام أبو بكر ابن العربي، محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (المتوفى: 543هـ)، القبس في شرح مؤطاً مالك بن أنس. تحقيق: الدكتور محمد عبد الله ولد كتريم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992 م، (287-289). وانظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (3/136).

إنه قد تعدى إليه قوم ليسوا من أهل العلم بالتفسير، فتعدوا عليه بالقول النكير. وأما المبتدعة، قالوا: هذا الحديث محال؛ لأنه إذا نزل؛ من خلفه؟ وهذا جهل عظيم؛ لأنه يقال لهم: من يخلفه في الأرض حين يصعد علمه بما في الأرض... وعلمه بما في السماء، وعلمه بما في الأرض سواء لا يختلف... قال الإمام أبو بكر بن فورك في هذا الحديث والنزول والمحيي: "اعلم أنه أول ما يجب أن تعلم في ذلك قبل شروعه في تأويله، هو أن تعلم أولاً أن جميع أوصافه تعالى تتعلق بما لا يخرج عن وجهين: إما أن يكون استحققه لنفسه، أو: لصفة قامت به، أو: لفعل يفعله. وأنه لا يطلق شيء من الألفاظ في أوصافه وأسمائه المتفرعة من هذين الأصلين إلا بعد ورود التوقيف في الكتاب والسنة، وعن اتفاق من الأمة، ولا مجال للقياس في ذلك بوجه من الوجوه⁽¹⁾.

وللإمام أبي بكر ابن العربي كلام يصعب على الباحث تركه من حسن بيان وقوة برهان فقد نبهنا هنا على نكتة جميلة وهي أن أفعال الله سبحانه تعالى تكون في مخلوقاته وليست في ذاته. وكذلك حاور أهل البدع محاوره شقيقة فقال ما نصه: (وأما قوله: "ينزل" و "يجيء" و "يأتي" وما أشبه ذلك من الألفاظ التي لا تجوز على الله في ذاته معانيها، فإنها ترجع إلى أفعاله، وههنا نكتة، وهي أن أفعالك أيها العبد إنما هي في ذاتك، وأفعال الله لا يجوز أن تكون في ذاته ولا ترجع إليه، وإنما تكون في مخلوقاته فإذا سمعت أن الله يفعل كذا، فمعناه في المخلوقات لا في الذات، وقد بين ذلك الأوزاعي حين سئل عن هذا الحديث، فقال: يفعل الله ما يشاء... قالوا: نقول: ينزل ربنا ولا نكيّف. قلنا: معاذ الله أن نقول ذلك، إنما نقول كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما علمنا من العربية التي نزل بها القرآن وتكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يقول: عبيدي مرضت فلم تعديني، وجعت فلم تطعمني، وعطشت فلم تسقني)) وهذا لا يجوز على الله تعالى بحال، ولكن شَرَفَ هؤلاء بأن عبّر عنهم كذلك. وقوله: "ينزل ربنا" عبر به عن عبده وملكه الذي نزل بأمره باسمه، فيما يعطي من رحمته، ويهب من كرمه، ويفيض على الخلق من عطائه، قال الشاعر: ولقد نزلت فلا تظني غيره... مني بمنزلة الحب المكرم

والنزول: قد يكون في المعاني والأجسام كما تقدم بيانه، والنزول الذي أخبر الله عنه إن حملته على أنه جسم؛ فذلك ملكه ورسوله وعبده. وإن حملته على أنه كان لا يفعل شيئاً من ذلك، ثم فعله عند ثلث الليل فاستجاب وغفر وأعطى، وسمى ذلك نزولاً عن مرتبة إلى مرتبة، وصفة إلى صفة، فتلك عربية محضة خاطب بها أعرف منكم وأعقل وأكثر توحيداً، وأقلّ بل أعدم تخلیطاً. قالوا بجهلهم: لو أراد نزول رحمته لما خص بذلك الثلث من الليل؛ لأن رحمته تنزل بالليل والنهار. قلنا: هي بالليل، وفي يوم عرفة، وفي ساعة الجمعة، فيكون نزولها بالليل أكثر، وعطاؤها أوسع، وقد بين الله ذلك في قوله: {والمستغفرين بالأسحار} [آل عمران: 17]. قالوا: لا حجة لنا في التأويل؛ لأن السلف قالوا في هذه الأحاديث وأمثالها: أمروها كما جاءت، فلا تتأول. قلنا: هذه جهالة عظيمة؛ لأنه قد اشتهر التأويل في ذلك عن السلف). ثم أتى بقولي الإمامين مالك والأوزاعي السابقين⁽²⁾.

وقال الإمام القسطلاني: "أي: ينزل ملك بأمره، وتأوله ابن حزم بأنه: فعل يفعله الله في سماء الدنيا كالفتح لقبول الدعاء وأن تلك الساعة من مظان الإجابة، وهذا معهود في اللغة يقال: فلان نزل لي عن حقه بمعنى: وهبه لي"⁽³⁾.

وذهب بعض العلماء إلى أنها من باب الاستعارة وأن الفعل للملك ومنهم القاضي عياض فبيّن ذلك ثم أتى بالرواية التي فيها (ثم يأمر منادياً ينادى يقول: هل من داع) بدلاً من (ينزل) في الحديث الذي أخرجه النسائي ثم قال: (فهذا مفسر لأحد التأويلين، وهو من معنى المروي عن مالك في تفسير هذا الحديث: ينزل أمره ورحمته، وعلى التأويل الآخر قول الأوزاعي فيه: يفعل الله ما يشاء. وإليه الإشارة في الحديث نفسه بقوله: "ثم يسيط يديه" عبارة عن نشر رحمته واستعارة بكثرة عطائه وإجابته وإسباغ نعمته، ولا يعترض على هذا بأن أمره ونهيه وأفعاله في كل حين لا يختص بوقت دون وقت فقد يكون المراد بالأمر هنا في هذه القضية يختص لقائم الليل، كما يختص رمضان ويوم عرفة وليلة القدر وليلة نصف شعبان - وغيرها من الأوقات بأوامر من أوامره، وقضايا

¹ الإمام أبو بكر ابن العربي، المسالك شرح موطأ مالك، (446/3).

² المصدر السابق، (452/3-453).

³ الإمام القسطلاني، إرشاد الساري، (435/10).

من قضاياه لا تكون في سائر الأوقات، كما جاء في كتاب الله وحديث نبيه صلى الله عليه وسلم. وقيل: يكون النزول بمعنى القول كقوله: {سأنزل مثل ما أنزل الله} [الأنعام: 93] وبمعنى الإقبال على النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون النزول إظهار ذلك وتبليغه إلى أهل السماء الدنيا، أو: بإقباله على عباده المؤمنين كما في الحديث، وذلك من أفعاله كما تقدم، أو: يفعل فعلاً يظهر به لطفه لهم⁽¹⁾.

ولما ثبت بالقواطع العقلية والنقلية أنه تبارك وتعالى منزّه عن الجسمية والتحيز والحلول، امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه، بل المعنى به ما ذكره أهل الحق: دنوّ رحمته، ومزيد لطفه على العباد، وإجابة دعوتهم، وقبول معذرتهم، كما هو ديدن الملوك الكرماء والسادة الرحماء إذا نزلوا بقرب قوم محتاجين ملهوفين فقراء مستضعفين. وقد روي: "يهبط من السماء العليا إلى السماء الدنيا" أي: ينتقل من مقتضى صفات الجلال التي تقتضي الأنفة من الأردال، وعدم المبالاة، وقهر العداة، والانتقام من العصاة، إلى مقتضى صفات الإكرام المقتضية للرأفة والرحمة، وقبول المعذرة، والتلطف بالاحتاج، واستعراض الحوائج، والمساهلة، والتخفيف في الأوامر والنواهي والإغضاء عما يبدو من المعاصي⁽²⁾. ومن العلماء: من أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف. ومنهم: من فصل بين ما يكون تأويله قريباً مستعملاً في كلام العرب وبين ما يكون بعيداً مهجوراً فأول في بعض وفرض في بعض وهو منقول عن مالك وجزم به من المتأخرين بن دقيق العيد. وأما الإمام البيهقي فرأى أن التسليم أسلم لعدم وجوب القول بتأويل معين⁽³⁾.

قال الإمام العيني: (قال ابن فورك: ضبط لنا بعض أهل النقل هذا الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم بضم الباء من: يُنزل، يعني: من الإنزال. وذكر أنه ضبط عمن سمع منه من الثقات الضابطين. وكذا قال القرطبي: قد قيده بعض الناس بذلك فيكون معدي إلى مفعول محذوف، أي: ينزل الله ملكاً. قال: والدليل على صحة هذا ما رواه النسائي ... وحمل صاحب (المفهم) الحديث على النزول المعنوي على رواية مالك عنه عند مسلم⁽⁴⁾، فإنه قال فيها: (يتنزل ربنا)⁽⁵⁾، بزيادة: تاء، بعد: باء المضارعة، فقال: كذا صحت الرواية هنا، وهي ظاهرة في النزول المعنوي وإليها يرد (ينزل)، على أحد التأويلات، ومعنى ذلك: أن مقتضى عظمة الله وجلاله واستغنائه أن لا يعاب بمحقّر ذليل فقير، لكن ينزل بمقتضى كرمه ولطفه لأن يقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم، ويكون قوله: (إلى السماء الدنيا)، عبارة عن الحالة القريبة إلينا، والدنيا بمعنى: القرى، والله أعلم⁽⁶⁾). ونقل في موضع آخر نقولاً عن العلماء في ذلك وبين استعمال كلمة النزول ثم رجح من بين استعمالاتها الخمسة معنى الإقبال، فيكون معنى نزوله سبحانه وتعالى إقباله على أهل الأرض بالرحمة. ثم قال: "قوله: (عز وجل)، وفي بعض النسخ: (تبارك وتعالى)، وهما جملتان معترضتان بين الفعل والفاعل وظرفه: لما أسند ما لا يليق بإسناده بالحقيقة إلى الله تعالى، أتى بما يدل على التنزيه على سبيل الاعتراض"⁽⁷⁾.

¹ القاضي عياض، إكمال المعلم، (109/3-110).

² الإمام البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، (364/1).

³ انظر: الإمام ابن حجر، فتح الباري، (30/3).

⁴ قلت: لعل هذا في نسخة عند الإمام العيني، وكذلك قال الإمام البغوي، محيي السنة الحسين بن مسعود (المتوفى: 516هـ)، شرح السنة. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، 1403هـ، في أبواب النوافل، باب إحياء آخر الليل وفضله، (رقم: 948)، أورده وقال بعده: (رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك)، وفي النسخة التي بين أيدينا (برقم: 758) هي بلفظ: (ينزل) ورواية: (يتنزل) من رواية الإمام البخاري عن عبد العزيز بن عبد الله عن مالك.

⁵ رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، (رقم: 6321).

⁶ الإمام العيني، عمدة القاري، (199/7).

⁷ المصدر السابق (200/7).

وقال الإمام الكوراني⁽¹⁾: (النزول: هو الانتقال من فوق إلى أسفل، وهو عليه تعالى محال؛ فالناس فيه ثلاث فرق: حمله على ظاهره فُضِّلُوا، وسَلَّمَ طائفة أن له معنى لا يُعْلَم، وهم السلف، وقالت طائفة: المراد دنو رحمته، وهبوط نسيم غفرانه في وقت السحر للذين تتجاف جنوبهم عن المضاجع، اللهم احشرنا في زمركم، وامح عنا سيئاتنا)⁽²⁾.

وقال الإمام السيوطي: (ينزل ربنا: النزول والصعود والحركات من صفات الأجسام والله تعالى متعال عنه. والمراد: نزول الرحمة وقربه تعالى من العباد بإنزال الرحمة وإفاضة الأنوار وإجابة الدعوات وإعطاء المسائل ومغفرة الذنوب. وعند أهل التحقيق النزول: صفة الرب تعالى وتقدس يتجلى بها في هذا الوقت يؤمن بها ويُكف عن التكلم بكيفيتها كما هو حكم سائر الصفات المتشابهات مما ورد في الشرع كالسمع والبصر واليد والاستواء ونحوها وهذا هو مذهب السلف وهو أسلم والتأويل طريقة المتأخرين وهو أحكم وبالجملة هو وقت جعله الله تعالى محل ظهور الأسرار وهبوط الأنوار كما يجده أهل الذوق والعرفان)⁽³⁾.

قلت: وجمهور العلماء على التفويض أو التأويل مع تنزيه الباري عن كل ما لا يليق به سبحانه⁽⁴⁾.

تنبيهات:

1- قال الإمام ابن بطال: "وقد سئل بعض العلماء عن حديث النزول، فقال: تفسيره قول إبراهيم حين أفل النجم: {لا أحب الآفلين} [الأنعام: 76] فطلب رباً لا يجوز عليه الانتقال والحركات، ولا يتعاقب عليه النزول، وقد مدحه الله بذلك وأثنى عليه في كتابه، فقال: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين} [الأنعام: 75]، فوصفه لأنه بقوله هذا، موقن"⁽⁵⁾.

2- قال ابن المنير: "ينبغي أن يكون التنزيه في محل الانخفاض والاستعلاء؛ لأن جهتي العلو والسفل كلاهما محال على الحق تعالى، فالعلو وإن كان معنوياً لا جسمانياً فقد وصف به، ولم يؤذن في وصفه بالانخفاض البتة، ولا له اسم مشتق من ذلك، وقد ورد: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) وأولناه بالمعنى لكنه لم يشتق له منه اسم المنزل بخلاف اسمه المتعالي سبحانه وتعالى"⁽⁶⁾.

¹ أحمد بن إسماعيل بن عثمان الشهرزوري الكوراني ثم القاهري الشافعي ثم الحنفي عالم بالقراءات ومفسر، كردي الأصل، أخذ عن شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني صحيح البخاري، نفي ظلمًا، ثم توصل إلى مملكة الروم (الترك) فعهد إليه السلطان مراد بن عثمان بتعليم ولي عهده (محمد الفاتح) تولى قضاء العسكر ومنصب الفتوى وتردد إليه الأكابر، من مؤلفاته: "الدرر اللوامع شرح جمع الجوامع" والكوثر الجاري على رياض البخاري وأنشأ في اسطنبول جامعًا ومدرسة، حين مات كان آخر كلامه عند أذان العصر (لا إله إلا الله) سنة 893هـ وصلى عليه السلطان بايزيد. انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (المتوفى: 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (1/ 241-243)، وطاش كبري زاده، الشقائق النعمانية (ص: 51-53)، والشوكاني، البدر الطالع (1/ 41).

² الإمام الكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، (3/ 206).

³ الإمام السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: 911هـ)، شرح سنن ابن ماجه. (مجموع من 3 شروح: (مصباح الزجاجة) للسيوطي، و(إنجاح الحاجة) لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي (ت 1296 هـ)، و(ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات) لفخر الحسن بن عبد الرحمن الحنفي الكنكوهي (1315 هـ). قديمي كتب خاتمة، كراتشي، د. ت. (ص: 97).

⁴ انظر: ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 471-472)، والمازري، المعلم بفوائد مسلم (1/ 454)، و الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف (المتوفى: 474هـ)، المنتقى شرح الموطأ. مطبعة السعادة - بحوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ، (1/ 357)، وابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار (4/ 145)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/ 379)، والنووي، شرح صحيح مسلم (6/ 36-37)، والمظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (2/ 273)، والطبي، شرح المشكاة (4/ 1204)، والكرمان، الكواكب الدراري (6/ 199)، والبرماوي، اللمع الصبيح (5/ 35-36)، وابن الدمامي، مصابيح الجامع (3/ 142) و(6/ 333)، وابن الملك، شرح المصابيح، (2/ 164)، والسيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح (3/ 989)، وكرنبا الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري (3/ 214)، والقسطلاني إرشاد الساري، (2/ 323-324) و(9/ 187)، والصنعاني، التحبير لإيضاح معاني التيسير (4/ 19-20)، والزرقاني شرح الزرقاني على الموطأ (2/ 46-49)، والعظيم آبادي، المنهل العذب المورود (7/ 239) و(7/ 242)، ومحمد الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (11/ 55-56).

⁵ ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (3/ 139).

⁶ الإمام القسطلاني، إرشاد الساري، (5/ 135).

3- قال الإمام العيني: "احتج به - أي: بحديث ينزل ربنا - قوم على إثبات الجهة لله تعالى، وقالوا: هي جهة العلو، ومن قال بذلك: ابن قتيبة وابن عبد البر، وحكي أيضاً عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، وأنكر ذلك جمهور العلماء لأن القول بالجهة يؤدي إلى تحيز وإحاطة، وقد تعالى الله عن ذلك" (1).

الترجيح

ينزل ربنا أي: يتجلى، وتنزل رحمته، وبركاته، وتنزل عطفه ولطفه، وإحسانه وقبوله، وتنزل ملائكته رحمته بأمره، ويتنزل أمره وبره سبحانه، وقد وردت الروايات ب: (يتنزل) و(ينزل) بضم أوله وكسر ما قبل آخره، و(يأمر منادياً) أي: ملكاً، ولا مانع من القول بكل هذه الوجوه، وكل هذه المعاني محتملة سائغة في اللغة، مقبولة مؤيدة بالأحاديث ولا تضاداً بينها.

أما النزول الحسي الذي هو انتقال وحركة فمستحيل عقلاً؛ إذ إننا نعلم أن السماء الدنيا بالنسبة للسماء التي تليها كحلقة ملقاة في فلاة، والثانية بجانب الثالثة هكذا أيضاً، وهي بجانب الرابعة هكذا حتى نصل إلى العرش، وهو أعظم المخلوقات، والله على العرش استوى، واستولى، وقهر، وتمت رحاميته على العرش وما حوى، والسموات مطويات بيمينه سبحانه، فكيف ينزل إلى شيء هو مقبوض في يمينه، وهو أصغر من حلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لما هو في يده؟! ثم إن الليل في مكان يكون نهراً في مكان آخر، ولا تُصادف ساعة إلا وهي من ثلث الليل الآخر في منطقة ما من هذه الأرض، فلو كان النزول حسيًا فسوف يبقى المولى سبحانه في السماء الدنيا، فلن يكون هناك وقت للعود إلى ما فوق العرش؟! تعالى الله عن ذلك وأستغفر الله من هذا القول، لكن لا بد منه لإفحام المبتعدين عن سبل العلم. سبحانه ليس كمثلك شيء وأنت السميع البصير.

¹ الإمام العيني، عمدة القاري، (199/7). قلت: لكن ابن عبد البر له كلام مضطرب في ذلك فبعد أن أثبت جهة الفوقية قال ما نصه:

(وأما قوله: صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ينزل تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا فقد أكثر الناس التنازع فيه والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون ينزل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصدقون بهذا الحديث ولا يكتفون بالقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاستواء والحيء والحجة في ذلك واحدة وقد قال قوم من أهل الأثر أيضاً إنه ينزل أمره وتنزل رحمته وروى ذلك عن حبيب كاتب ملك وغيره وأنكره منهم آخرون وقالوا هذا ليس بشيء لأن أمره ورحمته لا يزالان ينزلان أبداً في الليل والنهار وتعالى الملك الجبار الذي إذا أراد أمراً قال له كن فيكون في أي وقت شاء ويختص برحمته من يشاء متى شاء لا إله إلا هو الكبير المتعال وقد روى محمد بن علي الجيلي وكان من ثقات المسلمين بالقيروان قال حدثنا جامع بن سودة بمصر قال حدثنا مطرف عن مالك بن أنس أنه سئل عن الحديث إن الله ينزل في الليل إلى سماء الدنيا فقال مالك ينتزل أمره وقد يحتمل أن يكون كما قال مالك رحمه الله على معنى أنه تنتزل رحمته وقضاؤه بالعمو والاستجابة وذلك من أمره أي أكثر ما يكون ذلك في ذلك الوقت والله أعلم. انظر: ابن عبد البر، التمهيد، (143-144).

المبحث السابع

أحاديث الإتيان

الحديث الأول

(43)[5578]- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحب؟)). قالوا: لا يا رسول الله، قال: ((ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد؛ فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين قال: فماذا تنظرون؟ يتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(44)[2265]- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبرًا، تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة))⁽²⁾.

مذاهب العلماء في تفسير الإتيان اثنان: التفويض مع التشبيه، والتأويل مع التنزيه. - وهذا عام في التعامل مع جميع أحاديث الصفات - وتلخيص الأقوال كالآتي:

- 1- التنزه عن التأويل خشية الخطأ، مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله عن التجسم والانتقال. ورجحه التوربشتي.
- 2- أن الكلام على تقدير محذوف، وهو يحتمل شيئين: الأول: أتاهم أمر الله. وهو المنقول عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله. الثاني: أتاهم بعض ملائكة الله. ورجحه القاضي عياض.
- 3- المراد بالإتيان: التحليات الإلهية والتعريفات الربانية. ورجحه الإمام القاري تبعًا للطبي.

¹ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: إن الله لا يظلم مثقال ذرة. (رقم: 4581). وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، (رقم: 7439) وشاهده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، (رقم: 806 و 6573 و 7437). و رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (رقم: 183). وشاهده عن أبي هريرة رضي الله عنه، (رقم: 2968 و 182). وهذا لفظ المصاييح. ولفظه في الصحيح: (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن أناسًا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحب) قالوا: لا، قال (وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحب؟) قالوا: لا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما تضارون في رؤية الله عز وجل يوم القيامة، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب، إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله بر أو فاجر، وغبرات أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله فيقال لهم: كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبتغون؟ فقالوا: عطشنا ربنا فاسقنا، فيشار ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتُم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبتغون؟ فكذلك مثل الأول حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر، أو فاجر، أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: لا نشرك بالله شيئًا، مرتين أو ثلاثًا).

² رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، (رقم: 2687).

4- أن الإتيان عبارة عن أن يُشْهَدَهُمْ رُؤْيَتَهُ.

5- أن الإتيان فعل من أفعال الله يسمى إتياناً وهذا القول شبيه بالتفويض.

6- أتيته هرولة: أي: صببت عليه الرحمة.

7- هو تعبير عن وصول الرحمة بسرعة للمتقرب إلى الله.

وأما تقرب الباري سبحانه فهو:

1- وصول الرحمة.

2- من باب المشاكلة، أي أضعف له الثواب.

3- تيسير العبادة التي يتقرب بها عليه وشرح صدره لها.

وقد احتوى كلام الإمام القاري جميع ما ذكره العلماء في هذه المسألة؛ قال الإمام القاري رحمه الله بعد الحديث الأول: (إلا كما تضارون في رؤية أحدهما)، وفيه مبالغة وتعليق بالتحال، أي: لو كان في رؤية أحدهما مضارة لكان في رؤيته مضارة، والتشبيه إنما هو لمجرد الظهور، وتحقق الرؤية مع التنزه عن صفات الحدوث من نحو المقابلة والجهة⁽¹⁾، ولعل ذكر الشمس والقمر للإشعار بأن رؤية الله حاصلة للمؤمنين في الليل والنهار، على غاية من الظهور ونهاية من الأنوار، وإيماء إلى تفاوت التجلي الرباني بالنسبة إلى الأبرار...

(أتاهم رب العالمين) أي: أتاهم أمره، كما أشار إليه بقوله: (قال) أي: الرب (فماذا تنظرون)؟ أي: تنتظرون. ويجوز أن يعبر بالإتيان عن التجليات الإلهية، والتعريفات الربانية⁽²⁾، بل قيل: هو القول الحق، وهو بالاعتبار أولى وأحق. وقيل: الإتيان هنا عبارة عن رؤيتهم إياه؛ لأن من غاب عن غيره لا يمكن رؤيته إلا بعد الإتيان، فعبّر بالإتيان عن الرؤية مجازاً. وقيل: الإتيان فعل من أفعال الله سبحانه سماه إتياناً. وقيل: المراد إتيان بعض الملائكة. قال القاضي عياض رحمه الله: وهذا الوجه أشبه عندي بالحديث، أو يكون معناه: يأتيهم الله في صورة الملائكة مخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله ليختبرهم، فإذا قال لهم الملك، أو هذه الصورة: أنا ربكم، ورأوا عليه من علامة المخلوق ينكرونه، ويعلمون أنه ليس ربهم، فيستعيذون بالله منه. وقيل: الرؤية حقيقة غير أنا لا نكيف ذلك، وقيل: كنه معرفتها إلى علم الله تعالى⁽³⁾. وقال التوريشتي رحمه الله: إتيان الله في الكتاب مفسر بإتيان أمره، وإتيان بأسه، ولفظ التنزيل محتمل لكلا القولين، فأما هذا الحديث فإنه يؤول على إتيان أمره، وهو قوله: فماذا تنظرون؟ ومن السلف من تنزه عن تأويله خشية الخطأ، مع تمسكه بعروة الوثقى، وهي تنزيه الله تعالى عن الاتصاف بما تتحدث به النفوس من أوصاف الخالق.

قال الشيخ الإمام أبو الفتوح العجلي (600هـ) في كتاب الأقاويل المشهورة: قال البيهقي: قد تكلم الشيخ أبو سليمان الخطابي رحمه الله في تفسير هذا الحديث وتأويله بما فيه الكفاية. قال: إن هذا موضع يحتاج الكلام فيه إلى تأويل وتخريج، وليس ذلك من أجل أنا ننكر رؤية الله سبحانه وتعالى، بل نثبتها، ولا من أجل أنا ندفع ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر المجيء والإتيان، غير أنا لا نكيف ذلك، ولا نجعله حركة وانتقالاً كمجيء الأشخاص وإتيانها، فإن ذلك من نعوت الحادث، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ... وجاء في الحديث: ((إن المؤمنين يسجدون ويصير

¹ قال الإمام البرماوي: (والتشبيه إنما وقع في الوضوح، وزوال الشك، والمشقة، والاختلاف، لا في المقابلة والجهة، وسائر الأمور التي جرت العادة بها عند الرؤية). انظر: اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (72/12).

² اقتصر عليهما ابن الملك في شرحه على المصباح، انظر: (67/6).

³ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (545-546).

ظهور المنافقين طبقاً واحداً⁽¹⁾). قال: ويخرج معنى إتيان الله في هذا إياهم أنه يشهدهم رؤيته ليتيقنوه؛ فيكون معرفتهم له في الآخرة عياناً كما كان اعترافهم بربوبيته في الدنيا علماً واستدلالاً، ويكون طريق الرؤية بعد أن لم يكن بمنزلة إتيان الآتي من حيث لم يكونوا شاهدوه⁽²⁾). (وفي رواية أبي هريرة فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا) أي: يتجلى علينا بوجهه نعرفه، (فإذا جاء ربنا) أي: على ما عرفناه من أنه منزله عن الصورة والكمية، والكيفية والجهة وأمثالها، (عرفناه) أي: حق المعرفة. قيل: يشبه - والله تعالى أعلم - أن يكون إنما منعهم عن تحقق الرؤية في الكرة الأولى، حتى قالوا: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا؛ من أجل من معهم من المنافقين لا يستحقون الرؤية، وهم عن رحم محجوبون، فلما ميزوا عنهم ارتفع الحجاب، فقالوا عندما رأوه: أنت ربنا. (وفي رواية أبي سعيد: فيقول هل بينكم وبينه) أي: بين ربكم (آية) أي: علامة (تعرفونه)؟ أي: بتلك الآية، وهي المعرفة والمحبة التي هي نتيجة التوحيد، وثمره الإيمان والتصديق، (يقولون: نعم، فيكشف عن ساق): بصيغة المجهول، وقيل على بناء الفاعل، قيل: معنى كشف الساق زوال الخوف والهول⁽³⁾).

وأما الحديث الثاني: (ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة): فقال الإمام القاري في شرحه: ("ومن تقرب": أي: طلب القرية "مني": أي: بالطاعة "شبراً": أي: مقداراً قليلاً. قال الطيبي: شبراً وذراعاً وباعاً في الشرط والجزاء منصوبان على الظرفية، أي: من تقرب إلي مقدار شبر تقربت أي: الرحمة "منه ذراعاً" قيل: أي: أوصلت رحمتي إليه مقداراً أزيد منه. وقيل: المراد منه والله أعلم مجازاته وإثابته بأضعاف ما يتقرب به إلى الله تعالى، وسمي الثواب تقرُّباً على سبيل المقابلة والمشاكلة، أو: لأنه من أجله وبسببه. وقيل: تقرب الباري سبحانه إليه بالهداية وشرح صدره لما تقرب به إليه، وكان المعنى إذا قصد ذلك وعمله أعنته عليه وسهلت له. قال الطيبي: هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره، فمعناه: من تقرب إلي بطاعتي تقربت إليه برحمتي (ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً): وهو قدر مد اليدين، وما بينهما من البدن، وعلى هذا كلما زاد العبد قرية من الله تعالى زاد الله رحمته به، فذكر الذراع للتمثيل والتصوير لإفهامهم لمجازة العبد فيما يتقرب به إلى ربه بمضاعفة لطفه وإحسانه. (ومن أتاني): حال كونه (يمشي): أي: في طاعتي (أتيته هرولة): وهي الإسراع في المشي دون العدو، أي: صببت عليه الرحمة، وقيل: أي: من تقرب مني بسهولة وصلت إليه رحمتي بسرعة⁽⁴⁾).

قلت: مرَّ قول الإمام التوربشتي لكني أحببت أن أنقل ما ختم به كلامه عن هذا الحديث مما لم ينقله الإمام القاري عنه، قال: (وأما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد (هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيكشف عن ساق). وسياق هذا الحديث في بعض طرقه الصحاح: (هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها) وهو الأحوط وقد بينا فيما مر من الكتاب معنى قوله: (فيكشف عن ساق) وتنكيرها في هذا الحديث على ما هو في التنزيل من أكد أسباب التأويل. وفي رواية أبي هريرة وأبي سعيد في الجامعين الصحيحين زيادات على ما في المصابيح لم نر التعرض لها؛ لأنها لم تدخل في جملة أحاديث هذا الكتاب، ثم لأنها من المشكلات المبهمة والمعضلات

¹ رواه البخاري، في كتاب تفسير القرآن، باب يوم يكشف عن ساق (رقم: 4919). ولفظه: (عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً). وفي كتاب التوحيد باب قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة، (رقم: 7439).

² نقل ذلك كله الإمام القاري عن الطيبي في شرحه على المشكاة، انظر: الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن (3527/11-3528).

³ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (8/3549-3550).

⁴ المصدر السابق (4/1543).

العويصة، والأولى بأولي الخشية الذين باشر الحق أسرارهم أن لا يتكلفوا التأويل في الألفاظ النابية عما يتوخى من المعاني فيزود في سنبله⁽¹⁾.

وقد أوضح القاعدة في التعامل مع أمثال هذا الحديث الشريف الإمام أبو بكر ابن العربي فقال: (وتحقيق القول في هذا: أن كل فعل يضاف إلى الله تعالى مما يتعلق بأبداننا يتعالى الله عنه، وإنما المراد به مخلوقاته، وذلك جائز من وجهين: إما بأن يفعل فعلاً فيسمى إتياناً، وإما أن تأتي الملائكة بأمره⁽²⁾).

ونقل الإمام ابن الجوزي قول بعض السلف في التفويض ثم عقبه بتأويل بعض السلف لبعض النصوص ليدلنا على أن المذهبين متفقان في تنزيه الباري عما يخطر بالبال، إذ كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، قال رحمه الله: (يجب علينا أن نعرف ما يجوز على الله سبحانه وما يستحيل. ومن المستحيل عليه الحركة والنقلة والتغير، فيبقى ما ورد في هذا فالناس فيه قائلان: أحدهما: الساكت عن الكلام فيه، وقد حكى أبو عيسى الترمذي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمروها بلا كيف، فهذه كانت طريقة عامة السلف. والثاني: المتأول، فهو يحملها على ما توجهه سعة اللغة، لعلهم بأن ما يتضمنه النزول من الحركة مستحيل على الله سبحانه وتعالى، وقد قال الإمام أحمد: {وجاء ربك} [الفجر: 22] أي: جاء أمره⁽³⁾).

وقال الإمام النووي: (اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين؛ أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بما نعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزّه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق، وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققهم وهو أسلم. والقول الثاني: - وهو مذهب معظم المتكلمين - أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها. - وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهلها بأن يكون عارفاً بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع ذا رياضة في العلم فعلى هذا المذهب يقال في قوله صلى الله عليه وسلم: "فيأتيهم الله": أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلا بالإتيان فعبر بالإتيان والجيء هنا عن الرؤية مجازاً، وقيل: الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتياناً، وقيل: المراد ببيأتهم الله أي: يأتيهم بعض ملائكة الله. - ثم ذكر قول القاضي عياض السابق، ثم أوّل الصورة بالصفة -⁽⁴⁾).

وفسر الإتيان الإمام المظهري - وهو من الخلف - بمثل ما فسرها الإمام أحمد - شيخ السلف - وهو: إتيان الأمر، لأن الله تعالى منزّه عما هو وجسماني⁽⁵⁾.

وأوّل الإمام الكرمانى الإتيان بالظهور: (قوله (أتاهم) أي: ظهر لهم، والإتيان: مجاز عن الظهور و (أدنى صورة) أي أقرها. الخطابي: الصورة: الصفة، يقال صورة هذا الأمر كذا أي صفته أو أطلق على سبيل المشاكلة والمجانسة، و(الرؤية) بمعنى العلم لأنهم لم يروه قبل ذلك ومعناه يتجلى الله لهم على الصفة التي يعرفونه بها قال وهذه الرؤية غير الرؤية التي هي ثواب لأولياء وكرامة لهم في الجنة إذ هذه للتمييز بين من عبد الله ومن عبد غيره⁽⁶⁾).

وقال الشيخ محمد أنور شاه الكشميري (1353هـ): (قد مر معنا في أول الكتاب أن الرؤية في المحشر تكون للتجليات دون رؤية الذات، ورؤية التجليات أيضاً تسمى برؤية الذات. فإنك ترى زيدا في لباس، ثم تقول إنك رأيت زيدا، ولا تقول إنك رأيت ثوب زيد، فإن رؤية كل أحد بحسبه، فكذلك الرؤية في الله تعالى، عبارة عن رؤية تجلياته عند الشيخ الأكبر، فالصورة عندي تحوّل، وفسرها

¹ التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة، (1205/4).

² الإمام أبو بكر ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك، (456/3).

³ الإمام ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (379/3).

⁴ الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، (19/3-20).

⁵ الإمام المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح، (513-514/5).

⁶ الإمام الكرمانى، الكواكب الدراري، (78-79). وقد قال اقتفى أثره كثير من الشراح، انظر: الإمام البرماوي، الالامع الصبيح (73/12)، والإمام العيني، عمدة القاري (173/18)، والإمام الكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (73/8)، والإمام القسطلاني، إرشاد الساري (82/7)، وزكريا الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري (605/7).

الناس بالصفة؛ قلت: كلا، لأن تغييرها موجود في نص الحديث، أن الله تعالى يأتيهم ثانيا في صورة يعرفونها ... إلخ، فلو كان المراد من الصورة الصفة يلزم التغير في الصفة، وهو محال، فالمراد هو التجلي، وسندكر بحث التجلي في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

الترجيح

اعتراض الشيخ الكشميري في غير محله؛ فإننا إذا فسرنا الصورة في الإتيان الأول بالصفة لم نقصد بذلك صفة الله تعالى حتى يلزم تغيير صفات الله بتغير الصفة في الإتيان الثاني. بل المقصود من الصورة في الإتيان الأول: صورة الملك، كما قال القاضي عياض، أو: التجلي، كما قال الشيخ الكشميري نفسه، وأما الصورة في الإتيان الثاني: فلا أحسن من تفسيرها بصفة الله ولا أوضح من ذلك، ويحتمل أيضاً تفسيرها بالتجلي، فكلتا التفسيرين يزيل الإشكال وتتسع له اللغة، والله أعلم. وسيأتي تفصيل القول في مسألة الصورة في المبحث القادم ومسألة الساق في المبحث الذي يليه إن شاء الله.

¹ محمد أنور شاه الكشميري، فيض الباري على صحيح البخاري، (241-240/5).

المبحث الثامن

أحاديث الغيرة

الحديث الأول

(45)[3308]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: لو وجدت مع أهلي رجلا لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له: ((نعم)). قال: كلا، والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اسمعوا إلى ما يقول سيدكم، إنه لغيور، وأنا أغير منه، والله أغير مني))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(46)[3309]- عن المغيرة رضي الله عنه قال: "قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح" فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(47)[1483]- عن عائشة رضي الله عنها - حديث طويل وفيه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته))⁽³⁾.

قلت: تقرر عند أهل الفطرة السليمة والعقول المستقيمة أن الغيرة من صفات الكمال ومن شيم الكرام لكنها يرافقها تغير وهيجان في قلب وبدن الشخص فحين ننسبها للباري سبحانه وتعالى فماذا يكون معناها؟
أجاب الإمام القاري عن ذلك فذكر معنيين اثنين:

الأول: الغيرة من الله تعالى الزجر عن المعاصي وتحريمها ومنع العباد منها.

قال الخطابي: "وهذا أحسن ما يكون من تفسير غيرة الله عز وجل وأبينه" **قلت:** وقد قال به معظم الشراح⁽⁴⁾.

الثاني: الغضب على منتهك المحرمات والفواحش. **قلت:** وقد استبعده الإمام الكوراني.

الثالث: استعارة تصريحية للوعيد وإيقاع العقوبة بالفاعل ونحو ذلك. وهو قول ابن العربي.

لكن الإمام القاري: لم يذكر أن هذا الحديث من المتشابهات وأن المنزهين لله على مذهبين: التفويض أو التأويل.

¹ رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل، (رقم: 1498).

² رواه البخاري، كتاب التوحيد باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا شخص أغير من الله)) (رقم: 7416)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل (1499).

³ رواه البخاري، أبواب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، (رقم: 1044)، ورواه مسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، (رقم: 901).

⁴ انظر: الخطابي، أعلام الحديث (2023/3-2024)، وابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 96-97)، وابن بطال، شرح صحيح البخاري (7/ 350) و(10/ 443)، والقاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (5/ 92-94)، والنووي، شرح صحيح مسلم (10/ 132-133)، والطبي، شرح المشكاة (7/ 2358-2359)، والكرواني، الكواكب الدراري (227/23) و(25/ 127-128)، وابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (25/ 108) و(33/ 276)، وابن الدماميني، مصابيح الجامع (9/ 67-68)، والبرماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (16/ 343) و(17/ 364-365)، وابن حجر، فتح الباري (13/ 399-402)، وابن الملك، شرح المصابيح (4/ 43)، وزكريا الأنصاري، منحة الباري (9/ 685) و(10/ 352)، والقسطلاني، إرشاد الساري (10/ 389-390)، والمنائوي، فيض القدير (6/ 427)، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (11/ 151).

الرابع: تفويض معنى الغيرة لله تعالى. وهو قول ابن دقيق العيد.

الخامس: عدم الرضا و شدة المقت. وهو قول الكوراني.

وقد ذكر الإمام القاري في طيات شرحه لأحاديث الغيرة معنى الحب والغضب المنسوبين لله تعالى، فقال:

الحب: هو رضاه سبحانه بالشيء، وإيصاله الرحمة والخير لمن أحبه⁽¹⁾.

الغضب: إيصال العذاب إلى من غضب عليه. ففسرهما بلازمهما.

أما الحديث الأول (والله أغير مني): فقال فيه الإمام القاري: (قال النووي: ليس قوله "كلا" ردًا لقوله صلى الله عليه وسلم ومخالفة لأمره، وإنما معناه: الإخبار عن حالة نفسه عند رؤيته الرجل مع امرأته، واستيلاء الغضب عليه، فإنه حينئذ يعاجله بالسيف... "إنه لغير" فيه اعتذار منه صلى الله عليه وسلم لسعد، وأن ما قاله سعد قاله لغيرته، وفي ذكر السيد هنا إشارة إلى أن الغيرة من شيمة كرام الناس وساداتهم، ولذا أتبعه بقوله: "وأنا أغير منه، والله أغير مني" قال المظهر: يشبه أن مراجعة سعد النبي صلى الله عليه وسلم كان طمعًا في الرخصة لا ردًا لقوله صلى الله عليه وسلم فلما أبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سكوت وانقباد. وفي النهاية: الغيرة: الحمية والأنفة، وغيور بناء مبالغة كشكور وكفور، وفي شرح السنة: الغيرة من الله تعالى الزجر، والله غيور أي: زجور يزجر عن المعاصي؛ لأن الغيرة تغير يعتري الإنسان عند رؤية ما يكرهه على الأهل، وهو على الله تعالى محال)⁽²⁾.

وأما الحديث الثاني: (والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش) فقال الإمام القاري: ("أتعجبون من غيرة سعد؟" أي: كماله "والله لأنا أغير منه، والله أغير مني" برفع الجلالة عطف على المقسم عليه وهو قوله: "لأنا أغير منه": "ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش" هذا تفسير لغيرة الله تعالى بمعنى: أنه منع الناس عن المحرمات ورتب عليها العقوبات إذ الغيرة في الأصل أن يكره ويغضب الرجل أن يتصرف غيره في ملكه، والمشهور عند الناس أن يغضب الرجل على من فعل بامرأته، أو نظر إليها، ففي حق الله تعالى أن يغضب على من فعل منهما. "ولا أحد")⁽³⁾

¹ قال القليني: (الحجة أصلها الميل إلى ما يوافق المحب ولكن هو في حق من يصح منه الميل والانتفاع بالرفق وهي درجة المخلوق وأما الخالق تعالى فمتمزه عن الإغراض فمحبه لبعده تمكنه من سعادته وعصمته وتوفيقه وتحية أسباب القرب إليه وإضافة رحمته إليه وقصاها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته ولسانه الذي ينطق به). انظر: العزيري، السراج المنير شرح الجامع الصغير (1/30).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (5/2163).

³ قلت: وفي رواية (لا شخص) ولم ينطرق لها القاري لعدم ذكرها في المصايح لكن نزيل إشكالها للفائدة: قال ابن حجر: (قوله: (لا شخص أغير من الله)... قال الإسماعيلي: ليس في قوله لا شخص أغير من الله إثبات أن الله شخص بل هو كما جاء ما خلق الله أعظم من آية الكرسي فإنه ليس فيه إثبات أن آية الكرسي مخلوقة بل المراد: أنها أعظم من المخلوقات وهو كما يقول من يصف امرأة كاملة الفضل حسنة الخلق ما في الناس رجل يشبهها يريد تفضيلها على الرجال لا أنها رجل. وقال ابن بطل اختلفت ألفاظ هذا الحديث فلم يختلف في حديث بن مسعود أنه بلفظ: "لا أحد" فظهر أن لفظ: "شخص" جاء موضع أحد فكأنه من تصرف الراوي، ثم قال: على أنه من باب المستثنى من غير جنسه، قوله تعالى: (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن) وليس الظن من نوع العلم قلت وهذا هو المعتمد... فالتقدير: أن الأشخاص الموصوفة بالغيرة لا تبلغ غيرتها وإن تناهت غيرة الله تعالى وإن لم يكن شخصًا بوجه. وأما الخطابي فينبى على أن هذا التركيب يقتضي إثبات هذا الوصف لله تعالى فبالغ في الإنكار وتخطئة الراوي فقال: إطلاق الشخص في صفات الله تعالى غير جائز لأن الشخص لا يكون إلا جسمًا مؤلفًا، فخلق أن لا تكون هذه اللفظة صحيحة وأن تكون تصحيفًا من الراوي... فلعل لفظ "شخص" جرى على هذا السبيل إن لم يكن غلطًا من قبيل التصحيف يعني السمعى... ورد الروايات الصحيحة والظن في أئمة الحديث الضابطين مع إمكان توجيه ما رويوا من الأمور التي أقدم عليها كثير من غير أهل الحديث وقد يقضى قصور فهم من فعل ذلك منهم، ومن ثم قال الكرمانى: لا حاجة لتخطئة الرواة الثقات، بل حكم هذا حكم سائر المشابهات إما التفويض وإما التأويل. قال القاضي عياض... وقد يكون المراد بالشخص: المرتفع، لأن الشخص هو: ما ظهر وشخص وارتفع، فيكون المعنى: لا مرتفع أرفع من الله، كقوله: لا متعالي أعلى من الله، قال: ويحتمل أن يكون المعنى: لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله تعالى، وهو مع ذلك لم يعجل ولا بادر بعقوبة عبده لارتكابه ما نهى عنه بل حذره وأذره وأعذر إليه وأمهله، فينبغي أن يتأدب بأدبه ويقف عند أمره ونهيه وبهذا تظهر مناسبة تعقيبه بقوله: (ولا أحد أحب إليه العذر من الله). وقال القرطبي: أصل وضع الشخص يعني في اللغة: لجرم الإنسان وجسمه، يقال: شخص فلان وجسمانه، واستعمل في كل شيء ظاهر، يقال: شخص الشيء إذا ظهر، وهذا المعنى محال على الله تعالى، فوجب تأويله، فقيل: معناه: لا مرتفع، وقيل: لا شيء وهو أشبه من الأول، وأوضح منه لا موجود أو لا أحد وهو أحسنها، وقد ثبت في الرواية الأخرى، وكان لفظ الشخص أطلق مبالغة في إثبات إيمان من يتعذر على فهمه موجود لا يشبه شيئًا من الموجودات، لئلا يقضى به ذلك إلى النفي والتعطيل، وهو نحو قوله صلى الله عليه وسلم للحجارة

(¹) وقال بعضهم(²): اعلم أن الحب فينا والغضب والفرح والحزن وما أشبه ذلك عبارة عن تغيير القلب، ويريد واحد منا بأن يمدحه أحد، وربما ينقص قدره بترك المدح، والله منزّه عن صفات المخلوقات، بل الحب فيه معناه: الرضا بالشيء، وإيصال الرحمة والخير إلى من أحبه، والغضب: إيصال العذاب إلى من غضب عليه. "ومن أجل ذلك" أي: كون المدح محبوبًا له "وعد الله الجنة" أي: لمن مدحه وأطاعه، ولهذا كان {وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} [يونس: 10] متفق عليه، وروى أحمد والبخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر: "لا شيء (³) أغير من الله تعالى" (⁴): جل عظيم الشأن(⁵).

وأما الحديث الثالث: (ما من أحد أغير من الله) فقال فيه الإمام القاري: (الغيرة في الأصل كراهة شركة الغير في حقه، وغيرة الله تعالى كراهة مخالفة أمره ونهيه. (أن يزي): متعلق بأغير أي: على أن يزي. (عبده أو تزي أمته) أي: على زنا عبده أو أمته، فإن غيرته تعالى وكراهيته ذلك أشد من غيرتك وكراهيتك على زنا عبدك وأمتك. قال الطيبي: ... ونسبة الغيرة إلى الله تعالى مجاز محمول على غاية إظهار غضبه على الزاني، وإنزال نكاله عليه. ... ولعل تخصيص العبد والأمة رعاية لحسن الأدب؛ لأن الغيرة أصلها أن تستعمل في الأهل والزوج، والله تعالى منزّه عن ذلك. ويجوز أن تكون نسبة الغيرة إلى الله تعالى من باب الاستعارة المصروفة للتبعية شبه حال ما يفعل الله مع عبده الزاني من الانتقام، وحلول العقاب بحال ما يفعل السيد بعبده الزاني من الزجر والتعزير)(⁶).

ونؤيد المطلب ببعض أقوال العلماء؛ قال الإمام أبو بكر ابن العربي: (وغيرة الله: كُفُّ الخلق بقدرته لمن عصم عن الفواحش خصوصًا، وبأمره ونهيه لكافة الخلق عمومًا، فعبّر عن الشيء بمقدمته، ووصف بذلك نفسه تشريقًا للصفة وتعظيمًا للحال)(⁷).

"أين الله" قالت: في السماء، فحكم بإيمانها مخافة أن تقع في التعطيل، لقصور فهمها عما ينبغي له من تنزيهه مما يقتضي التشبيه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. تنبيه: لم يفصح المصنف لإطلاق الشخص على الله بل أورد ذلك على طريق الاحتمال، وقد جزم في الذي بعده في تسميته شيئاً لظهور ذلك فيما ذكره من الآيتين) انظر: ابن حجر، فتح الباري، (402-400/13).

¹ قال ابن الجوزي: (قال ابن عقيل: قال بعض العامة: إذا كان الله عز وجل يحب المدح فكيف لا نحب نحن؟ وهذا غلط: لأن حب الله للمدح ليس من جنس ما يعمل من حبنا للمدح، وإنما الله سبحانه أحب الطاعات، ومن جملتها مدحه لشيء على ذلك فينتفع المكلف، ولا ينتفع هو بالمدح، ونحن نحب المدح لنتنفع به ويرتفع قدرنا في قومنا: قال: "ولا أحد أحب إليه العذر من الله" تفسيره على نحو حبه للمدح، لأنه يشب المكلف به إذا اعتذر من الله وقام بشرط العبودية في خضوعه). ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (1/300)، و قال الإمام النووي: (ولأحد أحب إليه المدح من الله تعالى) حقيقة هذا مصلحة للعباد لأنهم يثنون عليه سبحانه وتعالى فيشبهونه فينتفعون وهو سبحانه غني عن العالمين لا ينفعه مدحهم ولا يضره تركهم ذلك وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه وتعالى وتسيححه وتقليله وتحميده وتكبيره وسائر الأذكار). الإمام النووي، شرح صحيح مسلم (17/77).

² المقصود هو الإمام المظهري والله أعلم فإن هذا الكلام مجرّوه في المفاتيح، انظر: المظاهري، المفاتيح في شرح المصاحب (4/114).

³ قلت: لم يتعرض الإمام القاري لبيان وصف الله تعالى بأنه شيء، مع أنها قضية مهمة، ولذلك نيينها بإيجاز: قال الإمام البخاري: (كتاب التوحيد . باب {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله} [الأنعام: 19]، فسمى الله تعالى نفسه شيئاً، وسمى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن شيئاً، وهو صفة من صفات الله، وقال: {كل شيء هالك إلا وجهه} [القصص: 88]، وقال الإمام الرازي: (أطبق الأكثرون على أنه يجوز تسمية الله تعالى باسم الشيء ونقل عن جهم بن صفوان أن ذلك غير جائز، أما حجة الجمهور فوجوه: الحجة الأولى: قوله تعالى: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله} وهذا يدل على أنه يجوز). الرازي، تفسير الرازي، (1/111)، وقال ابن حجر: (وحكى ابن بطل أيضاً: أن في هذه الآيات والآثار رداً على من زعم أنه لا يجوز أن يطلق على الله "شيء" كما صرح به عبد الله الناشئ المتكلم وغيره، ورداً على من زعم أن المعلوم شيء، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ شيء يقتضي إثبات موجود، وعلى أن لفظ لا شيء يقتضي نفي موجود، إلا ما تقدم من إطلاقهم "ليس بشيء" في الذم، فإنه بطريق المجاز). ابن حجر، فتح الباري (13/403). وقال المناوي: (وقوله: (شيء) اسم من أسمائه تعالى التي لا يختص بها، فكل موجود شيء، وهو سبحانه شيء لا كالأشياء يسمى به في التعريف، ولا يسمى به في الابتهاال، {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله} [المناوي، فيض القدير (6/427).

⁴ رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، (رقم: 5222)، ومسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، (رقم: 2762).

⁵ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (5/2164).

⁶ المصدر السابق، (3/1095).

⁷ الإمام أبو بكر ابن العربي، القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: 912).

وقال القاضي عياض: (الغيرة: أصلها المنع، فأخبر عليه السلام أن سعدًا غيور، مانع لحرمته، وأنه من خلق أهل الإيمان والكمال، وأخبر أنها من أوصافه هو عليه السلام وخلقه، وأنه أغبر منه بحسب منيف منزلته، وأخبر أن الله أغبر من الكل، وفسر ذلك بقوله: من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وهذا هو حقيقة الغيرة من المنع الذي قدمناه. وقد جاء في حديث آخر مفسراً، قال: ((وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله))⁽¹⁾، لكنها في البشر يقتزن بما تغير حال وصفات بطش وانزعاج زائد على مجرد المنع إذ هم محل التغيير واختلاف الحال والله تعالى لا يليق به شيء من ذلك)⁽²⁾.

وفسر الإمام المظهري الغيرة بالغضب، ويؤن معنى الحب والغضب في حق الله تعالى فقال: (اعلم أن الحب فينا والغضب والفرح والحزن وما أشبه ذلك: عبارة عن تغير القلب وغليانه، ويزيد قدر واحد منا بأن يمدحه أحد، وربما ينقص قدره بترك المدح، والله تعالى منزّه عن صفات المخلوقات؛ بل الحب فيه معناه: الرضا بالشيء وإيصال الرحمة والخير إلى من أحبه، والغضب فيه؛ إيصال العذاب إلى من غضب عليه؛ يعني: من مدحه أوصل إليه الرحمة والخير... قوله: "إن الله تعالى يغار"؛ أي: يغضب على من فعل فاحشة)⁽³⁾.

وأول الإمام الكوراني الحب: بقبول المدح. والغضب: بالانتقام وإرادته، والغيرة: بعدم الرضا وشدة المقت، فقال ما نصه: (ومعنى الأحب لله تعالى: قبوله ذلك المدح وإفاضته كثرة الثواب... فإن قلت: ما حقيقة غيرة الله؟ قلت: غيرة الله: عدم الرضا وشدة المقت، وقيل: هي الغضب، وفيه نظر؛ لأن غضب الله: عبارة عن الانتقام، وإرادته، وإذا أراد شيئاً كان، فيلزم أن يعاقب كل من زنى، وليس هذا مذهب أهل الحق)⁽⁴⁾. وقال القسطلاني: (وقال ابن العربي: التغير محال على الله تعالى بالدلالة القطعية، فيجب تأويله: كالوعيد وإيقاع العقوبة بالفاعل ونحو ذلك)⁽⁵⁾.

وقال أنور شاه الكشميري: (قوله: (والله أغبر مني): واعلم أن كل ما لا يكون مُطَرِّداً يُفَوِّضُهُ الشرع إلى الله جلّ ذكره)⁽⁶⁾.

الترجيح

يمكن جمع الأقوال جميعها فلا تناقض بينها فالغيرة من الله تعالى هي الزجر عن المعاصي وتحريمها ومنع العباد منها ولا يرضى سبحانه بانتهاك حرمانه ويغضب على فاعل ذلك ويشتد مقتته له ويوقع العقوبة بالفاعل. وهذا لازم الغيرة. وبعض العلماء رأى فيها التفويض كسائر المتشابهات لكن الإمام القاري لم يذكر أن هذا الحديث من المتشابهات وأن المنزهين لله على مذهبين: التفويض أو التأويل. وذلك أن الحديث مفسر بالحديث الثاني: (وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله) لإرادة لازم الغيرة وهو الزجر عن المعاصي من لفظ الغيرة واضح مستعمل والله أعلم.

¹ رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، (رقم: 5223)، ومسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، (رقم: 2761).

² القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (5/ 92-94). وانظر: النووي، شرح صحيح مسلم (10/ 132-133)، والعيني، عمدة القاري (20/ 205).

³ المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (4/ 114).

⁴ الكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (8/ 528).

⁵ الإمام القسطلاني، إرشاد الساري (8/ 109-110).

⁶ أنور شاه الكشميري، فيض الباري على صحيح البخاري (5/ 564).

المبحث التاسع

أحاديث المعية

الحديث الأول

(48)[2264]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(49)[2285]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى يقول: أنا مع عبدي إذا ذكرني، وتحركت بي شفثاه))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(50)[2266]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها))⁽³⁾.

الحديث الرابع

(51)[1528]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟))⁽⁴⁾.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ("وأنا معه": أي: بالتوفيق والحفظ والمعونة. أو: أسمع ما يقوله. أو: عالم بحاله لا يخفى علي شيء من مقالته. (إذا ذكرني): أي: بلسانه وقلبه (فإن ذكرني): تفرع يفيد أنه تعالى مع الذكر، سواء ذكره في نفسه أو مع غيره، (في نفسه): أي: سرًا وخفية أو تشبيهاً وإخلاصاً. (ذكرته في نفسي): أي: أسر بثوابه على منوال عمله، وأتولى بنفسه إثابته لا أكله إلى غيري. (وإن ذكرني في ملأ): أي: مع جماعة من المؤمنين، أو في حضرته (ذكرته): أي: بالثناء الجميل وإعطاء الأجر الجزيل وحسن القبول وتوفيق الوصول⁽⁵⁾). وقيل: المراد مجازاة

¹ رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، (رقم: 7405)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، (رقم: 2675).

² رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: { لا تحرك به لسانك }، تعليقاً.

³ رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (رقم: 6502).

⁴ رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، (رقم: 2569).

⁵ وقال السندي: (وإن ذكرني في ملأ) يحتمل أن المراد بهذا الجهر وبالأول السر، ويحتمل أن المراد بالأول الذكر حال الوحدة وهاهنا الذكر مع الكثرة الشاغلة عنه. انظر: السندي، حاشية السندي على سنن ابن ماجه، (427/2).

العبد بأحسن مما فعله وأفضل مما جاء به، (في ملاء خير منهم): أي: من ملاء الذاكرين من حيث عصمتهم عن المعصية، وشدة قوتهم على الطاعة، وكمال إطلاعهم على أسرار الألوهية، ومشاهدتهم أنواع أنوار الملكوتية⁽¹⁾).

وقال في موضع آخر: (قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟) ... (قلت: ولعل مأخذها وقوفه على جميع الأبواب، على دأب آداب أرباب الألباب، ثم السؤال من وراء الحجاب، وكذا الجواب، بمرحبًا مرحبًا بذلك الجنب، **المشعر بالتنزل الرحماني**، والاستقبال الصمداني، والإقبال الفرداني، المشير إلى ما قال في الحديث القدسي المعبر عن الكلام النفسي ((من أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعًا)) المومئ إلى قوله سبحانه: {وهو معكم أين ما كنتم} [الحديد: 4] المصريح بالمعية الخاصة في مقام مريد المزيد، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، ثم الوارد على لسانه بلسان الجمع: إن الله معنا، ثم عرض علو مقامه، وحصول مرامه على آبائه الكرام، وإخوانه العظام في تلك المشاهد الفخام، فيا لها من ساعة سعادة لا يتصور فوقها زيادة)⁽²⁾.

وقال أيضًا: ("وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه" فقوله (في نفسه) ظاهر أن المراد به الذكر القلبي لمقابلته بالذكر النفسي، الذي هو من جملة الكلام النفسي)⁽³⁾.

وقال أيضًا: (ومعنى العندية العلم، فهو من مجاز الملازمة)⁽⁴⁾.

وأما الحديث الثاني: (أنا مع عبدي إذا ذكرني) **فقال في شرحه الإمام القاري:** (أي: بالإعانة والتوفيق والرحمة والرعاية، وقيل: المعية كناية عن الشرف والقرية لما ورد: أنا جليس من ذكرني، كما يقال: فلان جليس السلطان أي: مقرب مشرف عنده، والحديث أبلغ حيث لم يقل هو جليس)⁽⁵⁾.

وأما الحديث الثالث: ((إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)) **فشرحه الإمام القاري بقوله:** (قال الخطابي: أي: يسرت عليه أفعاله المنسوبة إلى هذه الآلات، ووقفته فيها، حتى كأني نفس هذه الآلات. وقيل: أي: يجعل الله حواسه وآلاته وسائل إلى رضائه فلا يسمع إلا ما يحبه الله ويرضاه، فكأنه يسمع به إلخ. وقيل: أي: يجعل الله سلطان حبه غالبًا عليه حتى لا يرى إلا ما يحبه الله، ولا يسمع إلا ما يحبه، ولا يفعل إلا ما يحبه، ويكون الله سبحانه في ذلك له يدا وعونا ووكيلا يحمي سمعه وبصره ويده ورجله عما لا يرضاه.

وقيل: معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الاستماع، وبصره في النظر، ويده في اللمس، ورجله في المشي، ويمكن أن يكون المعنى إذا تقرب إليه بما افترض عليه، وزاد في التقرب بالنوافل المكملات للفرائض، ومن جملتها دوام الذكر الموصل إلى حضور الوصول، وسرور الحصول، ومقام الفناء عن نفسه، والبقاء بربه، ظهر له آثار محبته الأزلية وانكشف له أنوار قربته الأبدية، فرأى أن ما به من الكمال من السمع والبصر وقوة القوى إنما هو من آثار سمعه وبصره وقدرته وقوته، وأما هو فعدم محض فلا يرى في الدار غيره ديار. وقال ابن حجر: فلا يسمع شيئًا ولا يبصر ولا يبطش ولا يمشي، إلا وشهد أني الموجد لذلك والمقدر له، فيصرف جميع ما أنعمت به عليه إلى ما خلق لأجله من طاعتي، فلا

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (4/ 1542).

² المصدر السابق، (9/ 3759).

³ المصدر السابق، (8/ 3145).

⁴ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/ 1231).

⁵ المصدر السابق، (4/ 1560).

يستعمل سمعه وغيره من مشاعره إلا فيما يرضيني ويقره مني، فلا يتوجه لشيء إلا وأنا منه بمراى ومسمع، فأنا له عين ويد ورجل وعون ووكيل وحافظ ونصير، كما هو جلي عند أئمة العرفان دون غيرهم، إذ لا يؤمن عليهم لضيق العبادة عما يوهم لغير ذوي الإشارة من الأغاليط التي هي الحلول والاتحاد والانحلال عن رابطة الشرع الملحثة إلى مضايق الضلال. ومن هذا يتضح لك قاعدة مهمة وهي: أن ما أشكل عليك من عبارات الأولياء فإن أمكن تأويلها فبادر إليه كقول أبي يزيد: ليس في الجبة غير الله، فإن لم يمكن فإن صدرت في مقام غيبة فلا حرج على قائلها؛ لأنه غير مكلف حينئذ، وكذا إن وقع الشك في ذلك، وإن صدرت مع تحقق صحوه أقيم عليه حكمها الشرعي، إذ الولي ليس بمعصوم، والمحفوظ ربما فرط منه ما عوتب به ثم عاد إليه حاله⁽¹⁾.

وأما الحديث الرابع: ((إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ ! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ ! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقي. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ ! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟)) **فقال الإمام القاري في شرحه:** (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة): على لسان ملك أو بلا واسطة بالوحي العام، أو بالإلهام في قلوب الأنام، أو بلسان الحال معاتباً لابن آدم في تلك الأحوال بما قصر في حق أوليائه بالأفضال. "يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني": أراد به مرض عبده، وإنما أضاف إلى نفسه تشريعاً لذلك العبد، فنزله منزلة ذاته، والحاصل أن من عاد مريضاً لله فكأنه زار الله. "قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟!" حال مقررة لجهة الإشكال الذي يتضمنه. "كيف" أي: المرض وإنما يكون للمريض العاجز، وأنت القاهر القوي المالك. فإن قيل: الظاهر أن يقال: كيف تمرض مكان كيف أعودك؟ ! قلنا: عدل عنه معتذراً إلى ما عوتب عليه. وهو مستلزم لنفي المرض. "قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني أي: لوجدت رضائي "عنده؟" وفيه إشارة إلى أن للعجز والانكسار عنده تعالى مقداراً واعتباراً... وفيه إشارة إلى حديث: "لا يزال عبدي يتقرب"⁽²⁾.

وقال عن المعية في موضع آخر: (وقال الطيبي: معنى قوله: الله ثالثهما جاعلها ثلاثة بضم نفسه تعالى إليهما في المعية المعنوية التي أشار إليها بقوله سبحانه: {إن الله معنا} [التوبة: 40] ثم قال: فإن قلت: أي فرق بين هذا، وبين قوله تعالى لموسى وهارون: {لا تخافا إنني معكما} [طه: 46]؟ قلت: بينهما بون بعيد، لأن معنى قوله: (معكما) ناصركما وحافظكما من مضره فرعون ومعنى قول: الله ثالثهما إن الله تعالى جاعلها ثلاثة، فيكون سبحانه أحد الثلاثة، وإن كل واحد منهم مشترك فيما له وعليه من النصرة والخذلان... ثم رفع وهم المعية الكائنة بالحجة السبحانية والبينة البرهانية، حيث عمم الحكم بقوله: {ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا} [المجادلة: 7])⁽³⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (4/1545). قلت: ليس قوله صلى الله عليه وسلم ناقلًا عن ربه تعالى: (كنت سمعه... وبصره... الخ) من أحاديث الصفات، ولكني أدخلته هنا لأنه مشكل في تفهيمه، وظاهره غامض على الأفهام. وأما صفة التردد التي في آخر الحديث فقد تقدم شرحها وكلام الإمام القاري عليها في مبحث مستقل.

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/1123).

³ المصدر السابق (3/1123).

قلت: فتبين مما تقدم وجوه المعية ومعاني النفس الرحمانية وهي ما يلي:

1- المعية: التوفيق والعناية والهداية.

2- المراد: يسمع ما يقول.

3- معه بعلمه سبحانه.

4- معه بالحفظ والحماية.

5- معه بتنزيلاته الرحمانية.

6- كناية عن الشرف والقربة.

ووجهان لم يذكرهما الإمام القاري:

7- بالقرب والمشاهدة. وهو قول ابن بطل.

8- أو: بالإيناس للذاكر. وهو قول الكشميري.

والمراد ب: (ذكرته في نفسي):

1- الأسرار بإثابته على منوال عمله.

ووجهان لم يذكرهما الإمام القاري:

2- أو: النفس: الذات.

3- أو: النفس: الغيب. وهو قول المازري.

والمراد بالعندية: العلم. أي: ثبوت ذلك في العلم.

قلت: هذا ملخص أقوال العلماء في هذا الحديث الشريف، ولتؤيد البحث بجملة يسيرة من الأقوال الوفيرة للعلماء المحققين⁽¹⁾ في مسألة المعية والنفس الرحمانية.

نصوص بعض العلماء

أورد ابن عبد البر: "عن عبد الله بن موسى الضبي قال: سألت سفيان الثوري عن قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) قال: علمه"⁽²⁾. وقال ابن بطل رحمه الله: (وما ذكر في الأحاديث من ذكر النفس، فالمراد به إثبات نفس لله، والنفس: لفظة تحمل معان، والمراد بنفسه تعالى: ذاته، فنفسه ليس بأمر يزيد عليه، فوجب أن تكون نفسه هي هو، وهذا إجماع)⁽³⁾.

وأول القاضي عياض المعية بالقرب والمشاهدة ثم ذكر معاني النفس ورجح منها ما يصلح للإطلاق على الله تعالى فقال: ("وأنا معه حين يذكرني " يجوز أن يكون معناه: معه بالقرب والمشاهدة والذكر بالقلب، لأنه إذا شاهده بذكر قلبه ذكره بلسانه، ويجوز أن يكون معه حائطه وكالته أي: موقفه لذكره وهاديه. " قال الإمام: النفس في اللغة تطلق على معاني شتى، منها: نفس الإنسان الحيوانية، وذلك لا يليق بالله سبحانه وتعالى. ومنها: النفس بمعنى الدم، ولا يليق بالله تعالى أيضا. والنفس بمعنى الذات، والباري سبحانه وتعالى له ذات على الحقيقة، وتكون النفس بمعنى الغيب، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: {تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك} [المائدة: 116] أي: تعلم غيبي ولا أعلم غيبك، فيصح أن يراد بالحديث هاهنا: أن العبد إذا ذكر الله عز وجل، خاليا، بحيث لا

¹ انظر: ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (6/ 47)، والبيضاوي، تحفة الأبرار (14/2-15) والطبي، شرح المشكاة (5/ 1723) وابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (33/ 246-251). والبرماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (17/ 351-352). والكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (11/ 217-218) والسيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح (9/ 4279)، وركريا الأنصاري، منحة الباري (10/ 345).

² ابن عبد البر، التمهيد (7/ 142).

³ ابن بطل، شرح صحيح البخاري، (10/ 427-428).

يطلع عليه أحد، قضى له بالخير، وقد قال الله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين} [السجدة: 17] فأخبر سبحانه أنه منفرد بعلم بعض ما يجزي به المتقين⁽¹⁾.

ونزّه الإمام الطيبي المولى سبحانه عن مشابجة الحوادث فقال: (وقوله: "ذكرته في نفسي" جاء علي سبيل المشاكلة؛ لأن المراد من قوله: "في نفسه" قلبه وسره؛ ولأنه جعل النفس ظرفاً للذكر، تعالى الله أن يتصف بهما)⁽²⁾.

وذكر الإمام ابن رجب الحنبلي سبب تخليط المشبهة وبعض أهل الضلال من القائلين بالحلول والاتحاد فقال هو الجهل وسوء الفهم، وإليك نصه: (ومن فهم من شيء من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً، فإنما أتى من جهله وسوء فهمه عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله بريهان من ذلك كله، فسبحان من ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير)⁽³⁾.

وقال ابن الأنباري: (أي: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في غيبك. وقال الزجاج: النفس عند أهل اللغة على معنيين: أحدهما: أن يراد بها بعض الشيء، والآخر: أن يراد بها الشيء كله، فالمعنى: تعلم حقيقتي وما عندي، والدليل عليه قوله تعالى: {إنك أنت علام الغيوب} [المائدة: 116] وقال غيره: تعلم غيبي ولا أعلم غيبك، وقيل: تعلم ما في نفسي ولا أعلم أنا ما فيها فأضاف نفسه إلى الله تعالى؛ لأنه خالقها)⁽⁴⁾. وقال الإمام الكرمانى: (و{عند} لا يصح حمله على الحقيقة لأنه من صفات الأجسام فهو إشارة إلى ثبوته في علمه... و {مع} أي بالعلم إذ هو سبحانه وتعالى منزّه عن المكان)⁽⁵⁾.

وقال ابن الملك: ("وأنا معه"؛ أي: مع عبدي "إذا ذكرني"، أراد به: المعية بالمعونة والرحمة والتوفيق، وقيل: بالعلم؛ أي: أنا عالم به، لا يخفى علي شيء من قوله: "فإن ذكرني في نفسه"؛ أي: سرّاً وخفية؛ إخلاصاً وتجنباً عن الرياء "ذكرته في نفسي"؛ أي: أسر بثوابه، لا أكله إلى أحد من خلقي، وذكره تعالى العبد: هو حسن القبول منه، والمجازاة له بالحسن)⁽⁶⁾.

وقال أنور شاه الكشميري: (وهكذا ورد في لفظ: "أنا معه إذا ذكرني"، فمعنيته تعالى هي من خاصة ذكره جل مجده. فإن الإنسان يشتمز من الوحدة والانفراد، ويحرص على أن يكون معه آخر يستأنس به. فمن ذكر الله تعالى، فإنه يجده عنده ومعه يستأنس به، ويستلذ بقربه. كيف لا وهو الرفيق الأعلى)⁽⁷⁾.

الترجيح

لقد أجمع السلف والخلف على تأويل المعية لاستحالة عدة أمور: إذ كيف يكون الله بذاته سبحانه مع المخلوقات في الأرض ومع الملائكة في السماء ومستويّاً فوق العرش؟! فإن قال مثبوتوا الجهة: المراد بالمعية هنا التوفيق، أو: الإيناس، أو: أي وجه مما تقدم، فقد أولوا، ومن يثبتون الجهة للباري سبحانه يُحرّمون التأويل؛ ويرمون صاحبه بالضلال والتعطيل! وإن قالوا: هذا مستثنى ويجوز فيه التأويل خاصة، فما دليل الاستثناء والخصوصية من بين أحاديث الصفات؟! وهذا ترجيح بغير مرجح فيكون باطلاً، فلا بُدَّ من اتباع أهل الحق من السلف الصالح والخلف الوارث، فإما: تسليمٌ وتفويضٌ بدون إثبات الظواهر مع نفي التشبيه والتجسيم، وإما: تأويلٌ بما يليق بالباري سبحانه مع تنزيهه ضمن حدود اللغة الشريفة لغة القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم. ونسأل الله الهداية والمعونة والتوفيق إنه معنا حيثما كنا وهو بكل شيء عليم.

¹ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/ 172-173).

² الإمام الطيبي، شرح المشكاة (5/ 1723).

³ ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (المتوفى: 795هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. تحقيق: محمد الأحدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1424 هـ (1/ 134).

⁴ انظر: ابن الملك، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (33/ 246).

⁵ الإمام الكرمانى، الكواكب الدراري (25/ 118).

⁶ ابن الملك، شرح المصابيح لابن الملك (3/ 84).

⁷ أنور شاه الكشميري، فيض الباري على صحيح البخاري (6/ 556).

المبحث العاشر

أحاديث الفرح

الحديث الأول

(52)[2332]- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم، كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(53)[2358]- عن الحارث بن سويد رضي الله عنهما قال: حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حديثين: أحدهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه؛ قال: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا - أي: بيده - فذبه عنه). ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل، نزل في أرض دوية، مهلكة معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ؛ فإذا راحلته عنده، عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده))⁽²⁾. قلت: وجوه إزالة إشكال الحديثين الشريفين التي ذكرها الإمام القاري رحمه الله هي كالآتي:

1- الرضا.

2- تقع التوبة في القبول والرضا موقع يوجب الفرح ممن يتصور في حقه الفرح.

3- المراد الترغيب في التوبة.

4- التفويض وعدم التفتيش عن معاني هذه الألفاظ المشككة.

والوجوه التي لم يذكرها:

5- السرعة إلى القبول.

6- كناية عن حسن الجزاء وإحسان الله للعبد وتجاوزه عنه.

7- المراد: ثمرة الفرح ومن فرح بشيء جاد لفاعله فهو: كناية عن عطاء الباري وجوده لمن رضي منه فعله.

8- المراد: أن الله ييسر رحمته على عبده التائب.

أما الحديث الأول: (لله أشد فرحًا..): فقال فيه الإمام القاري: ("لله": بفتح لام الابتداء أو: القسم) (أشد فرحًا) أي: رضا، يعني: أَرْضَى⁽³⁾ (بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم) أي: من فرح أحدكم وسروره ورضاه، يعني: تقع التوبة من الله تعالى في القبول والرضا موقعًا يقع في مثله ما يوجب فرط الفرح ممن يتصور في حقه ذلك. قال

¹ رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحظ على التوبة والفرح بها، (رقم: 2747).

² رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، (رقم: 6308)، الموقوف والمرفوع، وروى مسلم المرفوع فقط، كتاب التوبة، باب في الحظ على التوبة والفرح بها، (رقم: 2744).

³ قارن: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (3129/8).

الطبي: المراد كمال الرضا، لأن الفرح المتعارف لا يجوز عليه تعالى، والمتقدمون من أهل الحديث فهموا من أمثال ذلك ما يرغب في الأعمال الصالحة، ويكشف عن فضل الله تعالى على عباده مع كونه منزها عن صفات المخلوقين ولم يفتشوا عن معاني هذه الألفاظ، وهذه هي الطريقة السليمة، وقلما يزيغ عنه قدم الراسخ⁽¹⁾.

وأما الحديث الثاني (لله أفرح): فقال فيه الإمام القاري: ("أفرح" أي: أَرْضَى "بتوبة عبده المؤمن" أي: من المعصية إلى الطاعة. قال الطبي: لما صور حال المذنب بتلك الصورة الفظيعة أشار إلى أن الملجأ هو التوبة والرجوع إلى الله تعالى. يعني فحصلت المناسبة بين الحديثين من الموقف والمرفوع). - ثم قال: - (وفي الحديث إشارة إلى قوله تعالى: {إن الله يحب التوابين} [البقرة: 222] وإنهم بمكان عظيم عند رب كريم رؤوف رحيم)⁽²⁾.

نصوص بعض العلماء

قال ابن قرقول⁽³⁾ (569هـ): (وقوله: "لله أشد فرحاً" الفرح هاهنا وفي أمثاله: الرضا، والسرعة إلى القبول، وحسن الجزاء؛ لأن السرور الذي هو انبساط النفس في حقه محال، لكن في طي ذلك الرضا عما يُسُرُّ به، عبر عنه به مبالغة)⁽⁴⁾.

وقال الإمام النووي: (قال العلماء فرح الله تعالى هو رضاه وقال المازري الفرح ينقسم على وجوه منها السرور والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به قال فالمراد هنا أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة فعبّر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريره)⁽⁵⁾.

وقال الإمام التوريشتي: ("لله أشد فرحاً"... وقد فسروا الفرح - هاهنا - بالرضا... ولما أراد أن يبين للعباد أن للتوبة عند الله أحسن موقع عبر عنه بالفرح الذي عرفوه من أنفسهم في أولى الأشياء، وأحبها إليهم؛ ليهتدوا إلى المعنى المراد منه ذوقاً وحالاً، وذلك بعد أن عرفهم أن إطلاق تلك الألفاظ في صفات الله تعالى على ما يتعارفونه في نفوسهم غير جائز، وهذا باب يعرف في كثير من وجوه المشابهات، ولا يجوز لأحد أن يتعاطى هذا النوع في كلامه ويتسع فيه إلا للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز له مالا يجوز لغيره لبراءة نطقه عن الهوى؛ ولأنه لا يقدم على ذلك إلا بإذن من الله تعالى، وهذه رتبة لا تنبغي لأحد إلا له صلى الله عليه وسلم)⁽⁶⁾.

وقال البيضاوي: (أي: تقع التوبة من الله تعالى في القبول والرضا به موقعاً يقع في مثله ما يوجب فرط الفرح ممن يتصور في حقه ذلك)⁽⁷⁾. وقال المظهري: (قوله: "لله أشد فرحاً" الفرح في صفة الله تعالى والضحك: عبارة عن الرضا؛ يعني: لله أشد رضا بتوبة عبده من فرح أحدكم إذا وجد راحلته بعد اليأس منها)⁽⁸⁾.

وأول الفرح بالرضا ثم أتى بأقوال العلماء الإمام ابن حجر (... قال ابن العربي: كل صفة تقتضي التغير لا يجوز أن يوصف الله بحقيقتها فإن ورد شيء من ذلك حمل على معنى يليق به وقد يعبر عن الشيء بسببه أو: ثمرته الحاصلة عنه فإن من فرح بشيء جاد

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (4/ 1616-1617).

² المصدر السابق (4/ 1633-1634).

³ إبراهيم بن يوسف بن عبد الله بن باديس أبو إسحاق ابن قرقول الحمزي، كان فاضلاً وصحب جماعة من العلماء بالأندلس ولد بالمرية سنة 505هـ وتوفي بفاس رحمه الله سنة 569هـ وكان رجلاً في طلب العلم فقيها نظاراً أديباً حافظاً بصيراً بالحديث صنف وكتب الخط الأنيق وكان رفيقاً للسهيلي أخذ عن ابن خفاجة ديوانه ولما حضرته الوفاة تلا سورة الإخلاص وجعل يكررها بسرعة ثم إنه تشهد ثلاث مرات وسقط عل وجهه ساجداً ومات. انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد (المتوفى: 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت. (1/ 62-63)، و الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (المتوفى: 764هـ)، الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت. 1420هـ، (6/ 109)، والزركلي، الأعلام (1/ 81-82).

⁴ ابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار (5/ 211). وانظر: الكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البحاري (10/ 59).

⁵ الإمام النووي، شرح صحيح مسلم (17/ 60-61).

⁶ التوريشتي، الميسر في شرح مصابيح السنة (2/ 542).

⁷ البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (2/ 72).

⁸ المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (3/ 180).

لفاعله بما سأل ويذل له ما طلب فعبر عن عطاء الباري وواسع كرمه بالفرح. وقال ابن أبي حمزة (699هـ)¹: كفى عن إحسان الله للتائب وتجاوزة عنه بالفرح لأن عادة الملك إذا فرح بفعل أحد أن يبالغ في الإحسان إليه. وقال القرطبي في المفهم: هذا مثل قصد به بيان سرعة قبول الله توبة عبده التائب وأنه يقبل عليه بمغفرته ويعامله معاملة من يفرح بعمله... وإلا فالفرح الذي هو من صفات المخلوقين محال على الله تعالى لأنه اهتزاز وطرب يجده الشخص من نفسه عند ظفرك بغرض يستكمل به نقصانه ويسد به خلته أو يدفع به عن نفسه ضرراً أو نقصاً وكل ذلك محال على الله تعالى فإنه الكامل بذاته الغني بوجوده الذي لا يلحقه نقص ولا قصور لكن هذا الفرح له عندنا ثمرة وفائدة وهو الإقبال على الشيء المفروح به وإحلاله المحل الأعلى وهذا هو الذي يصح في حقه تعالى فعبر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب في تسمية الشيء باسم ما جاوره أو كان منه بسبب وهذا القانون جار في جميع ما أطلقه الله تعالى على صفة من الصفات التي لا تليق به وكذا ما ثبت بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم².

وأول الإمام القسطلاني الفرخ بالرضا ثم قال: (والسلف فهموا منه ومن أشباهه ما وقع الترغيب فيه من الأعمال والإخبار عن فضل الله، وأثبتوا هذه الصفات له تعالى ولم يشتغلوا بتفسيرها مع اعتقادهم تزويجه تعالى عن صفات المخلوقين، وأما من اشتغل بالتأويل فله طريقان: أحدهما: أن التشبيه مركب عقلي من غير نظر إلى مفردات التركيب بل تؤخذ الزيادة والخلاصة من المجموع وهي غاية الرضا ونهايته، وإنما أبرز ذلك في صورة التشبيه تقريراً لمعنى الرضا في نفس السامع وتصويراً لمعناه. وثانيهما: تمثيلي وهو أن يتوهم للمشبه الحالات التي للمشبه به وينتزع له منها ما يناسبه حالة حالة بحيث لم يختلط منها شيء)³. وقال العزيزي: (والمراد أن الله سبحانه وتعالى يسطر رحمته على عبده التائب)⁴.

الترجيح

سبحان من رغب العباد بالتوبة فهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويرضى منهم بالتوبة بعد مقارفة الذنوب، فإذا تقبل التوبة رضي، وإذا رضي بسط رحمته على عبده التائب، فقد صار في مقام عالٍ هو مقام المحبوبة، {إن الله يحب التوابين} [البقرة: 222] فليأمل التائب من حسن الجزاء؛ ما يجعلنا نفوِّض إلى الله ما تضمنته كلامُ النبي صلى الله عليه وسلم من المعاني. وقد فسّر الفرخ بالرضا جمهوّر العلماء⁵. وهو لازم الفرخ والتعبير باسم الشيء مع إرادة لازمه شائع جداً في اللغة العربية لا يمنع منه عقل ولا نقل، ولذلك اقتصر عليه الإمام القاري في شرحه للحديث الثاني، والله أعلم.

¹ ذكر التبنكي ومحمد مخلوف أن وفاته كانت سنة (699هـ) وقال القنوجي والزركلي أنها سنة (695هـ) ووهوم الأدنه وي فقال أن وفاته (525هـ). انظر: التبنكي، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد (المتوفى: 1036 هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، الطبعة الثانية، 2000 م. (ص: 216)، والأدنه وي، أحمد بن محمد (من علماء القرن الحادي عشر)، طبقات المفسرين. تحقيق: سليمان بن صالح الحزري، مكتبة العلوم والحكم - السعودية، الطبعة: الأولى، 1417هـ، (ص: 162)، و القنوجي، التاج المكلل (ص: 386)، ومخلوف، محمد بن محمد (المتوفى: 1360هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ (1/ 285)، و الزركلي، الأعلام (4/ 89).

² شيخ الإسلام ابن حجر، فتح الباري (11/ 106).

³ الإمام القسطلاني، إرشاد الساري (9/ 178).

⁴ العزيزي، السراج المنير شرح الجامع الصغير (4/ 116).

⁵ انظر: الخطاطي، أعلام الحديث (3/ 2238)، وابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 186-188)، والمازري، المعلم بفوائد مسلم (3/ 331)، والقاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/ 240)، والطبي، شرح المشكاة (6/ 1842)، وابن الملقن، المعين على تفهم الأربعين (ص: 444)، والحافظ العراقي، طرح التثريب في شرح التقریب (8/ 237-238)، وابن الدماميني، مصابيح الجامع (9/ 391)، والبرماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (15/ 347)، وابن الملك، شرح المصابيح (3/ 139)، والسيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح (8/ 3776) وشرح صحيح مسلم (6/ 91)، وزكريا الأنصاري، منحة الباري (357/9)، والمناوي، فيض القدير (5/ 252)، والتيسير بشرح الجامع الصغير (2/ 286)، ومحمد البكري الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (97/1)، والصنعاني، التجبير لإيضاح معاني التيسير (2/ 513) والتنوير شرح الجامع الصغير (9/ 6).

المبحث الحادي عشر

أحاديث التأذي

الحديث الأول

(54)[22]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(55)[747]- عن السائب بن خلاد رضي الله عنه قال: ((إن رجلاً أمَّ قومًا، فبصق في القبلة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومه حين فرغ: لا يصلي لكم، فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم، فمنعوه، فأخبروه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: نعم، وحسبت أنه قال: (إنك قد آذيت الله ورسوله))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(56)[6014]- عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا من بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه))⁽³⁾.

الحديث الأول مشكل من وجوه الأول: (يؤذيني ابن آدم)، والثاني: (وأنا الدهر)، (فإن الله هو الدهر) وسيمر في المطلب الآتي. فأما إشكال نسبة التأذي للمولى عز وجل في الحديث الأول فقد ذكر الإمام القاري عدة وجوه لتأويله:

1- يقول في حقي ما أكره.

2- ينسب إلي ما لا يليق بي.

3- ينسب إلي ما يتأذى بمثله من يصح في حقه التأذي.

4- هو إيصال المكروه للغير بقول أو فعل ولو لم يتأثر به.

5- التفويض والتسليم مع التنزيه.

وقال غيره:

6- يؤذي أنبيائي ورسلي.

7- يخالفني ابن آدم.

8- المراد: من وقع ذلك منه تعرض لسخط الله.

وأما الإيذاء في الحديث الثاني فوجوه تأويله:

1- آذيت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: أي: خالفتهما.

¹ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (وما يهلكنا إلا الدهر)، (رقم: 4826). وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (رقم: 7491). ورواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، (رقم: 2246). ولفظ مسلم في إحدى الروايتين: ((قال الله عز وجل: " يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر فإنني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما)).

² رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في كراهية البزاق في المسجد، (رقم: 481).

³ رواه الترمذي، أبواب المناقب، باب فيمن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، (رقم: 3862)، وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

- 2- آذيت الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر الله للتبرك.
- 3- إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره منزل منزلة إيذاء الله. قالهم الإمام القاري.
- 4- فعلت فعلاً لا يرضي الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم. قاله العيني.

وأما قوله: (بيدي الأمر) فقال فيه:

- 1- الأمور تحت تصرفي وهو مجاز عن القدرة. - وقد تقدم الحديث عن صفة اليد في مبحث مستقل -.

أما الحديث الأول: (يؤذني ابن آدم..) فقال فيه الإمام القاري: ("قال الله تعالى: يؤذني... أي: يقول في حقّي "ابن آدم" ما أكرهه، وينسب إلي ما لا يليق بي. أو: ما يتأذى به من يصح في حقه التأذي؛ ولذا قيل: هذا الحديث من المشابه؛ لأن تأذي الله تعالى محال، فإذا أن يفوض، وإما أن يؤول كما تقدم. وقد يطلق الإيذاء على إيصال المكروه للغير بقول أو فعل، وإن لم يتأثر به، فإذا الله تعالى: فعل ما يكرهه، وكذا إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنه قوله تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} [الأحزاب: 57] ⁽¹⁾.

وأما الحديث الثاني فقال فيه الإمام القاري: (إنك قد آذيت)، أي: (خالفت الله ورسوله): وفيه تشديد عظيم، قال تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً} [الأحزاب: 57] وذكر الله تعالى للتبرك، أو لبيان أن إيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم لمخالفة نهي - لاسيما بحضرته - مُنَزَّل منزلة إيذاء الله تعالى، كذا ذكره ابن حجر، وهذا منه مبني على جعل الإيذاء على حقيقته ⁽²⁾.

وأما الحديث الثالث (ومن آذاني فقد آذى الله) فقال فيه الإمام القاري: ("ومن آذاني فقد آذى الله" ونظيره: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: 80]. "ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه"، أي: يعاقبه في الدنيا أو في الآخرة، ولعله مقتبس من قوله تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً}-والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً} [الأحزاب: 57 - 58] ⁽³⁾.

نصوص بعض العلماء

قال ابن بطال (الأذى لا يلحق بالله، وإنما يلحق من تتعاقب عليه الحوادث، ويلحقه العجز والتقصير عن الانتصار، والله تعالى منزّه عن ذلك، فوجب أن يرجع الأذى المضاف إليه تعالى إلى أنبيائه ورسوله، والمعنى يؤذي ابن آدم أنبيائي ورسلي بسبب الدهر؛ لأن ذلك ذريعة إلى سب خالق الدهر، ومصرف أفضيته وحوادثه. وقوله: (وأنا الدهر) أي: أفعل ما يجرى به الدهر من السراء والضراء) ⁽⁴⁾.

وقال القاضي عياض: (قوله: "يؤذني ابن آدم" قال الإمام: هو مجاز، والباري تعالى لا يتأذى من شيء، فيحتمل أن يريد: أن هذا عندكم إذا قاله بعضهم لبعض؛ لأن الإنسان إذا أحب آخر لم يصح أن يسبه لعلمه أن السب يؤذيه، والمحبة تمنع من الأذى، ومن فعل ما يكرهه المحبوب، وكأنه قال: يفعل ما أئواه عنه، وما يخالفني فيه، والمخالفة فيها أذى فيما بينكم، فيجوز فيها في حق الباري سبحانه) ⁽⁵⁾.

وقال المظهر (727هـ): ("يؤذني ابن آدم"، الإيذاء: إيصال شيء يكرهه من القول أو الفعل سواء أثر فيه أو لم يؤثر فيه، وإيذاء بني آدم رحمهم تعالى لم يؤثر فيه ولم يضره بل يضر القائلين، فإذا كان كذلك يكون معنى "يؤذني ابن آدم": يقول لي ابن آدم ما أكرهه

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (1/ 96).

² المصدر السابق (2/ 625).

³ المصدر السابق، (9/ 3880).

⁴ ابن بطال، شرح صحيح البخاري (10/ 499).

⁵ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (7/ 184).

وأبغضه، ولا يليق بحضرتي⁽¹⁾. وقال الكرماني (786هـ): قوله: "يؤذيني" هذا من التشابهات، وكذلك اليد، والدهر، فإما أن يفوز، وإما أن يؤول: بأن المراد من الإيذاء النسبة إليه تعالى ما لا يليق به وباليده القدرة و "بالدهر" المدهر، أي: مقلب الدهر، والقرينة بعد الدلائل العقلية على تنزيهه من كونه نفس الزمان لفظاً: (أقلب الليل والنهار) إذ هو كالمبين للمقصود منه وفي بعض الروايات بالنصب أي: أنا ثابت في الدهر باق عليه⁽²⁾.

وقال الإمام العيني: (إنك أذيت الله ورسوله "؛ والمعنى: إنه فعل فعلاً لا يرضي الله ولا رسوله)⁽³⁾.

وقال القسطلاني: ("قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم" أي بأن ينسب إلي ما لا يليق بجلاي وهذا من التشابهات والله تعالى منزّه عن أن يلحقه أذى إذ هو محال عليه فهو من التوسع في الكلام، والمراد: أن من وقع ذلك منه تعرض لسخط الله تعالى)⁽⁴⁾.
قلت: وعلى مثل ذلك جمهور أهل الحديث⁽⁵⁾.

الترجيح

لقد قال الله تعالى في الحديث القدسي المحكم: ((يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني))⁽⁶⁾، فكان هذا قرينة مانعة من إرادة التأذي الحقيقي في حديث: (يؤذيني ابن آدم). وتتمة الحديث: (وأنا الدهر): والدهر هو الزمان، وهو يفنى بفناء الشمس والقمر في الدنيا، فكان هذا قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ومن تسمية الله تعالى بالدهر؛ فوجب النظر في المعاني التي يفيدها هذا الحديث الشريف بشكلٍ سائغ مستعمل في اللغة، فكان أولى ما يقال - والله أعلم - : [يقول في حقي ما يتأذى بمثله من يصح منه التأذي؛ مما لا يليق بي، ومما أكرهه، ويؤذي نبيي بإيذاء أصحابه، ويخالف أمري فيسبُ الدهر وحوادثه، مع علمه بأنني أنا فاعلها المطلق الحقيقي، وأنا المتصرف في هذا الدهر طول الزمان، وكل الأمور بيدي فاعرف عظمة قدرتي]، ويكون هذا الجواب جامعاً لأقوال العلماء في هذه المسألة، وليست أحاديث الصفات مما نستطيع أن نستقل بفهمنا في شرحها، بل نتبع الراسخين ولا نبتدع، ونرد التشابه إلى المحكم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهو ذو الجلال والإكرام، الفعال لما يريد، العزيز المتعالي الذي لا يصل إليه الضر ولا النفع، ولا نقول هو منزّه عن كل نقص، فلعل ذلك يقرب من ترك الأدب، بل نقول: هو منزّه عن كل كمال يخطر ببالنا، فكما لاته سبحانه تليق بربوبيته، وفوق كل كمال يحول في خواطر المخلوقات، سبحانه وتعالى.

¹ المظهر، المفاتيح في شرح المصاييح (107/1).

² الكرماني، الكواكب الدراري (186/25).

³ الإمام العيني، شرح سنن أبي داود (399/2).

⁴ القسطلاني، إرشاد الساري (434/10).

⁵ انظر: الخطابي، أعلام الحديث (3/1904)، ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 278)، وابن عبد البر، التمهيد (18/155)، وابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (6/109-110)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (3/346-348)، والنووي، شرح صحيح مسلم (15/2-3)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصاييح السنة (1/58)، والطبي، شرح المشكاة (2/471)، والكرماني، الكواكب الدراري (18/89)، وابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (23/228-230)، والحافظ العراقي، طرح التثريب في شرح التقريب (8/156-157)، وابن الدمامي، مصاييح الجامع (8/391-392)، والبرماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (12/409-410) و (17/448-449)، وابن حجر، فتح الباري (8/575) و (13/467)، وابن الملك، شرح المصاييح (1/53)، والعيني، عمدة القاري (19/167) و (25/158)، والكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (8/266-267) و (11/273)، والسيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح (7/3027)، وركريا الأنصاري، منحة الباري (8/140)، والقسطلاني، إرشاد الساري (7/339) و (10/434)، والمناوي، فيض القدير (4/480) والتيسير بشرح الجامع الصغير (2/185)، والعزيمي، السراج المنير شرح الجامع الصغير (3/403)، وبرهان الدين ابن حمزة، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف (2/126)، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (7/599-600) والتحجير لإيضاح معاني التيسير (2/360)، والزرقي، شرح الموطأ (4/637) و (4/637)، والعظيم آبادي، عون المعبود وحاشية ابن القيم (14/128-129).

⁶ رواد مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (رقم: 2577).

المبحث الثاني عشر أحاديث (الله الطيب) و (الله هو الدهر)

الحديث الأول

(57)[22] - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(58)[4763] - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تسموا العنب الكرم، ولا تقولوا: يا خيبة الدهر! فإن الله هو الدهر))⁽²⁾.

الحديث الثالث

(59)[4764] - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يسب أحدكم الدهر، فإن الله هو الدهر))⁽³⁾.

الحديث الرابع

(60)[3471] - عن أبي رزمة رضي الله عنه قال: ((دخلت مع أبي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أبي الذي بظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دعني أعالج الذي بظهرك فإني طيب. قال: أنت رفيق والله الطيب))⁽⁴⁾.

دفع الإمام القاري الإشكال في قوله: (أنا الدهر)، (فإن الله هو الدهر) بالوجه التالية:

هو إما على الرفع أو النصب فعلى الرفع قال فيه:

1- أنا الدهر بالرفع: أي خالق الدهر.

2- مصرف الدهر، أو: مقلبه، أو: مدبر الأمور التي نسبوها إليه، فمن سبه بكونه فاعلها عاد سبه إلي؛ لأنني أنا الفاعل لها.

3- هو مصدر بمعنى الفاعل: أي: أنا الداهر المتصرف المدبر.

وقال غيره:

4- الدهر أحد مفعولات الله.

5- الدهر هو فعله سبحانه.

¹ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (وما يهلكنا إلا الدهر)، (رقم: 4826). وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (رقم: 7491). ورواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، (رقم: 2246). ولفظ مسلم في إحدى الروايتين: ((قال الله عز وجل: " يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر فإنني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما)).

² رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لا تسبوا الدهر، (رقم: 6182).

³ رواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، (رقم: 2246).

⁴ رواه أبو داود، أول كتاب الترجل، باب في الخضاب، (رقم: 4207)، ولفظه: ((قال: فقال له أبي: أرني هذا الذي بظهرك، فإني رجل طيب، قال: "الله عز وجل الطيب، بل أنت رجل رفيق، طيبها الذي خلقها)). وإسناده صحيح كما قال الشيخ الأرنؤوط في تحقيقه.

وعلى القول بنصب الدهر؛ قال الإمام القاري:

1- أنا الدهر بنصب الدهر فيكون المعنى: أنا الفاعل أو المتصرف في الدهر.

وقال غيره:

2- أنا الدهر: أي: وأنا طول الدهر أقلب الليل والنهار.

3- أنا ثابت في الدهر باق عليه.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ("يسب الدهر"... يعني ظناً منه أن الدهر يعطي ويمنع ويضر وينفع. "وأنا الدهر" يروى برفع الراء، قيل: هو الصواب، وهو مضاف إليه أقيم مقام المضاف، أي: أنا خالق الدهر، أو: مصرف الدهر، أو: مقلبه، أو: مدبر الأمور التي نسبها إليه، فمن سبه بكونه فاعلها عاد سبه إلي؛ لأنني أنا الفاعل لها، وإنما الدهر: زمان يجعل ظرفاً لمواقع الأمور، وأتى بأداة الدهر مبالغة في الرد على من يسبه، وهم صنفان: ذهري لا يعرفون للدهر خالقاً ويقولون: {وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: 24]، أو: معترفون بالله تعالى لكنهم ينزهونه عن نسبة المكارد إليه، فيقولون: تباً له، وبؤساً، وخيبة، ونحو ذلك. وقد يقع من بعض عوام المؤمنين جهالة وغفلة، ويروى بنصب الدهر على الظرفية، أي: أنا الفاعل أو المتصرف في الدهر. وقيل: الدهر الثاني غير الأول، فإنه بمعنى زمان مدة العالم من مبدأ التكوين إلى أن ينقرض، أو: الزمن الطويل المشتمل على تعاقب الليالي والأيام. بل هو مصدر بمعنى الفاعل، ومعناه: أنا الداهر المتصرف المدبر المفيض لما يحدث.

وقال الراغب: أظهر أن معناه: أنا فاعل ما يضاف إلى الدهر من الخير والشر والمسرّة والمساءة، فإذا سببتم الذي تعتقدون أنه فاعل ذلك فقد سببتموني. "بيدي الأمر": أي: الأمور كلها خيرها وشرها حلوها ومرها تحت تصرفي "أقلب الليل والنهار" كما أشاء بأن أنقص فيهما أو أزيد، وأقلب قلوب أهلها كما أريد⁽¹⁾.

وأما الحديثان الثاني والثالث فقال فيهما الإمام القاري: ("ولا تقولوا: يا خيبة الدهر": الخيبة الحرمان والخسران... وكانوا في الجاهلية إذا أصابتهم مصيبة قالوا: يا خيبة الدهر! يريدون سب الدهر، فنهوا عن ذلك بقوله: "فإن الله هو الدهر" أي: هو ما يضاف إلى الدهر من الخير والشر، أو فإن الله خالق الدهر ومصرفه ومقلبه والمتصرف فيه والدهر مسخر بحكمته⁽²⁾).

ذكر الإمام الخطابي فعل أهل الجاهلية وأن المراد بأن الدهر أن الله هو الفاعل لما يحدث في الدهر ثم قال: (وكان ابن داود ينكر رواية أصحاب الحديث هذا الحرف مضمومة ويقول لو كان كذلك لكان الدهر اسماً معدوداً من أسماء الله عز وجل، وكان يرويه وأنا الدهر أقلب الليل والنهار مفتوحة الراء على الظرف يقول أنا طول الدهر والزمان أقلب الليل والنهار. والمعنى الأول هو وجه الحديث⁽³⁾).

وقال ابن بطال: (وقوله: (وأنا الدهر) أي: أفعل ما يجري به الدهر من السراء والضراء⁽⁴⁾).

وأول الحديث الإمام المازري بأن الله هو الفاعل لما في الدهر ثم قال: (وهذا كما لو قال قائل: القاضي فلان قتل فلانا الزاني فيقول الآخر: الشرع قتله لم يقتله القاضي أو يقول: الشرع هو القاضي وإنما يعني أنه يجب إضافة الشيء إلى ما هو الأصل فيه⁽¹⁾).

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (1/ 96).

² المصدر السابق (7/ 3002).

³ الإمام الخطابي، معالم السنن (4/ 158-159). وانظر: الإمام ابن عبد البر، الاستذكار (8/ 551-552).

⁴ ابن بطال، شرح صحيح البخاري (10/ 499).

وقال القاضي عياض: (ذكر من لا تحقيق له أن الدهر اسم من أسماء الله، وهذا جهل من قائله، وذريعة إلى مضاهاة قول الدهرية والمعتلة... قال بعضهم: هو أحد مفعولات الله تعالى، وقيل: بل هو فعله، كما قيل: أنا الموت، وكما قال تعالى: {ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه} [آل عمران: 143] وإنما رأوا أسبابه، وقد شبه جهلة الدهرية وكفرة المعتلة بهذا الحديث على من لا علم عنده، ولا حجة لهم فيه؛ لأن الدهر عندهم حركات الفلك، وأمد العالم ولا شيء عندهم سواه، ولا صانع عند القائلين يقدم العالم منهم سواه، فإذا كان عندهم هو المراد بالله، فكيف يصرف الدهر؟ ويقلب الشيء نفسه، تعالى الله عن كفرهم وضلالهم⁽²⁾).

وقال الكرمانى (786هـ): (قوله: "يؤذني" هذا من التشابهات، وكذلك اليد، والدهر، فإما أن يفوض، وإما أن يقول: بأن المراد من الإيذاء النسبة إليه تعالى ما لا يليق به وباليد القدرة و "بالدهر" المدهر، أي: مقلب الدهر، والقرينة بعد الدلائل العقلية على تنزيهه من كونه نفس الزمان لفظاً: (أقلب الليل والنهار) إذ هو كالمبين للمقصود منه وفي بعض الروايات بالنصب أي: أنا ثابت في الدهر باق عليه. - ثم ذكر قول الخطابي السابق -)⁽³⁾.

قلت: دفع الإمام القاري الغموض في إطلاق لفظ الطبيب على الله تعالى الوارد في الحديث الشريف (الله الطبيب) بأنه هو الشافي الحقيقي فالطبيب في عرف الناس هو العالم بالداء والدواء والمساعد في الشفاء، أو الشافي المجازي، لكن هذا اللفظ إذا أطلق في حق الله أريد به: الشافي الحقيقي والعالم الحقيقي سبحانه وتعالى، والإمام القاري أتى في هذا الحديث بخلاصة ما قاله العلماء في هذه المسألة.

قال الإمام القاري بعد الحديث الرابع: ("والله الطبيب": أي: هو العالم بحقيقة الداء والدواء، والقادر على الصحة والشفاء، وليس ذلك إلا لله الواحد الموصوف بالبقاء. وقال بعضهم: أي: إنما الشافي المزيل للأدواء، وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام: "فإن الله هو الدهر" أي: الذي تنسبونه إلى الدهر فإن الله فاعله لا الدهر، فلا يوجب جواز تسمية الله طبيياً. قال الطيبي رحمه الله: رأى بظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة وكان ناتئاً، وظن أنه سلعة تولدت من فضلات البدن، فرد صلى الله عليه وسلم كلامه بأن أخرجه مدرجاً منه إلى غيره، يعني ليس هذا مما يعالج، بل يفتقر كلامك إلى العلاج حيث سميت نفسك بالطبيب، والله هو الطبيب، فهو من الأسلوب الحكيم في الصنعة البديعية. قال المظهر: تسمية الله تعالى بالطبيب أن يذكر في حال الاستشفاء: اللهم أنت المصح والممرض والمداوي والطبيب ونحو ذلك، ولا يقال: يا طبيب كما يقال: يا حليم يا رحيم، فإن ذلك بعيد من الأدب؛ ولأن أسماء الله تعالى توقيفية. قال تعالى: {والله الأسماء الحسنى فادعوه بها} [الأعراف: 180] قلت: ولعل بعده من الأدب لكونه موهماً للإطلاق العرفي على المخلوق، كما لا يقال له المعلم، مع قوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء} [البقرة: 31] و {الرحمن - علم القرآن} [الرحمن: 1 - 2] وأما تعليقه بقوله: ولأن الأسماء توقيفية فلا يظهر وجهه إلا إن أراد من حصول التوقيف صحة الدليل أو حصره بما في الأسماء الحسنى المشهورة المعدودة بالتسعة والتسعين، والله تعالى أعلم. وهذا وفي الجامع الصغير: الله الطبيب، رواه أبو داود، عن أبي رثة⁽⁴⁾.

¹ المازري، المعلم بفوائد مسلم (3/ 190-191).

² القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (7/ 184).

³ الكرمانى، الكواكب الدار (25/ 186).

⁴ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (6/ 2272). و انظر: التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (3/ 814)، وابن الملك، شرح المصابيح (4/ 133)، والقسطلاني، إرشاد الساري (8/ 360)، والمناوي، فيض القدير (2/ 99).

الترجيح

فحوى الأحاديث المراد منها: التأدب مع الله تعالى بنسبة الفعل الحقيقي لله تعالى الفعال لما يريد، المالك الحقيقي للدهر والمتصرف الحقيقي فيما يجري فيه، والقادر على الشفاء وصاحب الإذن فيه لمن أراد أن يجريه على يديه من الرفقاء المعالجين، وليس الطبيب والدهر من أسماء الله تعالى بل الشافي الفعال لما يريد الذي هو على ما يشاء قدير هي من أسماء الله تعالى، فالدهر هو الزمان فكيف يطلق على الله تعالى أنه زمان!! ليس هذا من الأدب. إلا إذا أريد أنه خالق الدهر ومديره فتكون اللفظة متماشية مع مراعاة إطلاق الكمالات على الله تعالى.

والله تعالى وإن كان عالماً وطبيباً للعباد إلا أن الطبيب في العرف تطلق على المعالج الحاذق من الناس فلا تصح أن تطلق على الله تعالى إلا على معنى أنه الشافي الحقيقي القادر على الشفاء فحينها يكون هذا الاسم من أسماء الكمال التي يرخص لنا إطلاقها على الله تعالى ومما يدل على ذلك ما في رواية أبي داوود (الله عز وجل الطبيب) فوضع ألفاظ التنزيه (عز وجل) بين اسم الله تعالى ووَصَفِهِ بالطبيب.

الفصل الرابع

أحاديث الصفات الخيرية الموهمة نسبة المكان أو الجهة إلى الله تعالى.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: حديث العماء.

المبحث الثاني: الأحاديث المتعلقة بالفوقية على العرش والكرسي.

المبحث الثالث: حديث الدار.

المبحث الرابع: أحاديث (من في السماء).

المبحث الخامس: أحاديث توهم كون الله في السماء.

.

المبحث الأول

حديث العماء

(61)[5725]- عن أبي رزین رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: ((كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء)) رواه الترمذي وقال: قال يزيد بن هارون: "العماء أي: ليس معه شيء"⁽¹⁾.

أوجه حل الإشكال في الحديث الشريف مما قاله الإمام القاري كما يلي:

- 1- غيب هوية الذات بلا ظهور مظاهر الصفات.
 - 2- العماء هو الحضرة الأحدية.
 - 3- الحضرة الواحدية.
 - 4- حجاب الجلال ولا يعلم كُنْهَهُ أحد.
 - 5- ليس معه شيء.
 - 6- كان العرش في عماء.
 - 7- التفويض مع التنزيه.
 - 8- العمى كل أمر لا تدركه عقول بني آدم.
- ومما قاله غيره:
- 9- العماء صفته سبحانه بمعنى الصادر الأول ويسمى الوجود المنبسط.
 - 10- العماء نور النبي صلى الله عليه وسلم.
 - 11- فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه.
 - 12- العمى بالمقصود أي: لا شيء ثابت لأنه يعمى عن الخلق معرفته.
 - 13- الحديث ضعيف فلا يحتاج إلى تأويل.

بيّن الإمام القاري أنه لا بد من التأويل في هذا الحديث فقال: ("قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟" لا شك أن المكان مع الزمان من جملة خلقه معدودان، فلولا التأويل بحسب الإمكان لأول السؤال وآخره يتعارضان، وسيجيء بيان كشف المعنى من الشراح الأعيان.

-تأويل العماء بالغيب والتجلي:-

¹ رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود (رقم: 3109) وقال: حديث حسن. (وهذا الإسناد صححه الترمذي في موضع وحسنه في موضع فصحه في الرؤيا، أخبرنا الحسن بن علي الخلال حدثنا يزيد بن هارون حدثنا شعبة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبي رزین العقيلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها وقعت قال وأحسبه قال لا تحدث بها إلا ليبياً أو حبيباً) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قال ابن القطان: فيلزمه تصحيح الحديث الأول أو الاختصار على تحسين الثاني يعني: لأن الإسناد واحد). انظر: العظیم آبادي، عون المعبود وحاشية ابن القيم (16/13-17).

"قال: كان في عماء": بفتح العين ممدوداً أي: في غيب هوية الذات بلا ظهور مظاهر الصفات، كما عبر عنه بقوله: ((كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف))⁽¹⁾، وفي قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56] إشارة إليه، ودلالة عليه على تفسير حبر الأمة أي: ليعرفون. قال الشيخ علاء الدولة (736هـ) في كتابه (العروة): فأثبت تحلي الذات أولاً بقوله: (كنت كنزاً مخفياً) ثم تحليه بالصفة الأحدية بقوله: (أحببت أن أعرف) ثانياً. ثم تحليه بالصفة الواحدة بقوله: (فخلقت الخلق لأعرف) ثالثاً. وفي "اصطلاحات الصوفية" للكاشي (730هـ): العماء: هي الحضرة الأحدية عندنا لأنه لا يعرفها أحد غيره، فهو في حجاب الجلال. أقول: ولعله أراد بالأحدية الجمع، فإنها بين غيب الغيوب، وبين أحدية الصوفية، فإنها بين أحدية الجمع وبين الواحدية، وهذه البينونة بالنسبة إلى العلو والسفل، وهذا القول هو الصحيح؛ لأن العماء في اللغة: غيم رقيق يحول بين السماء والأرض، وكذلك الأحدية الصوفية حائلة بين سماء الذات وأرض الكثرة الإجمالية، ثم قال: وقيل: هي الحضرة الواحدة التي هي منشأ الأسماء والصفات، لأن العماء هو الغيم الرقيق، والغيم هو الحائل بين السماء والأرض، وهذه الحضرة الواحدة هي الحائلة بين سماء الأحدية الصرفة، وبين أرض الكثرة الخلقية. وقد جعل العارف الجامي⁽²⁾ شرحاً على هذا الحديث الشريف، فإن كنت تريد التحقيق، عليك بذلك التصنيف، فقد علم كل أناس مشربهم، وتبع كل فريق مذهبهم، هذا

-تأويل العماء بالكناية عن حجب الجلال، وبما لا تدركه العقول:-

وفي (الفائق): العماء: هو السحاب الرقيق، وقيل: السحاب الكثيف المطلق، وقيل: شبه الدخان يركب رأس الجبال، وعن الجرمي: الضباب، وفي النهاية العماء: بالفتح والمد السحاب. وفي القاموس: هو السحاب المرتفع، أو: الكثيف، أو: المطر الرقيق، أو: الأسود، أو: الأبيض، أو: هو الذي هراق مأؤه؛ ولا شك أن واحداً من هذه المعاني لا يناسب المقام التبياني إلا أن يقال: إن السحاب كناية عن حجاب الجلال، وهو عبارة عن حجاب الذات الباعث على سر الصفات المتعلقة بالعلويات والسلفيات؛ ولذا قال أبو عبيد: لا يدري أحد من العلماء كيف كان ذلك العماء، وفي رواية: عمى بالقصر، وهو ذهاب البصر، فقيل: هو كل أمر لا تدركه عقول بني آدم، ولا يبلغ كنهه الوصف، ولا يدركه الفطن. قال الأزهري: نحن نؤمن به ولا نكفيه بصفة أي: نجري اللفظ على ما جاء عليه من غير تأويل مع التنزيه عما لا يجوز عليه من الحدوث والتبديل. "ما تحته هواء، وما فوقه هواء": "ما": نافية فيهما، وفيه إشارة إلى ما سبق في الحديث كان الله ولم يكن معه شيء. قال القاضي: المراد بالعماء ما لا تقبله الأوهام ولا تدركه العقول والأفهام، عبر عن عدم المكان بما لا يدرك ولا يتوهم، وعن عدم ما يحويه ويحيط به الهواء، فإنه يطلق ويراد به الخلاء الذي هو عبارة عن عدم الجسم، ليكون أقرب إلى فهم السامع، ويدل عليه أن السؤال كان عما خلق قبل أن يخلق خلقه، فلو كان العماء أمراً موجوداً لكان مخلوقاً، إذ ما من شيء سواه إلا وهو مخلوق خلقه وأبدعه، فلم يكن الجواب طبق السؤال، والله تعالى أعلم بالخال. وقيل: في الكلام حذف مضاف، كما في قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله} [البقرة:

¹ قال الإمام العجلوني: ((كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً، فعرفتهم بي فعرفوني)): وفي لفظ: (فتعرفت إليهم في عرفوني)، قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في الآلي، والسيوطي، وغيرهم، وقال القاري: (لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} أي: ليعرفوني، كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما، والمشهور على الألسنة كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً في عرفوني، وهو واقع كثيراً في كلام الصوفية، واعتمدوه وبنوا عليه أصولاً لهم). العجلوني، كشف الخفاء (2/ 155-156).

² عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، نور الدين: مفسر، صوفي، فاضل. ولد في جام (من بلاد خراسان) عام: (817هـ) وانتقل إلى هراة. وتفقه، وصحب مشايخ الصوفية، وحج سنة (877هـ) فطاف البلاد، وبلغ صيت فضله إلى الآفاق حتى دعاه السلطان بايزيدخان إلى مملكته، له "تفسير القرآن" و "شرح فصوص الحكم لابن عربي" وشرح الكافية لابن الحاجب وهو أحسن شروحه، وعاد إلى هراة فتوفي بها (898هـ). انظر: طاش كبري زاده، الشقائق النعمانية (ص: 159-160)، وابن العماد، شذرات الذهب (9/ 543)، والزركلي، الأعلام (3/ 296).

[210] ونحوه، فيكون التقدير أين كان عرش ربنا؟ ويدل عليه قوله: {وكان عرشه على الماء} [هود: 7]: المطابق لقوله سبحانه: وكان عرشه على الماء لأنه لو لم يكن السؤال عن العرش لما كان حاجة للتعرض إليه.

-الأسلوب الحكيم في نفي المكان:-

وقال الطيبي رحمه الله: لم يفتقر إلى التقدير، ولا بد لقوله: في عماء بالمد من التأويل، حتى يوافق الرواية الأخرى عمى مقصوراً، وما ورد في الصحاح عن عمران بن حصين: ((كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء))⁽¹⁾، وذلك أن قوله: "ما تحته هواء وما فوقه هواء" جاء تنميماً صوتاً لما يفهم من قوله: "في عماء" من المكان، فإن الغمام المتعارف محال أن يوجد بغير هواء، فهو نظير قوله: "كلتا يديه يمين" على ما سبق فالجواب من الأسلوب الحكيم سئل عن المكان؟ فأجاب عن الإمكان، يعني إن كان هذا مكاناً فهو في مكان، وهو إرشاد له في غاية من اللطف. (رواه الترمذي، وقال: قال يزيد بن هارون): وهو أحد مشايخ شيوخ الترمذي من رواة هذا الحديث (العماء) أي: يعني معناه: (ليس معه شيء): وفيه إيحاء إلى كلام بعض العارفين في هذا الشأن كان الله ولم يكن معه شيء، وهو الآن على ما هو عليه كان، وإشارة إلى قوله تعالى: {كل من عليها فان} [الرحمن: 26]⁽²⁾.

نصوص بعض العلماء

قال الإمام البيهقي: (وجدته في كتابي. "في عماء" مقيداً بالمد، فإن كان في الأصل ممدوداً فمعناه: سحب رقيق. ويريد بقوله: (في عماء). أي: فوق سحب مدبراً له وعالياً عليه، كما قال تعالى: {أأمنتم من في السماء} [الملك: 16] يعني: من فوق السماء. وقال: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه: 71] يعني: على جذوعها. وقوله: "ما فوقه هواء" أي ما فوق السحاب هواء، وكذلك قوله: "وما تحته هواء" أي: ما تحت السحاب هواء، وقد قيل: إن ذلك من العمى مقصوراً، والعمى إذا كان مقصوراً، فمعناه: لا شيء ثابت، لأنه مما يعمى على الخلق لكونه غير شيء، وكأنه قال في جوابه: كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره. كما قال في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ثم قال: (فما فوقه ولا تحته هواء). أي: ليس فوق العمى الذي لا شيء موجود هواء، ولا تحته هواء، لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه، والله أعلم. وقال أبو عبيد الهروي صاحب "الغريين" وقال بعض أهل العلم: معناه أين كان عرش ربنا؟ فحذف اختصاراً كقوله: {واسأل القرية} [يوسف: 82] أي: أهل القرية، ويدل على ذلك قوله: "وكان عرشه على الماء"⁽³⁾.

وذكر المظهري قول الإمام أبي عبيد الآنف ثم قال: (وحكي عن أبي الهيثم أنه قال: هو في عمى مقصور، قال: وهو أمر لا تدركه عقول بني آدم، ولا يبلغ كنهه الوصف، ولا يدركه الفطن. (ما) في: (ما تحته وما فوقه) للنفي؛ أي: ما فوقه وما تحته هواء؛ أي: شيء، والواو في: (وخلق) للحال، و (قد) مقدرة؛ يعني: قد كان الله سبحانه في الأزل في عماء؛ أي: في صفة لا ندري كيفيتها، بل نؤمن بذلك، كما أرادها، ونكل علمها إليه سبحانه، كما نعرف ذاته تعالى، ونؤمن به بلا كيف. فالحاصل: أن هذا وأمثاله وجب على السامع أن يؤمن بظاهره، ويصدق، ويعرض عن التفتيش في حقيقة ذلك حتى لا يقع في التشبيه والتعطيل)⁽⁴⁾.

وقال الإمام التوريشي: (فإن قيل: إن الرواية صحت بأنه العماء ممدوداً قلنا: أيا ما كان فلا افتراق بين الروایتين من حيث المعنى، لأن المراد عن الممدود أيضاً: ما احتجب الله به عن العقول، وحال دون ما استأثر به من الأمر المكنون فغير بالعماء عن الحجاب، والله أعلم)⁽⁵⁾.

¹ رواه البخاري، كتاب بدئ الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، (رقم: 3191)، وكتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء، (رقم: 7418).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (9/3660-3661).

³ الإمام البيهقي، الأسماء والصفات (2/236).

⁴ المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (6/76).

⁵ التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (4/1241).

وقال السندي: ("كان في عماء" بمعنى أنه كان مع عدم شيء آخر، ويكون حاصل الجواب: الإرشاد إلى عدم المكان، وإلى أنه لا أين ثمة، فضلاً عن أن يكون هو في مكان، وقال كثير من العلماء: هذا من حديث الصفات فنؤمن به ونكل علمه إلى علمه، وما في: "ما تحته هواء" نافية، لا موصولة، وكذا قوله: "وما فوقه")⁽¹⁾.

وقال الصنعاني: (قوله: "ما فوقه هواء" أي: ما فوق السحاب وكذلك قوله "وما تحته هواء" أي: ما تحت السحاب. - ثم ذكر قول البيهقي المتقدم ثم قال: - واعلم أن أغرب ما رأيت تفسيرَ العماء بنور النبي صلى الله عليه وسلم، فسره به الشيخ إبراهيم الكردي⁽²⁾ في كتابه "قصد السبيل"، وأطال فيه وقال: إن النور يسمى عماء، قال: لأنه تعالى سمى النبي صلى الله عليه وسلم رحمة في قوله: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: 107] وسمى الغيث رحمة في قوله: {فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها} [الروم: 50]، واستدل بحديث جابر المروي في "المواهب اللدنية" حيث قال: "قلت: يا رسول الله! بأي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلق الله قبل الأشياء فقال: يا جابر! إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حلة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السماوات ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار ثم قسم الرابع أربعة.. الحديث. وأطال في "قصد السبيل" بيان ذلك، وأن نوره صلى الله عليه وسلم أصل الأشياء كلها)⁽³⁾.

وقال القاضي ناصر الدين بن المنير: (وجه الإشكال في الحديث الظرفية والفوقية والتحتية قال: والجواب أن "في" بمعنى على، وعلى بمعنى الاستيلاء، أي: كان مستولياً على هذا السحاب الذي خلق منه المخلوقات كلها، والضمير في "فوقه" يعود إلى السحاب، وكذلك "تحته" أي: كان مستولياً على هذا السحاب الذي فوقه الهواء وتحت الهواء، وروي بلفظ القصر في العمى، والمعنى: عدم ما سواه، كأنه قال: كان ولم يكن معه شيء، بل كل شيء كان عدماً عمى لا موجوداً ولا مدرجاً، والهواء: الفراغ، أيضاً عدم، كأنه قال: كان ولا شيء معه ولا فوق ولا تحت)⁽⁴⁾.

وقال الكشميري: (أقول: الأولى التفويض إلى الله، فإنه أسلم، وقال الصوفية: إن عماء صفته تعالى وجل شأنه هو الصادر الأول ويسمى وجوداً منبسطاً، ويقولون: إن الصفات زائدة لا عين الذات كما نسب إليهم من لا يدري مذهبهم، وقالوا: إن الصادر الأول صدر بالإيجاب وهو قديم، وحاصل الحديث عندهم: كان الله ولم يكن شيء، لأن العماء وغيره من الصفات ليست بغير الله، وقال الشيخ محب الله آبادي الصوفي⁽⁵⁾: إن الوجود المنبسط هو مستقر كل شيء ويتصور عليه الأشياء وتستقر وإنه غير متناه ثم ذكر أن الصوفية يقولون بأن صفات الله تعالى هي ليست عين الذات ولا غيرها بل صفات قائمة بذاته تعالى لازمة له على ما هو مذهب أهل السنة كما صرح به الإمام القشيري وغيره ومن نسب إليهم غير ذلك فقد غلط)⁽⁶⁾.

¹ السندي، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (78/1).

² إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي الشهرزوري الشافعي إمام كبير مجتهد عالم بالحديث ولد في سنة (1025هـ) ببلاد شهران من جبال الكرد، أخذ في بلاده العربية والمنطق والحساب وغير ذلك ثم قرأ في المعاني والبيان والأصول والفقه والتفسير ثم سمع الحديث عن جماعة في غير بلاده كالشام ومصر والحرمين وله مصنفات كثيرة منها: "مسلك الارشاد الى الأحاديث الواردة في الجهاد" و"قصد السبيل" وسكن مكة والمدينة وتوفي سنة (1101هـ) ودفن ببقيع الغرق. انظر: الشوكاني، البدر الطالع (11-12)، والزيكلي الأعلام (35/1).

³ الصنعاني، التحرير لإيضاح معاني التيسير (3/ 671-673). وانظر: القسطلاني، أحمد بن محمد (المتوفى: 923هـ)، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، د. ت. (48/1) قال: (وروى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ... الحديث).

⁴ المباركفوري، تحفة الأحود، (8/ 420-421).

⁵ محب الله الأكبر آبادي الهندي حنفي صوفي، من آثاره: شرح على فصوص الحكم لابن عربي، توفي عام: (1058هـ). انظر: الباباني البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم (المتوفى: 1399هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. طبع بعناية وكالة المعارف الجليلية، استانبول 1951م، د. ت. (2/ 5)، و عمر ابن رضا كحالة الدمشقي (المتوفى: 1408هـ)، معجم المؤلفين. مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. (8/ 179).

⁶ الكشميري، العرف الشذي شرح سنن الترمذي (4/ 276).

وقد ضَعَفَ الحديثُ ابنُ قتيبة، ثم نقل قول أبي عبيد السابق، لكن باقي الشراح كانوا على هذه الوجوه التي ذكرتها⁽¹⁾ وقد نقل اللاحق عن السابق في الغالب، وقول الأزهري، وأبو عبيد، والبيهقي، كانت لهم الصدارة والله أعلم.

الترجيح

صلى الله على من أوتي جوامع الكلم، ما كان لكلماتٍ معدوداتٍ أن تقرر قضيةً عظمى كهذه، مُزيلةً للإشكال، مريحةً للقلب والبال، مُجيدةً مُفيدة، مقررّةً عقيدة، إلا إذا كانت خرجت من مشكاة النبوة، لترقى بمصاييح نور الإيمان في قلوب المؤمنين أعلى مرقاة، من التنزيه والتعظيم لخالق الكون جلّ غلاه، فانظر إلى كلمة (كان في عمي) كيف نفت عن الله تعالى المكان والزمان، والجهات، والبدايات، والنهايات، كان فيما لا يُدرَك من حُجُب الجلال وَغَيْبِ هُويّةِ الذات، بلا ظهور مظاهر الصفات، فهو سبحانه غيب الغيب، والمؤمنون يؤمنون بالغيب. وأقول: لو قُدِّرَ أن رجلاً في غرفة مظلمة تماماً وهو أعمى والغرفة في الهواء ولا جاذبية ثمة؛ فأَيُّ زمانٍ وأَيُّ مكانٍ وأيِّ جهات يتعلقون بهذا المخلوق؟؟

فهذا مخلوق بحالة معينة عَدِمَ عنده الزمانُ والمكانُ والجهاتُ، فكيف لا يقبلُ عقلُ مجسمةِ العصر نفْيَ جَرَيانِ الزمان، والحلول في مكانٍ، ومقابلةِ الجهات عن خالق الأرض والسموات؟! وقد تجلّى النَفْسُ الصوفيُّ الطيّبُ في كلام الإمام القاري في هذا الحديث بوضوح، وكان هذا الحديث محتاجاً لكلام أرباب القلوب في شرحه، الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، الذين يصدّق فيهم قولُ القائل:

إذا سكنَ الغديرُ على صفاءٍ	وجنّبَ أن يحركه النسيمُ
بَدَتْ فيه السماءُ بلا امتزاءٍ	كذاك الشمسُ تبدو والنجومُ
كذاك قلوبُ أربابِ التحلّي	يُرى في صفوها الله العظيمُ.

¹ انظر: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث (ص: 323)، وابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص: 168-169)، والبيهقي، الأسماء والصفات، (2/ 236)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصاييح السنة، (3/ 456)، والإمام الطيبي، شرح المشكاة (11/ 3623). وابن الملك، شرح المصاييح، (6/ 176)، و السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، قوت المغتذي على جامع الترمذي. إعداد الطالب: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، رسالة الدكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، 1424 هـ، (2/ 773-774)، وشرح سنن ابن ماجه للسيوطي وغيره (ص: 16).

المبحث الثاني الأحاديث المتعلقة بالفوقية على العرش والكرسي

الحديث الأول

(62)[5726]- عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه زعم أنه كان جالساً في البطحاء في عصابة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فيهم، فمرت سحابة فنظروا إليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما تسمون هذه؟)). قالوا: السحاب. قال: "والمزن؟" قالوا: والمزن. قال: "والعنان؟" قالوا: والعنان. قال: "هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟" قالوا: لا ندري. قال: "إن بعد ما بينهما إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة والسماء التي فوقها كذلك" حتى عد سبع سماوات. "ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله ما بين سماء إلى سماء ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركهن مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(63)[5735]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: ((هل تدرون ما هذا؟)). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هذه العنان هذه روايا الأرض، يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه، ولا يدعونه". ثم قال: "هل تدرون ما فوقكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف". ثم قال: "هل تدرون ما بينكم وبينها؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال بينكم وبينها خمسمائة عام "ثم قال: "هل تدرون ما فوق ذلك؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "سماءين بعد ما بينهما خمسمائة سنة". ثم قال كذلك حتى عد سبع سماوات "ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض" ثم قال: "هل تدرون ما فوق ذلك؟" قالوا: الله ورسوله أعلم قال: "إن فوق؟ ذلك العرش، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين". ثم قال: "هل تدرون ما الذي تحتكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "إنها الأرض". ثم قال: "هل تدرون ما تحت ذلك؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "إن تحتها أرضاً أخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة". حتى عد سبع أرضين وبين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة". ثم قال: "والذي نفس محمد بيده لو أنكم دَلَّيْتُمْ بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله" ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [الحديد: 3] ((رواه أحمد، والترمذي. وقال الترمذي: قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد: لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش، كما وصف نفسه في كتابه))⁽²⁾.

¹ رواه أبو داود، أول كتاب السنة، باب في الجهمية، (رقم: 4723). بلفظ: (ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك) والترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحاقة، (رقم: 3320). بلفظ: (والله فوق ذلك)، وابن ماجه، أبواب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية، (رقم: 193). بلفظ: (ثم الله فوق ذلك تبارك وتعالى).

² رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، (رقم: 3298)، وقال الترمذي: (هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويروى عن أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة، وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث، فقالوا: إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه. علم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف في كتابه). ورواه الإمام أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، (رقم: 8828)، بلفظ: (ثم قال: "وأيام الله، لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة، لهبط ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [الحديد: 3]. وقال البيهقي عن الحديث أنه منقطع وحكم عليه الشيخ الأرنؤوط في تحقيقه لمسند أحمد بالضعف.

الحديث الثالث

(64)[5727]- عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال: جهدت الأنفس وجاع العيال ونهكت الأموال وهلك الأنعام فاستسق الله لنا فإننا نستشفع بك على الله نستشفع بالله عليك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((سبحان الله سبحان الله)) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال: ((ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا)) وقال بأصابعه مثل القبة عليه ((وإنه لينط أطيط الرجل بالراكب))⁽¹⁾.

الحديث الرابع

(65)[5596]- عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قيل له ما المقام المحمود؟ قال: ((ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه فيعط كما يعط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى: اكسوا خليلي برطتين بيضاوين من رباط الجنة ثم أكسى على أثره، ثم أقوم عن يمين الله مقامًا يغبطني الأولون والآخرون))"⁽²⁾.

أما الحديث الأول: (ثم الله فوق ذلك) فقال فيه الإمام القاري: ("ثم الله" أي: وسعة علمه أو اتساع قدرته في ملكه "فوق ذلك" قال الطيبي رحمه الله: أراد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشغلهم عن السفليات إلى العلويات، والتفكير في ملكوت السماوات والعرش، ثم يترقوا إلى معرفة خالقهم ورازقهم، ويستكفوا عن عبادة الأصنام، ولا يشركوا بالله الملك العلام، فأخذ في الترقى من السحاب، ثم من السموات، ثم من البحر، ثم من الأوعال، ثم من العرش إلى ذي العرش، والفوقية بحسب العظمة لا المكان، فالعنى: أنه عالي الشأن عظيم البرهان، وقال شارح أي: فوق العرش حكماً وعظمة واستيلاء"⁽³⁾.

قلت: ذكر الإمام القاري أربعة وجوه لتأويل الفوقية في هذا الحديث، ونلاحظ أنه رحمه الله لم يذكر في هذا الحديث (التسليم والتفويض) ولعلَّ الإحالة العقلية منعته من أن يجعل هذا الحديث من المتشابهات، إذ يستحيل عقلا

¹ رواه أبو داود، أول كتاب السنة، باب في الجهمية، (رقم: 4726). وقال الشيخ الأرنؤوط: (إسناده ضعيف، محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح بالتحديث، جبير بن محمد -وهو ابن جبير بن مطعم بن عدي- روى له أبو داود هذا الحديث الواحد، وقد تفرد به. وذكر البخاري في "التاريخ الكبير" (2/ 224)، وابن أبي حاتم في "المرجح والتعديل" (2/ 513) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، فهو في عداد المجهولين. قال المنذري في مختصر سنن أبي داود، (7/ 97) فيما نقله عن أبي بكر البزار، قال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه من الوجوه، إلا من هذا الوجه. ولم يقل فيه محمد بن إسحاق: "حدثني يعقوب بن عتبة" هذا آخر كلامه. ثم قال المنذري (7/ 98-101): ومحمد بن إسحاق مدلس، وإذا قال المدلس: عن فلان، ولم يقل: حدثنا، أو سمعت، أو أخبرنا، لا يحتج بحديثه. وإلى هذا أشار البزار، مع أن ابن إسحاق إذا صرح بالسماع اختلف الحفاظ في الاحتجاج بحديثه، فكيف إذا لم يصرح به. وقال الحافظ أبو القاسم الدمشقي: وقد تفرد به يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفي الأحنسي، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم القرشي النوفلي، وليس لهما في "صحيح" أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وأبي الحسن مسلم ابن الحجاج النيسابوري رواية. وانفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب، وابن إسحاق: لا يحتج بحديثه، وقد طعن فيه غير واحد من الأئمة، وكذبه جماعة منهم).

² رواه الدارمي، من كتاب الرقاق، باب في شأن الساعة ونزول الرب تعالى، (رقم: 2842). والحديث ضعيف جداً لضعف عثمان بن عمير. قال الجوزجاني: (عثمان بن عمير الثقفي: غال المذهب منكر الحديث سمعت ابن حنبل يقول هو منكر الحديث وفيه ذاك الداء). الجوزجاني، إبراهيم بن يعقوب (المتوفى: 259هـ)، أحوال الرجال. تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، حديث أكاديمي - فيصل آباد، باكستان، د. ت. (ص: 51)، وقال ابن عدي: (عثمان بن عمير أبو اليقظان كوفي بجلي. حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا أحمد بن سعد الزهري، حدثنا إبراهيم بن عرعرة، قال: سمعت أبا أحمد الزبيري يقول كان الحارث بن حصيرة وعثمان أبو اليقظان يؤمنان بالرجعة... وقال: حدثنا ابن حماد، حدثنا عباس، عن يحيى، قال عثمان أبو اليقظان كوفي ليس حديثه بشيء... وقال النسائي عثمان بن عمير أبو اليقظان كوفي ليس بالقوي). ابن عدي، عبد الله بن عدي الجرجاني (المتوفى: 365هـ)، الكامل في ضعفاء الرجال. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ، (6/ 282-286).

³ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (9/ 3662). واختيار صاحب المصابيح كان للفظ الترمذي. وانظر: كلام الطيبي، شرح المشكاة (11/ 3624).

أن يكون الله تعالى في مكان، إذ الزمان والمكان مخلوقان، والله تعالى متعالٍ ومنزّه عن أن يكون فوق شيء أو تحت شيء بمماسة أو حلول أو استقرار أو ما شابه ذلك من لوازم الجسمية والحدوث. سبحانه هو الملك السبوح القدوس.

والوجوه التي ذكرها الإمام القاري كالآتي:

- 1- المراد: سعة العلم.
- 2- اتساع القدرة في ملكه سبحانه.
- 3- الفوقية بحسب العظمة والشأن.
- 4- الفوقية حكماً وعظمة واستيلاء.¹

وهذه الوجوه هي جماع الوجوه التي ذكرها العلماء في هذه المسألة، ونؤيد قول الإمام القاري بنصوص بعض العلماء.

نصوص بعض العلماء

قال الإمام ابن فورك: (قوله: "والله تعالى فوق ذلك" وقد ذكرنا فيما قبل معنى وصف الله سبحانه بأنه فوق خلقه وأن ذلك راجع إلى فوقية المنزلة والمرتبة وفوقية القدرة والعظمة، وأما الفوقية بالمسافة والمكان فمحال في وصفه. وفائدة الخبر: تعريفنا أنه عز ذكره ممن لا يدخل بين طبقتين ولا ممن هو في كل مكان كما ذهب إليه المخالفون. وإذا استفدنا بهذا الخبر تكذيب هاتين الفرقتين في دعواهما على الله أنه يحل في بعض المخلوقات ويوصف أنه في كل مكان رجع تأويل الخبر إلى ما نقول أنه أراد به أنه غير مختلط ولا ممتزج بشيء من خلقه وأنه بائن مما خلق بينونة الصفة والنعت لا بالتحيز والمكان والجهة)².

وقال الإمام المظهري: ("ثم الله فوق ذلك"، (ذلك) إشارة إلى العرش؛ يعني: الله سبحانه فوق العرش علوّاً بالشأن لا بالمكان، تعالى عما يقول الجاهلون)³.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر: (قوله "في السماء" ظاهره غير مراد، إذ الله منزّه عن الحلول في المكان، لكن لما كانت جهة العلو أشرف من غيرها أضافها إليه إشارة إلى علو الذات والصفات، وينحو هذا أجاب غيره عن الألفاظ الواردة من الفوقية ونحوها، قال الراغب: (فوق) يستعمل في المكان، والزمان، والجسم، والعدد، والمنزلة، والقهر، فالأول: باعتبار العلو ويقابله: (تحت) نحو: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم} [الأنعام: 65] والثاني: باعتبار الصعود والانحدار، نحو: {إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم} [الأحزاب: 10] والثالث: في العدد، نحو: {فإن كن نساء فوق اثنتين} [النساء: 11] والرابع: في الكبر والصغر، كقوله: {بعوضة فما فوقها} [البقرة: 26] والخامس: يقع تارة باعتبار الفضيلة الدنيوية، نحو: {ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات} [الزحرف: 32] أو: الأخروية، نحو: {والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة} [البقرة: 212] والسادس: نحو قوله: {وهو القاهر فوق عباده} [الأنعام: 61]، يخافون ربهم من فوقهم} [النحل: 50] انتهى)⁴.

وقال ابن الملك: (ثم الله فوق ذلك": إشارة إلى العرش؛ أي: الله سبحانه وتعالى فوق العرش حكماً وعظمة وعلوّاً، لا بالمكان تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً)⁵. ونقل الإمام السيوطي قول الإمام الطيبي السابق ولم يزد عليه)⁶. وقال السندي: ("ثم الله فوق ذلك" تصوير لعظمته سبحانه وتعالى وفوقيته على العرش بالعلو والعظمة والحكم لا الحلول والمكان)⁷.

¹ انظر: الإمام القاري، مرقاة المفاتيح، (4/1445) و(4/1624).

² ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 453-454).

³ المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (6/78).

⁴ الإمام ابن حجر، فتح الباري (13/412).

⁵ ابن الملك، شرح المصابيح (6/178).

⁶ الإمام السيوطي، شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وغيره (ص: 18).

⁷ السندي، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (1/84).

وأما الحديث الثاني: ((لو أنكم دليتم بجبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله)) فقال فيه الإمام القاري: ("لو أنكم دليتم" والمعنى لو أرسلتم "بجبل إلى الأرض السفلى لهبط" بفتح الموحدة أي لنزل "على الله". أي على علمه وملكوته. كما صرح به الترمذي في كلامه الآتي، والمعنى: أنه تعالى محيط بعلمه وقدرته على سفليات ملكه، كما في علويات ملكوته دفعًا لما عسى يختلج في وهم من لا فهم له أن له اختصاصًا بالعلو دون السفلى، والذي قيل: كان معراج يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت، كما أن معراج نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم كان في ظهر السماء، فالقرب بالنسبة إلى كل في مد الاستواء، كما أخبر عن قربه لكل من العبيد بقوله: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} [ق: 16] وإنما يتفاوت القرب المعنوي بالتشريف اللدني، ومنه قرب الفرائض وقرب النوافل، كما هو مقرر في محله. "ثم قرأ" أي: النبي صلى الله عليه وسلم استشهادًا، أو أبو هريرة اعتضادًا {هو الأول} [الحديد: 3] أي: القدم الذي ليس له ابتداء {والآخر} [الحديد: 3] أي: الباقي الذي ليس له انتهاء {والظاهر} [الحديد: 3] أي: بالصفات {والباطن} [الحديد: 3] أي: بالذات {وهو بكل شيء} [الحديد: 3] أي: من العلويات والسفليات والجزئيات والكليات {عليم} أي: بالغ في كمال العلم به محيط بعلمه بجوانبه. (رواه أحمد، والترمذي. وقال الترمذي: قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية) أي: المذكورة (تدل على أنه أراد: لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه)... قال الأزهري: يقال: ظهرت على فلان إذا غلبته، والمعنى هو الغالب الذي يغلب ولا يغلب، ويتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء، أو ليس فوقه أحد يمنع، والباطن هو الذي لا ملجأ ولا منجى دونه، ثم قال الترمذي: (وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان)، أي يستوي فيه العلويات والسفليات وما بينهما، كما أن هذه الصفات موجودة في كل زمان، بل قبل أن يخلق الزمان والمكان "وهو على العرش، كما وصف نفسه في كتابه". قال الطيبي رحمه الله: الكاف في (كما) منصوب على المصدر أي هو مستو على العرش استواء مثل ما وصف نفسه به في كتابه، وهو مستأثر بعلمه باستوائه عليه، وفي قول الترمذي إشعارًا إلى أنه لا بد لقوله "لهبط على الله" من هذا التأويل المذكور، ولقوله: {على العرش استوى} [طه: 5] من تفويض علمه إليه تعالى، والإمساك عن تأويله كما سبق أن بعضًا من خلاف الظاهر يحتاج إلى التأويل. ومنها ما لا يجوز الخوض فيه⁽¹⁾.

قلت: لفظ الإمام أحمد: (لهبط) فقط بدون زيادة لفظة (على الله)، وهذه من زيادات المشكاة على المصاييح، لذلك لم يتعرض لها شراح المصاييح، والحديث ضعيف فلا يُشتغل بتأويله. وقد أوله الترمذي والبيهقي والطيبي والقاري احتياطًا ورضي الله عن العلماء الصالحين أجمعين.

نصوص بعض العلماء

قال الإمام البيهقي: (قلت: هذه الرواية في مسيرة خمسمائة عام اشتهرت فيما بين الناس، وروينا عن ابن مسعود رضي الله عنه من قوله مثلها، ويحتمل أن يختلف ذلك باختلاف قوة السير وضعفه، وخفته وثقله، فيكون بسير القوي أقل، وبسير الضعيف أكثر، والله أعلم. والذي روي في آخر هذا الحديث إشارة إلى نفي المكان عن الله تعالى، وأن العبد أينما كان فهو في القرب والبعد من الله تعالى سواء، وأنه الظاهر، فيصح إدراكه بالأدلة؛ الباطن، فلا يصح إدراكه بالكون في مكان. واستدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء))⁽²⁾. وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان. وفي رواية الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه انقطاع، ولا ثبت سماعة من أبي هريرة، وروي من وجه آخر منقطع عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا⁽³⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (9/ 3668-3669)، وانظر: الإمام الطيبي، شرح المشكاة (11/ 3628-3629).

² رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (رقم: 2713).

³ الإمام البيهقي، الأسماء والصفات (2/ 288-289).

قلت: ومسألة الفوقية على العرش تتصل بمسألة الاستواء اتصالاً وثيقاً، ولم يذكرها الإمام القاري إلا إشارة كما رأيت، وأشار إليها في موضع آخر بقوله: (وكذلك سفيان الثوري أول الاستواء على العرش بقصد أمره، ونظيره {ثم استوى إلى السماء} [البقرة: 29]، أي: قصد إليها، ومنهم الإمام جعفر الصادق، بل قال جمع منهم ومن الخلف: إن معتقد الجهة كافر، كما صرح به العراقي، وقال: إنه قول لأبي حنيفة ومالك والشافعي والأشعري والباقلاني⁽¹⁾، وذكر الإمام القاري قصة الإمام مالك المشهورة مع السائل عن معنى {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] وقد تقدمت في بداية البحث. وسيأتي بعض البيان لمسألة الفوقية على العرش في المطالب القادمة إن شاء الله تعالى⁽²⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/ 924).

² **قلت:** لم يتعرض الإمام القاري لمسألة الاستواء في كتابه مرقاة المفاتيح، وهي من الأهمية بمكان لا يخفى، ومتعلقة بمسألة الفوقية تعلقاً شديداً، ولذلك فلا حرج في أن نذكر باختصار بعض أقوال المحققين التي تشفي الغليل وتروي الغليل، في هذه المسألة التي سرح فيها المشبهة سراحاً قبيحاً، نربأ بأفكار القارئ عن ذكره فنكتفي بذكر قول أهل الحق في ذلك: **قال الإمام البيهقي:** (-يسنده - عبد الله بن وهب، يقول: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل، فقال: يا أبا عبد الله، {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرضاء ثم رفع رأسه فقال: {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة، أخرجوه. قال: فأخرج الرجل. - ويسنده - يحيى بن يحيى، يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] فكيف استوى؟ قال: فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً. فأمر به أن يخرج. وروي في ذلك أيضاً عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أستاذ مالك بن أنس رضي الله تعالى عنهما... - ويسنده - ابن عيينة: {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] بلا كيف، والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريق يدل مذهب الشافعي رضي الله عنه، وإليها ذهب أحمد بن حنبل والحسين بن الفضل البجلي. ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي. وذهب أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري إلى أن الله تعالى جل ثناؤه فعل في العرش فعلاً سماه استواء، كما فعل في غيره فعلاً سماه رزقاً أو نعمة أو غيرها من أفعاله. ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله: {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] وثم للتراخي، والتراخي إما يكون في الأفعال، وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة. وذهب أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري في آخرين من أهل النظر إلى أن الله تعالى في السماء فوق كل شيء **مستوى على عرشه بمعنى أنه عال عليه**... وقد أشار أبو الحسن علي بن إسماعيل إلى هذه الطريقة حكاية، فقال: وقال بعض أصحابنا: إنه صفة ذات، ولا يقال: لم يزل مستويًا على عرشه، كما أن العلم بأن الأشياء قد حدثت من صفات الذات، ولا يقال: لم يزل عالماً بأن قد حدثت، ولما حدثت بعد، قال: وجوابي هو الأول وهو أن الله مستوى على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها، بمعنى أنها لا تحله ولا يحلها، ولا يحسها ولا يشبهها، وليست البيئونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماساة علواً كبيراً. قال: وقد قال بعض أصحابنا: **إن الاستواء صفة الله تعالى تنفي الاعوجاج عنه**، وفيما كتب إلي الأستاذ أبو منصور بن أبي أيوب أن كثيراً من متأخري أصحابنا ذهبوا إلى أن **الاستواء هو القهر والغلبة**، ومعناه: أن الرحمن غلب العرش وقهره، وفائدته الإخبار عن قهره وملوكاته، وأنها لم تقهره، وإنما خص العرش بالذكر لأنه أعظم المملوكات، فنبه بالأعلى على الأدنى، قال: والاستواء بمعنى القهر والغلبة شائع في اللغة، كما يقال: استوى فلان على الناحية إذا غلب أهلها، وقال الشاعر في بشر بن مروان: [البحر الرجز] قد استوى بشر على العراق... من غير سيف ودم مهراق. يريد: أنه غلب أهله من غير محاربة. قال: وليس ذلك في الآية بمعنى الاستيلاء، لأن الاستيلاء غلبة مع توقع ضعف، قال: وما يؤيد ما قلناه قوله عز وجل: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان} [فصلت: 11] والاستواء إلى السماء هو القصد إلى خلق السماء، فلما جاز أن يكون القصد إلى السماء استواء جاز أن تكون القدرة على العرش استواء. - ويسنده - يحيى بن زياد الفراء في قوله عز وجل: {ثم استوى إلى السماء فسواهن} [البقرة: 29] قال: الاستواء في كلام العرب على جهتين: إحدهما: أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته، أو يستوي من اعوجاج، فهذان وجهان؛ ووجه ثالث أن تقول: كان مقبلاً على فلان ثم **استوى** علي يشافني وإلى سوء، على معنى **أقبل إلي وعلي**، فهذا معنى قوله: استوى إلى السماء والله أعلم. قال: وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ثم استوى صعد) وهذا كقولك للرجل: كان قاعداً فاستوى قائماً، أو كان قائماً فاستوى قاعداً، وكل في كلام العرب جائز. **قلت: قوله: استوى بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة وذلك هو الجائز في صفات الله تعالى.** ولفظ ثم تعلق بالخلق لا بالإرادة. وأما ما حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما **فإنما أخذه عن تفسيره الكلبي، والكلبي ضعيف، والرواية عنه عندنا في أحد الموضوعين كما ذكره الفراء.** الإمام البيهقي، الأسماء والصفات (2/ 304-310). وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي: (الدعوى الثامنة: ندعي أن الله تعالى منزّه عن أن يوصف بالاستقرار على العرش، فإن كل متمكن على جسم ومستقر عليه مقدر لا محالة فإنه إما أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً وكل ذلك لا يخلو عن التقدير، وأنه لو جاز أن يماسه جسم من هذه الجهة لجاز أن يماسه من سائر الجهات فيصير محاطاً به **والخصم لا يعتقد ذلك بحال، وهو لازم على مذهبه بالضرورة**، وعلى الجملة: لا يستقر على الجسم إلا جسم ولا يحل فيه إلا عرض، وقد بان أنه تعالى ليس بجسم ولا عرض، فلا يحتاج إلى إقران هذه الدعوى بإقامة البرهان. فإن قيل فما معنى قوله تعالى: الرحمن على العرش استوى؟ وما معنى قوله عليه السلام: "ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا" قلنا: الكلام على الظواهر الواردة في هذا الباب طويل ولكن نذكر منهاجاً في هذين الظاهرين يرشد إلى ما عاده وهو أننا نقول: الناس في هذا فريقان عوام وعلماء، والذي نراه اللائق بعوام الخلق أن لا يخاض بهم في هذه التأويلات بل ننزع عن عقائدهم كل ما يوجب التشبيه ويدل على الحدوث ونحقق عندهم أنه موجود ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وإذا سألو عن معاني هذه الآيات زجروا عنها، وقيل ليس هذا بعشكم فادرجوا فلكل علم رجال. ويجاب بما أجاب به مالك بن أنس رضي الله عنه، بعض السلف حيث سئل عن الاستواء، فقال: **الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وهذا لأن عقول العوام لا تتسع لقبول المعقولات ولا إحاطتهم باللغات ولا تتسع لفهم توسيعات العرب =**

وأما الحديث الثالث: ((أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته هكذا)) وقال بأصابعه مثل القبة عليه "وإنه ليضط" أطيظ الرجل بالراكب)) فقال فيه الإمام القاري: ("ويحك": كرهه تأكيداً لجزره وتبييناً لأمره "أتدري ما الله؟" أي: عظمتها التي تدل على عظمة ملكه وملكوته وسطوته كبريائه وجبروته "إن عرشه على سماواته" أي: محيط بها من جميع جهاته ... "وإنه" أي: العرش مع ما وصف به من المجد والكرم والسعة والعظمة، "ليضط": بكسر الهمزة وتشديد المهملة أي: ليتضايق ويعجز عن القيام، "به" أي: بحق معرفته وعن سعة علمه وإحاطة عظمتها، حيث يسط لما يرتكبه، ويرتعد مما يركبه من أعباء جلاله وهيبته¹) "أطيظ الرجل بالراكب" أي: كعجز الرجل عن احتمال الراكب. في النهاية أي: أن العرش ليعجز عن حمله وعظمتها، إذ كان معلوماً أن أطيظ الرجل بالراكب، إنما يكون لقوة ما فوقه وعجزه عن احتماله. قال الخطابي: هذا الكلام إذا أجري على ظاهره كان فيه نوع من الكيفية، والكيفية عن الله سبحانه وصفاته منفية، فعلم أنه ليس المراد منه تحقيق هذه الصفة، ولا تحديده على هذه الهيئة، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله

= في الاستعارات. وأما العلماء: فاللائق بهم تعريف ذلك وتفهمه، ولست أقول أن ذلك فرض عين إذ لم يرد به تكليف، بل التكليف التنزيه عن كل ما تشبهه بغيره. فأما معاني القرآن، فلم يكلف الأعيان فهم جميعها أصلاً ولكن لسنا نرتضي قول من يقول، أن ذلك من المتشابهات كحروف أوائل السور، فإن حروف أوائل السور ليست موضوعة باصطلاح سابق للعرب للدلالة على المعاني، ومن نطق بحروف وهن كلمات لم يصطلح عليها، فواجب أن يكون معناه مجهولاً إلا أن يعرف ما أردته، فإذا ذكره صارت تلك الحروف كاللغة المخترعة من جهته. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: " ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا "، فلفظ مفهوم ذكر للتفهم وعلم أنه يسبق إلى الأفهام منه المعنى الذي وضع له أو المعنى الذي يستعار، فكيف يقال إنه متشابه، بل هو مخيل معنى خطأ عند الجاهل، ومُفهم معنى صحيحاً عند العالم، وهو كقوله تعالى: " وهو معكم أينما كنتم ". فإنه يخيل عند الجاهل اجتماعاً مناقضاً لكونه على العرش، وعند العالم يفهم أنه مع الكل بالإحاطة والعلم، وكقوله صلى الله عليه وسلم: " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن "، فإنه عند الجاهل يخيل عضوين مركبين من اللحم والعظم والعصب مشتملين على الأنامل والأظفار، نابتين من الكف، وعند العالم يدل على المعنى المستعار له دون الموضوع له وهو ما كان الأصبع له، وكان سر الإصبع وروحه وحقيقته وهو القدرة على التقلب كما يشاء، كما دلت المعية عليه في قوله (وهو معكم) على ما تراء المعية له وهو العلم والاحاطة، ولكن من شائع عبارات العرب العبارة بالسبب عن المسبب، واستعارة السبب للمستعار منه وكقوله تعالى: " من تقرب إلي شيراً تقربت إليه ذراعاً ومن أتاني بمشي أتيت به جرياً " فإن الهولة عند الجاهل تدل على نقل الأقدام وشدة العدو وكذا الاتيان يدل على القرب في المسافة.؟ وعند العاقل يدل على المعنى المطلوب من قرب المسافة بين الناس وهو قرب الكرامة والانعام وإن معناه أن رحمتي ونعمتي أشد انصباباً إلى عبادي من طاعتهم إلي وهو كما قال: " لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً " تعالى الله عما يفهم من معنى لفظ الشوق بالوضع الذي هو نوع ألم وحاجة إلى استراحة، وهو عين النقص ولكن الشوق سبب لقبول المشتاق إليه والإقبال عليه وإفاضة النعمة لديه فغير به عن المسبب، وكما عبر بالغضب والرضى عن إرادة الثواب والعقاب الذين هما ثمرتا الغضب والرضى ومسبباه في العادة. وكذا لما قال في الحجر الأسود إنه يمين الله في الأرض، يظن الجاهل انه أراد به اليمين المقابل للشمال التي هي عضو مركب من لحم ودم وعظم منقسم بخمسة أصابع، ثم إنه إن فتح بصيرته علم أنه كان على العرش ولا يكون يمينه في الكعبة ثم لا يكون حجراً أسود فيدرك بأدنى مسكة أنه استعير للمصافحة، فإنه يؤمر باستلام الحجر وتقبيله كما يؤمر بتقبيل يمين الملك، فاستعير اللفظ لذلك. والكمال العقل البصير لا تعظم عنده هذه الأمور، بل يفهم معانيها على البديهة، فلنرجع إلى معنى الاستواء والنزول؛ أما الاستواء فهو نسبة للعرش لا محالة، ولا يمكن أن يكون للعرش إليه نسبة إلا بكونه معلوماً، أو مراداً، أو مقدوراً عليه، أو محلاً مثل محل العرض، أو مكاناً مثل مستقر الجسم. ولكن بعض هذه النسبة تستحيل عقلاً وبعضها لا يصلح اللفظ للاستعارة به له، فإن كان في جملة هذه النسبة، مع أنه لا نسبة سواها، نسبة لا يحيلها العقل ولا ينبو عنها اللفظ، فليعلم أن المراد: إما كونه مكاناً أو محلاً، كما كان للجواهر والعرض، إذا اللفظ يصلح له ولكن العقل يحيله كما سبق، وإما: كونه معلوماً ومراداً فالعقل لا يحيله، ولكن اللفظ لا يصلح له، وإما: كونه مقدوراً عليه وواقعاً في قبضة القدرة ومستخراً له مع أنه أعظم المقدورات ويصلح الاستيلاء عليه لأن يمتدح به وينبه به على غيره الذي هو دونه في العظم، فهذا مما لا يحيله العقل ويصلح له اللفظ، فأخلق بأن يكون هو المراد قطعاً، أما صلاح اللفظ له فظاهر عند الخبير بلسان العرب، وإنما ينبو عن فهم مثل هذا أفهام المتطفلين على لغة العرب الناظرين إليها من بعد، المنتفتين إليها التفات العرب إلى لسان الترك حيث لم يتعلموا منها إلا أوائلها، فمن المستحسن في اللغة أن يقال استوى الأمير على مملكته، حتى قال الشاعر: قد استوى بشير على العراق .. من غير سيف ودم مهراق.

ولذلك قال بعض السلف رضي الله عنهم: يفهم من قوله تعالى " الرحمن على العرش استوى " ما فهم من قوله تعالى " ثم استوى إلى السماء وهي دخان ". الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، الاقتصاد في الاعتقاد. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424 هـ (ص: 38-41). وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني: (قال الخطابي .. وليس قولنا إن الله على العرش أي ماس له أو متمكن فيه أو متحيز في جهة من جهاته بل هو خبر جاء به التوفيق فقلنا له به ونفينا عنه التكيف إذ ليس كمثل شيء وبالله التوفيق. وقوله "فوق عرشه" صفة الكتاب وقيل: إن فوق هنا بمعنى دون كما جاء في قوله تعالى بعوضة فما فوقها وهو بعيد. وقال ابن أبي جرة يؤخذ من كون الكتاب المذكور فوق العرش أن الحكمة اقتضت أن يكون العرش حاملاً لما شاء الله من أثر حكمة الله وقدرته وغامض غيبه ليستأثر هو بذلك من طريق العلم والإحاطة فيكون من أكبر الأدلة على انفراده بعلم الغيب قال وقد يكون ذلك تفسيراً لقوله الرحمن على العرش استوى أي ما شاء من قدرته وهو كتابه الذي وضعه فوق العرش). ابن حجر، فتح الباري (13/ 413).

¹ انظر: الإمام التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (4/ 1241-1243).

تعالى في النفوس، وإفهام السائل من حيث يدركه فهمه إذ كان أعرايا حافيا لا علم له بمعاني ما دق من الكلام، وقرر بهذا التمثيل والتشبيه معنى عظمة الله وجلاله في نفس السائل، وأن من يكون كذلك لا يجعل شفيعا إلى من هو دونه. أقول: ويمكن أن معنى يَظُّ يَصَوَّت بالتسييح والتنزيه من عظمة الله وآياته¹، حيث تحير حملة العرش من معرفة ذاته وصفاته، كصوت الرجل الجديد بالراكب الثقيل الشديد، والله تعالى أعلم بالقول السديد⁽²⁾.

قلت: وقد تبع الإمام الخطابي كثير من العلماء⁽³⁾، وملخص وجوه فهم هذا الحديث التي ذكرها الإمام القاري:

1- يَظُّ: أي: يتضايق بحق معرفته، وعن سعة علمه، وإحاطة عظمته.

2- أو: المراد: تقرير العظمة.

3- أو: يَظُّ: أي: يَصَوَّت بالتسييح والتنزيه.

وقال غيره: 4- أطيح الملائكة وضحيهم بالتسييح حول العرش.

قلت: "وإنه لَيَظُّ أطيح الرجل بالراكب" وذلك يرجع إلى العرش وليس فيه ما يدل على أن الله تعالى مماس له مماسة الراكب لرحله بل فائدة الخبر أنه يُسَمَّع للعرش أطيح الرجل إذا رَكِبَ.

وأما الحديث الرابع: ((ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه فيَظُّ كما يَظُّ الرجل الجديد من تضايقه به... ثم أقوم عن يمين الله)): **فقال فيه الإمام القاري:** ("يوم ينزل الله تعالى على كرسيه": يمكن أن يكون كناية عن حكمه بالعدل في يوم الفصل قبل إظهار الفضل المتوقف على شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم إشعارًا لمزيد فضله على خلقه، فكما أنه لولاه أولا لما خلق الأفلاك ولا وجد الأملاك، فكذا لولاه آخرا لوقع الأنام في الهلاك، فهو الأول وهو الآخر، والباطن والظاهر، وهو مظهر الكل المعبر عنه بأنه مظهر الجامع المسمى بالله. وقيل: هذا طريقة الاستعارة التمثيلية، كما أشار إليه القاضي بقوله: مثل التجلي لعباده بنعت العظمة والكبرياء، والإقبال عليهم للعدل والقضاء، وإدناء المقربين منهم على حسب مراتبهم، وكشف الحجاب فيما بينه وبينهم بنزول السلطان من غرف القصر إلى صدر الدار، وجلسه على كرسى الملك للحكومة والفصل، وإقامة خواصه وأهل كرامته حواله قدما ووراء، وبمينا وشمالا على تفاوت مراتبهم لديه⁽⁴⁾). وقيل: معنى نزول الله تعالى على كرسيه ظهور مملكته وحكمه محسوسًا. وقيل: معناه التجلي له بنعت العظمة، والإقبال بوصف الكبرياء في اليوم الموعود، حتى يتضايق من احتمال ما قد غشيه من ذلك، وهذا لم يبعد عن الحق؛ لما في كشف الحجاب من معنى النزول عن معارج الجلال إلى مدارج الجمال، "فيَظُّ": بكسر الهمزة وتشديد الطاء، أي: يصوت الكرسي "كما يَظُّ الرجل": أي الإكاف "الجديد براكبه" أي: بسبب ركوب راكمه إذا كان عظيمًا. قال الطيبي رحمه الله: وهو مبالغة وتصوير لعظمة التجلي على طريق الترشيح، "من تضايقه به": متعلق بقوله: فيَظُّ، أي: من عدم اتساع الكرسي بالله تعالى، كذا قاله شارح⁽⁵⁾. وقيل: أي من تضايق الكرسي بملائكة الله، وهذا

¹ انظر: الإمام ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 454).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3663/9-3664).

³ انظر: الإمام الخطابي، معالم السنن (4/328-329)، والمظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (6/80)، والطبي، شرح المشكاة (11/3625)، وابن الملك شرح المصابيح (6/179)، والصنعاني، التحرير لإيضاح معاني التيسير (3/682).

⁴ انظر: الإمام البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (3/420).

⁵ قلت: الشارح هذا هو ابن الملك؛ لكن الإمام القاري أنقص في نقله عنه، فإن ما نقله موهم للتشبيه، ولكن الشارح ابن الملك قد قرر أن هذا كناية عن تقرير رحمة الله، وإليك نصه: ("ينزل الله على كرسيه": نزوله: كناية عن تجلي آثار عظمته على الكرسي، وظهور مملكته وحكمه محسوسا مشاهدا بلا حجاب بينه تعالى وبين عباده، فيتضايق الكرسي عن احتمال ما يغشاه من عظمته. "فيَظُّ؟" أي: يصوت الكرسي ويئن. "كما يَظُّ؟" أي: يصوت. "الرجل الجديد" براحته "من تضايقه به": متعلق بقوله (فيَظُّ؟) أي: من تضايق الكرسي بالله، أو بملائكة الله تعالى، وهذا تمثيل عن كثرة الملائكة بالكرسي، وتقدير رحمة الله وإن لم يكن ثمة أطيح... ثم أقوم على يمين الله تعالى"، أراد به: قيامه مقام الكرامة). ابن الملك، شرح المصابيح (6/88).

تمثيل عن كثرة الملائكة الحافين حول عرشه، "وهو كسعة ما بين السماء والأرض": ... وفي المغرب يقال: وسع الشيء المكان، ومعناه وسعه المكان، وذلك إذا لم يضق عنه والجملة حال، والضمير راجع إلى الكرسي، أي: والحال أن الكرسي يسع ما بين السماء والأرض، إشارة إلى قوله تعالى: {وسع كرسيه السماوات والأرض} [البقرة: 255] لكن جاء في الحديث: ((أن الأرض بجانب السماء كحلقة في فلاة، وكذا كل سماء بالنسبة إلى ما فوقها، والسماوات السبع والأرضين عند الكرسي كحلقة في فلاة، وكذا هو في جنب العرش))⁽¹⁾. قال الطيبي رحمه الله: قوله: "وهو كسعة" حال أو معترضة، جيء بها دفعًا لتوهم من يتوهم أن أطيح الكرسي للضييق، بسبب تشبيهه بالرحل في الأبط، ... (ثم أقوم عن يمين الله) أي: قيام كرامة... وحاصل الجواب: أن المقام المحمود هو المقام الذي أقوم فيه عن يمين الله يوم القيامة. قال الطيبي رحمه الله: وفي الحديث دلالة ظاهرة على فضل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على ما سوى الله تعالى من الموجودات، وحيازته قصب السبق من بين السابق واللاحق من الملائكة والثقلين، وكفى بالشاهد شهيدا على الملك الأعظم إذا ضرب سرادق الجلال لقضاء شؤون العباد، وجمع أساطين دولته، وأشراف مملكته، وجلس على سرير ملكه، لا يخفى أن من يكون عن يمينه هو أولى أولى القرب، وأما كسوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام قبله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يدل على تفضيله عليه، بل على فضله، وأنه إنما قدم كسوته على كسوة مثل من يغبطه الأولون والآخرين؛ إظهارا لفضله وكرامته ومكانته، ونحوه قوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتًا} [النحل: 120] إلى قوله: {ثم أوحينا إليك} [النحل: 123] الآية. "الكشاف": في "ثم" هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة، وأجل ما أوتي في النعمة اتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ملته من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله تعالى عليه بها)⁽²⁾.

قلت: ملخص وجوه فهم الحديث التي ذكرها الإمام القاري ما يلي:

- 1- كناية عن حكمه بالعدل في يوم الفصل قبل إظهار الفضل المتوقف على شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم إشعارًا لمزيد فضله على خلقه.
- 2- استعارة تمثيلية، أي: مثل التحلي لعباده بنعت العظمة والكبرياء، والإقبال عليهم للعدل والقضاء، وإدناء المقربين؛ بنزول السلطان من غرف القصر إلى صدر الدار، وجلسه على كرسي الملك للحكومة والفصل، وإقامة خواصه وأهل كرامته حوالیه.
- 3- معنى نزول الله تعالى على كرسيه: ظهور مملكته وحكمه محسوسًا.
- 4- معناه التحلي للكرسي بنعت العظمة، والإقبال بوصف الكبرياء في اليوم الموعود، حتى يتضايق من احتمال ما قد غشيه من ذلك.

وجه آخر لم يذكره الإمام القاري:

- 5- التسليم مع نفي التشبيه.

¹ رواه ابن حبان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها، (رقم: 361) بلفظ: (يا أبا ذر ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)، و سعيد بن منصور (المتون: 227هـ)، التفسير من سنن سعيد بن منصور. دراسة وتحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1417 هـ، التفسير، من سورة البقرة، (رقم: 425) بلفظ: (عن مجاهد، قال: ((ما السموات والأرض في الكرسي، إلا بمنزلة حلقة ملقاة في أرض فلاة)، وقد حكم الحافظ بن حجر بصرحه في الفتح. انظر: ابن حجر، فتح الباري (13/ 411).

² الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (8/ 3566-3567).

وسبب الأبط: 1- عدم احتمال ما يغشاه من التحلي.

2- عدم اتساع العرش بالله تعالى . نقله القاري عن شارح نقلاً ناقصاً، - وسيأتي نص الشارح كاملاً - ولم يعلق عليه، وهو موهم للتشبيه، وكان الأولى به أن يشرحه، لكنه: عقبه بقول الإمام الطيبي: أن قوله "كسعة" جاء لنفي إيهام أن الأبط من الضيق.

3- من تضايق الكرسي بملائكة الله وهو تمثيل عن كثرتهم.

ومعنى القيام على اليمين: 1- قيام الكرامة، وهو المقام المحمود. كما ذكر الإمام القاري.

2- أو: على سبيل الكناية الإيمائية.

3- أو: على سبيل المجاز، والاستعارة التمثيلية. ذكرهما الإمام الطيبي.

قلت: للإمام التوريشي بيان في غاية الحسن لهذا الحديث أنقله بنصه: (وقوله: "ينزل الله على كرسيه"، من المعضلات التي وجد الأولون في الهرب من تأويلها لشذوذ ألفاظها عن مسلك التقرير، وغُسر التثامها في منهج التأويل، ومن انتهى به الأمر إلى ذلك؛ فالسلامة في التسليم مع نفي التشبيه. ومن ذهب فيه إلى معنى التحلي له بنعت العظمة والإقبال عليه بوصف الكبرياء في اليوم الموعود حتى يتضايق عن احتمال ما قد غشيه من ذلك، فلم يبعد عن الحق؛ لما في كشف الحجاب من معنى النزول عن معارج الجلال إلى معالم الجمال. وفي قوله: "وهو كسعة ما بين السماء والأرض" تنبيه على أن الكرسي ليس بمنهبط من مستقره الذي هو عليه؛ لأنه إذا وسع السموات والأرض لم تكن السموات والأرض لتسعه. هذا وقد أخبرنا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن الكرسي فوق السموات، ولا جائز أن نقول: إن الكرسي ينزل إلى السموات للمانع الذي ذكرناه، بل نقول: إن الكرسي إذا طويت السموات انكشفت للنظرين، وذلك بروزه لفصل القضاء. وإذا كان الكرسي ممتنعاً بوصفه الذي هو عليه عن النزول إلى العالم الذي هو تحته ودونه، وصار الكرسي محتوياً عليه ومحيطاً به، مع أنه من جملة الأجسام التي يجوز عليها التحول والانتقال، فما ظنك بمن لا يستولى عليه صفات الأجسام، ولا تجرى عليه أحكام الحداث، تعالى وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً. والمراد عن القيام على اليمين: قيامه مقام الكرامة⁽¹⁾).

وقال الإمام الطيبي: (قوله: ((ثم أقوم على يمين الله مقاماً)) هذا على سبيل الكناية الإيمائية، وإما على سبيل المجاز، والاستعارة التمثيلية⁽²⁾). وقال ابن الملك: (فيبط أي: من تضايق الكرسي بالله، أو بملائكة الله تعالى، وهذا تمثيل عن كثرة الملائكة بالكرسي، وتقدير رحمة الله وإن لم يكن ثمة أبط (وهو) أي: والحال أن الكرسي (يسعه ما بين السماء والأرض): قال الله تعالى: {وسع كرسيه السماوات والأرض} [البقرة: 255] وهو إشارة إلى عظم الكرسي). **قلت:** تقدم أن الحديث ضعيف جداً فلا تتكلف له التأويلات إلا إذا دعت الحاجة، والله أعلم⁽³⁾.

¹ الإمام التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (4/ 1212-1213).

² الإمام الطيبي، شرح المشكاة (11/ 3543)،

³ قال القاسمي: (لا يُتصدى للجواب عن الحديث المشكل إلا إذا كان صحيحاً. وأما إذا كان ضعيفاً فلا. قال العلامة السيد أحمد بن المبارك في "الإبريز" في خلال بحث في بعض الأحاديث الضعيفة: وإن كان الحديث في نفسه مردوداً هان الأمر، والله در أبي الحسن القايسي رحمه الله، حيث اعترض على الأستاذ أبي بكر بن فورك رحمه الله، حيث تصدى للجواب عن أحاديث مشككة وهي باطلة، قال القايسي: "لا يتكلف الجواب عن الحديث حتى يكون صحيحاً والباطل يكفي في رده كونه باطلاً" ا.هـ. وأما اعتذار ابن حجر الهيتمي في: "فتاواه الحديثية" عن ابن فورك بأنه: "إنما تكلف الجواب عنها مع ضعفها لأنه ربما تشبث بها بعض من لا علم له بصحيح الأحاديث من ضعفها، فطلب الجواب عنها بفرض صحتها إذ الصحة والضعف ليسا من الأمور القطعية بل الظنية، والضعف يمكن أن يكون صحيحاً، فبهذا الفرض يحتاج إلى الجواب عنه" فلا يخفى ما فيه إذ الكلام مع من يعلم، ومن لا يعلم فأحقر من أن يتمحل له، والإمكان المذكور لا عبرة به لأننا نقف مع ما صححوه أو ضعفه ووقوف الجازم به ونطرح ذاك الفرض الذي لا عبرة له في نظر الأئمة إذ لا فمرة له فافهم. وفي الموعظة الحسنة: لا يستحق ما لا أصل أن يشتغل برده بل يكفي أن يقال: "هذا كلام ليس من الشريعة" وكل ما هو ليس منها فهو رد أي مردود على قائله، مضروب في وجهه. ا.هـ. نعم، لو اختلفت في صحة حديث لعله فيه رأها بعضهم غير قاذحة فصاحبه وخالفه آخر، فلا بأس أن يشتغل بتأويل هذا المعلل المختلف في صحته لاحتمال صحته فيتأول على هذا التقدير. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد (المتوفى: 1332هـ)، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث. دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت. (ص: 121-122). **قلت:** بل الذي فعله الإمام ابن فورك والإمام القاري في دفع إشكال الضعيف هو الأحوط، ولا يجوز أن نقول: "إن من لا يعلم أحقر من أن تتكلف له الجواب" بل الواجب علينا تعليم الجاهل والتلطف به ما استطعنا، والله أعلم.

المبحث الثالث حديث الدار

(66)[5572] - عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يجبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهيموا بذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيربحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقتك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يربحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناك. ويذكر خطيئته التي أصاب: - أكله من الشجرة وقد نهي عنها- ولكن ائتوا نوحًا أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحًا فيقول: لست هناك - ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم - ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناك - ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجياً. قال: فيأتون موسى فيقول: إني لست هناك - ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس - ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته " قال: " فيأتون عيسى فيقول: لست هناك ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ". قال: " فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول: ارفع محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه ". قال: " فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء تحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثانية فأستأذن على ربي في داره. فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً. فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه. قال: " فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه ". قال: " فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من قد حبسه القرآن، أي: وجب عليه الخلود ثم تلا هذه الآية (عسى أن يبعثك الله مقاماً محموداً) قال: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم)).⁽¹⁾

قلت: وفي رواية: ((فأنتطلق فأثني تحت العرش فأقع ساجداً لربي))⁽²⁾. وقد فسر الإمام القاري الدار بأنها:

1- دار الله⁽³⁾ وهي الجنة. 2- أو: بما تحت العرش. ولا تعارض، إذ العرش سقف الجنة. وفسر الاستئذان:

1- بأن يقوم صلى الله عليه وسلم في مقام كريم يستجاب فيه دعاؤه وتقبل فيه شفاعته وهو المقام المحمود.

2- بالاستئذان في الكلام مع الله تعالى.

¹ رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)، (رقم: 7440)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (رقم: 193)، بلفظ: (فأستأذن على ربي)، بدون لفظ: (في داره) الذي في البخاري.

² رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (ذرية من حملنا مع نوح)، (رقم: 4712)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (رقم: 194).

³ قال الإمام الكرمانى: (قوله { في داره } أي جنته والإضافة للتشريف كبيت الله والضمير راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الالتفات). انظر: الإمام الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (152/25). ونقله عنه العيني وقال فيه تأمل، انظر: الإمام العيني عمدة القاري (132/25)، أما الإمام الكوراني فلم يرتض هذا القول ورده بقوة فقال: (فيأتوني فأستأذن على ربي في داره) أي في دخوله في داره، أي: في الجنة، لأن من أسمائه تعالى السلام، ومن أسمائه الجنة دار السلام، والله يدعو إلى دار السلام. أو الإضافة للتشريف... ومن سقط الكلام ما يقال: استأذن في داري، على أن الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما التفت من التكلم إلى الغيبة، وكيف يقبل الذوق السليم ضد الالتفات على أن الجنة ليست داره، بل هي دار جميع المؤمنين. وليس المعنى أنه يدخله منزله الخاص في أعلى الجنان. وقد أشرنا إلى أن السر في الشفاعة في الجنة أنها دار الرحمة وجل الأمانى. وليت شعري ما يقول في قوله (على ربي) وقوله (فيؤذن لي عليه) إذ معناه على ذلك التقدير: فاستأذن ربي في أن أدخل على ربي في داري. الكوراني، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (244/11).

3- في دخول الجنة التي هي دار الرحمة والسلام ليناجي فيها ويتشفع فيها.

قال الإمام القاري: ("فأستأذن على ربي" أي: فأطلب الإذن منه؛ للأدب مع الرب "في داره" أي: دار ثوابه وهو الجنة. وقيل: ذلك تحت عرشه. قال الطيبي رحمه الله: أي فأستأذن في الدخول على دار ربي "فيؤذن لي عليه" أي: في الدخول على الرب سبحانه. قال التوربشتي رحمه الله تعالى: إضافة دار الثواب إلى الله تعالى هنا كإضافته في قوله تعالى: {لهم دار السلام عند ربهم} [الأنعام: 127] على أن السلام من أسماء الله تعالى على أحد الوجهين، وإضافتها إلى الله تعالى للشرف والكرامة، والمراد بالاستئذان عليه أن يدخل مكاناً لا يقف فيه داع إلا استجيب، ولا يقوم به سائل إلا أحيب، ولم يكن بين الواقف فيه وبين ربه حجاب... قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: معناه فيؤذن لي في الشفاعة الموعود بها والمقام المحمود الذي أخره الله تعالى له فأعلمه أنه يبعثه فيه". - ثم قال - "ثم أعود" أي: أرجع إلى ربي "الثانية" أي: المرة الثانية "فأستأذن على ربي في داره" أي: في دخولها "فيؤذن لي عليه" أي: بالدخول عليه "إذا رأيته" أي: ذلك المكان، أو: رأيت ربي مع تنزيهه عن المكان، وعن سائر صفات الحدثنان "وقعت ساجداً...")، وقال أيضاً: ("فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي" أي: على كلامه، أو: على دخول داره)⁽¹⁾.

وقال بعد حديث (فأنطلق فأتي تحت العرش): (قيل: وجه الجمع بينه وبين حديث أنس رضي الله تعالى عنه: على ربي في داره، أن يقال: داره الجنة والجنة تحت العرش، وقيل: حديث أنس في الجنة، وحديث أبي هريرة في الموقف)⁽²⁾. **قلت:** وكان هذا ملخص ما قاله الأئمة العلماء رحمهم الله جميعاً⁽³⁾. قال الإمام الخطابي: (وقوله: في داره، يومه مكاناً كاللفظة الأولى في القصة المتقدمة، وهي قوله في مكانه. ومعنى قوله: "فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، أي: في داره التي دورها لأوليائه وهي الجنة كقوله تعالى {لهم دار السلام عند ربهم} [الأنعام: 127] وكما يقال: بيت الله، وحرّم الله، ويريدون بيت الله الذي جعله مثابة للناس، والحرّم الذي جعله آمناً لهم، ومثله روح الله على سبيل التفضيل له على سائر الأرواح، وإنما ذلك في ترتيب الكلام كقوله عز وجل: {إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} [الشعراء: 27] فأضاف الرسول إليهم وإنما هو رسول الله أرسله إليهم)⁽⁴⁾. وقال ابن بطال: ("في داره" فداره جنته، ولا تعلق فيه للمجسمة أنه تعالى في مكان؛ لأن قوله: (في داره) يحتمل أن تكون هذه الإضافة لله إضافة إلى نفسه تعالى من أفعاله. ويحتمل أن يكون قوله: "في داره". راجعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وتأويله: فأستأذن على ربي وأنا في داره. فالظرف والمكان هاهنا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لا لله تعالى لقيام الدليل على استحالة حلوله في المواضع)⁽⁵⁾. وقال الإمام المظهري: (والاستئذان: طلب الإذن؛ يعني: أطلب الدخول على حضرة ربي تعالى في مقعد الصدق)⁽⁶⁾. وقال الإمام السيوطي: ("فأستأذن على ربي" أي: في الجنة كما في الحديث الآخر، وفي رواية: "تحت العرش"، ولا تنافي بينهما. والحكمة في انتقاله من مكانه إليها: أن أرض الموقف أرض عرض وحساب، فهي أرض مخافة، ومقام الشافع يناسب أن يكون في مكان إكرام، ومن ثم يتحرى الدعاء في مكان شريف)⁽⁷⁾. وقال الإمام السندي: (على ربي، أي: على أن أدخل في محل رؤيته، أو محل الشفاعة عنده)⁽⁸⁾.

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (8/ 3541-3543).

² المصدر السابق، (8/ 3546).

³ انظر: الإمام البيهقي، الأسماء والصفات (2/ 359)، والبيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (3/ 408)، والمظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (5/ 505-506)، والطبي، شرح المشكاة (11/ 3520)، وابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (33/ 348)، وابن الدماميني، مصابيح الجامع (10/ 220)، وابن حجر فتح الباري (13/ 429)، وابن الملك، شرح المصابيح (6/ 57)، والكواشي، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (10/ 211)، والسيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح (9/ 4302)، وزكريا الأنصاري، منحة الباري (10/ 369)، والقسطلاني، إرشاد الساري (9/ 326) و(10/ 407).

⁴ الإمام الخطابي، أعلام الحديث (4/ 2355-2356).

⁵ الإمام ابن بطال، شرح صحيح البخاري (10/ 465).

⁶ الإمام المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح (5/ 505-506).

⁷ الإمام السيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح (8/ 3889).

⁸ حاشية السندي على سنن ابن ماجه (2/ 584).

المبحث الرابع

أحاديث: (من في السماء)

الحديث الأول

(67)[4969]- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))⁽¹⁾.

الحديث الثاني

(68)[3246]- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح)). وفي رواية: قال: ((والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها))⁽²⁾.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ("يرحمكم من في السماء": أي: من ملكه الواسع وقدرته الباهرة في السماء. أو: من أمره نافذ في السماء والأرض، فهو من باب الاكتفاء، وخص السماء بالذكر تشريفاً أو لأن الأرض تفهم بالأولى، أو: لأن السماء محيطة بها وهي كحلقة مجنبتها في وسطها فلا تذكر معها؛ لحقارتها. وقيل: المراد من سكن فيها وهم الملائكة، فإنهم يستغفرون للذين آمنوا ويقولون: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا} [غافر: 7] الآية. قال المظهر: اختلف في المراد بقوله: من في السماء؛ فقيل: هو الله سبحانه أي: ارحموا من في الأرض شفقة يرحمكم من في السماء تفضلاً، وتقدير الكلام: يرحمكم من في السماء ملكه وقدرته، وإنما نسب إلى السماء؛ لأنها أوسع وأعظم من الأرض، أو: لعلوها وارتفاعها، أو: لأنها قبلة الدعاء ومكان الأرواح القدسية الطاهرة. وقيل: المراد منه الملائكة أي: يحفظكم الملائكة من الأعداء والمؤذيات، بأمر الله ويستغفروا لكم الرحمة من الله الكريم⁽³⁾). قلت: المعنى الأول هو المدار عليه كما أشار صدر الحديث إليه، ولأن رحمة الملائكة فرع رحمته تعالى⁽⁴⁾).

وقال بعد الحديث الثاني: (إلا كان الذي في السماء): أي: أمره وحكمه أو ملكه وملكوته أو الذي هو معبود فيها وهو الله تعالى. قال: تعالى، جل جلاله {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزحرف: 84] ويكون الاقتصار في هذا الحديث من باب الاكتفاء بذكر الأشرف، ويحتمل أن يراد سكان السماوات، والإفراد للجنس، ويلتزم حينئذ الروايتان وإن كان على الأول أيضاً بينهما تلازم. (ساخطاً عليها حتى يرضى): أي: الزوج (عنها): فيه أن سخط الزوج يوجب سخط الرب وهذا في قضاء الشهوة فكيف إذا كان في أمر الدين⁽⁵⁾).

قلت: إن كان المقصود هو الله تعالى في الحديثين فالحديثان يحتاجان إلى تأويل، ويكون تأويلهما كالتالي:

¹ رواه أبو داود، وأول كتاب الأدب، باب في الرحمة، (رقم: 4941)، والترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، (رقم: 1924)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

² رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين، (رقم: 3237) وكتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، (رقم: 5193)، ومسلم، كتاب النكاح باب تحريم امتناعها عن فراش زوجها، (رقم: 1436).

³ المظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (5/ 221-322).

⁴ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (8/ 3113).

⁵ المصدر السابق، (5/ 2121). وانظر: (4/ 1715).

وجهان ذكرهما الإمام القاري:

1- مَنْ مُلْكُهُ الواسع وقدرته الباهرة في السماء. ورجحه الإمام القاري.

2- مَنْ أَمْرُهُ نافذ في السماء والأرض، أو هو معبود في السماء، وهو من باب الاكتفاء.

ووجهان ذكرهما غيره:

3- مَنْ رَحْمَتُهُ عامة لأهل السماء الذين هم أعظم وأكثر من أهل الأرض.

4- مَنْ فِي السماء أمره.

والفرق بينه وبين الوجه الثاني: أن المقصود من الوجه الثاني: نفاذ الأمر. أما هنا فالمقصود: وجود الأمر، أو: مكان تسطير الأمر كاللوح المحفوظ وما شابه ذلك.

وأما إن كان المراد بقوله: "من في السماء": سكان السماء؛ فلا حاجة إلى تأويل، ويكون المعنى: ترحمكم الملائكة، أو: حملة العرش.

قلت: قال الطيبي بعد أن نقل قول المظهر المتقدم: (أقول: ويمكن الجمع بينهما بأن يقال: يرحمكم الله بأمره للملائكة أن تحفظكم. قال الله تعالى: ﴿لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11] أي: جماعات من الله من الملائكة تعقب في حفظه وكلاءه، كأنه قيل: له معقبات من أمر الله، أو: يحفظونه من أجل أمر الله. أو: من أجل أن الله أمرهم بحفظه، أو: يحفظونه من بأس الله ونقمته، إذا أذنب بدعائهم له ومسألتهم رهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب⁽¹⁾).

وقال ابن الملك: (يرحمكم من في السماء"؛ أي: من ملكه وقدرته في السماء، وهو الله. أو: المراد به الملائكة، وذلك حفظهم عن الأعداء وسائر المؤذيات بأمره تعالى، واستغفارهم للراحمين في الأرض)⁽²⁾.

وقال المناوي: ("يرحمكم من في السماء" أي: من رحمته عامة لأهل السماء الذين هم أكثر وأعظم من أهل الأرض. أو: المراد أهل السماء، كما يشير إليه رواية أهل السماء)⁽³⁾.

وقال الصنعاني: (قوله: "يرحمكم من في السماء" أقول: هو مجزوم جواب الأمر، هو من باب: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: 5] أي: من جزء الفعل بجنسه، ومن في السماء يعم الملائكة وحملة العرش؛ وإنهم يرحمون من رحم من أهل الأرض فيدعون له، ويدل له رواية: "ارحموا من في الأرض يرحمكم أهل السماء". ويحتمل أن يراد الرب تعالى، أي: من في السماء أمره، من باب قوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ [الزحرف: 84]⁽⁴⁾.

الترجيح

الحديث يشرح بعضه بعضاً والروايات التي تبين أن المقصود بمن في السماء هم الملائكة تدل على أن الملائكة هم المقصودون عند إطلاق (من في السماء) والله أعلم.

¹ الإمام الطيبي، شرح المشكاة (3185 / 10).

² ابن الملك، شرح المصابيح (300 / 5).

³ المناوي، فيض القدير (42 / 4).

⁴ الصنعاني، التحرير لإيضاح معاني التيسير (426-427 / 4).

المبحث الخامس

أحاديث توهم كون الله في السماء

الحديث الأول (حديث الجارية)

(69)[3303]- عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله! إن جارية كانت لي ترعى غنماً لي فجننتها وقد فقدت شاة من الغنم، فسألتها عنها فقالت: أكلها الذئب؛ فأسفت عليها وكنت من بني آدم، فلطمت وجهها، وعلي رقبه أفاعتقها؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أين الله)) فقالت: في السماء فقال: ((من أنا؟)) فقالت: أنت رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أعتقها)). رواه مالك. وفي رواية مسلم قال: "كانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمنا، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكن صككتها صكة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك علي. قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أعتقها؟ قال: ((اثنني بها)) فأتيت بها. فقال لها: ((أين الله)) قالت: في السماء. قال: ((من أنا)) قالت: أنت رسول الله قال: ((أعتقها فإنها مؤمنة))⁽¹⁾.

¹ رواه الإمام مالك بن أنس (المتوفى: 179هـ)، الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، 1425 هـ، كتاب العتاقة والولاء، ما يجوز من العتق في الرقبة المؤمنة، (رقم: 615) عن معاوية ابن الحكم وهو يسميه عمر بن الحكم و(رقم: 616) بلفظ: عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود؛ أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجارية له سوداء. فقال: يا رسول الله إن علي رقبة مؤمنة. فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشهدين أن لا إله إلا الله؟). فقالت: نعم. قال: (أتشهدين أن محمداً رسول الله؟). قالت: نعم. قال: (أتوقفين بالبعث بعد الموت؟). قالت: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعتقها). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من تحريمه، (رقم: 537). بلفظ: فقال لها: (أين الله؟) قالت: في السماء، قال: (من أنا؟) قالت: أنت رسول الله، قال: (أعتقها، فإنها مؤمنة). ورواه أحمد، حديث رجل، (رقم: 15743)، عن عبيد الله بن عبد الله، عن رجل من الأنصار بلفظ: (أتشهدين أن لا إله إلا الله؟) قالت: نعم قال: (أتشهدين أني رسول الله؟) قالت: نعم قال: (أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟) قالت: نعم قال: (أعتقها). ورواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة، (رقم: 930) عن معاوية بن الحكم، بلفظ: فقال: "أين الله؟" قالت: في السماء، قال: "من أنا؟" قالت: أنت رسول الله، قال: "أعتقها، فإنها مؤمنة". وفي أول كتاب الأيمان والنذور، باب الرقبة المؤمنة، (رقم: 3282)، عن الشريد بلفظ: (فجاءت، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "من ربك؟" قالت: الله، قال: "فمن أنا؟" قالت: رسول الله، قال: "أعتقها فإنها مؤمنة"). و(رقم: 3284) عن أبي هريرة بلفظ: (فقال لها: "أين الله؟" فأشارت إلى السماء بإصبعها، فقال لها: "فمن أنا؟" فأشارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى السماء، يعني أنت رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعتقها فإنها مؤمنة"). ورواه النسائي، كتاب السهو، باب الكلام في الصلاة، (رقم: 1218) بلفظ: (فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الله عز وجل؟، قالت: في السماء، قال: فمن أنا؟) قالت: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (إنها مؤمنة فاعتقها). ورواه النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (المتوفى: 303هـ)، السنن الكبرى. تحقيق: حسن شلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ، كتاب السير، القول الذي يكون به مؤمناً، (رقم: 8535). بلفظ: (قال النبي صلى الله عليه وسلم لها: من أنا؟) قالت: أنت رسول الله قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء) قال أبو عبد الرحمن وفي هذا الحديث قال: أعتقها، فإنها مؤمنة، ولم أفهمه كما أردت). ورواه الطحاوي، شرح مشكل الآثار (رقم: 4990)، بلفظ: (أخبرني عون بن عبد الله بن عتبة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي هريرة أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجارية عجماء لا تفصح، فقال: "إن علي رقبة مؤمنة"، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين الله عز وجل؟" فأشارت إلى السماء، فقال لها: "من أنا؟" فأشارت إلى السماء، فقال رسول الله: "أعتقها" وقال المسعودي مرة: "أعتقها، فإنها مؤمنة" هكذا لفظ بكاء وأما لفظ الربيع، فقال لها: "من أنا؟" فأشارت إليه وإلى السماء أي: أنت رسول الله قال: "أعتقها، فإنها مؤمنة". و (رقم: 4992)، بلفظ: (فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين الله عز وجل؟" فقالت: في السماء، فقال: "من أنا؟" فقالت: أنت رسول الله، فقال: "أعتقها" وقال الطحاوي بعده: سمعت المزني يقول: قال الشافعي: مالك سمى هذا الرجل عمر بن الحكم، وإنما هو معاوية بن الحكم. و(رقم: 4993) بلفظ: (فقال: "أين الله عز وجل؟" قالت: في السماء قال: "فمن أنا؟" قالت: أنت رسول الله قال: "إنها مؤمنة، فأعتقها). ورواه الطبراني المعجم الكبير، سعيد بن جبير عن ابن عباس، (رقم: 12369)، بلفظ: (فقال: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟) قالت: نعم قال: أتشهدين أني رسول الله؟ قالت: نعم قال: أعتقها، فإنها مؤمنة. وقال رسول الله؟ قالت: نعم. قال: فأعتقها. والطبراني، في المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين-القاهرة، د. ت. من اسمه محمد، (رقم: 7070)، بلفظ: (فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟) قالت: نعم قال: أتشهدين أني رسول الله؟ قالت: نعم قال: أعتقها، فإنها مؤمنة. وقال الإمام الزرقاني: (فإن كانت القصة تعددت فلا خلف، وإن كانت متحدة فيمكن أن لعبيد الله فيه شخين رجل من الأنصار رواها له عن نفسه، وأبو هريرة رواها عن قصة ذلك الرجل، ويؤول قوله قالت: نعم، على أنها قالت بالإشارة أو أنه وقع منها الأمران، فقالت: نعم، باللفظ حين قوله أتشهدين... إلخ، فأشارت إلى السماء حين قوله "أين الله؟ ومن أنا؟" فذكر كل من الزهري وعون ما لم يذكر الآخر، والعلم عند الله. الزرقاني، شرح الزرقاني على الموطأ، (148/4).

الحديث الثاني

(70)[1555]- عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له، فليقل: ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك، على هذا الوجع فيراً))⁽¹⁾.

الحديث الثالث

(71)[1627]- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: اخرجي حميدة أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها: ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله، فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فما تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج إلى السماء فيفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء؛ فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر))⁽²⁾.

قال الإمام القاري بعد الحديث الأول: ("أين الله؟" وفي رواية: "أين ربك؟" أي: أين مكان حكمه وأمره وظهور ملكه وقدرته "قالت: في السماء". قال القاضي: هو على معنى الذي جاء أمره ونهي من قبل السماء لم يرد به السؤال عن المكان، فإنه منزعه عنه كما هو منزعه عن الزمان، بل مراده صلى الله عليه وسلم من سؤاله إياها أن يعلم أنها موحدة أو مشركة؟ لأن كفار العرب كانوا يعبدون الأصنام، وكان لكل قوم منهم صنم مخصوص يكون فيما بينهم يعبدونه ويعظمونه، ولعل سفهاءهم وجهلتهم كانوا لا يعرفون معبوداً غيره، فأراد أن يتعرف منها ما تعبد، فلما قالت: في السماء، وفي رواية: "أشارت إلى السماء" فهم أنها موحدة يريد بذلك نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكاناً له، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ولأنه لما كان مأموراً بأن يكلم الناس على قدر عقولهم ويهديهم إلى الحق على حسب فهمهم، ووجدوها تعتقد أن المستحق للعبودية إله يدبر الأمر من السماء إلى الأرض لا الآلهة التي يعبدونها المشركون قنع منها بذلك، ولم يكلفها اعتقاد ما هو صرف التوحيد حقيقة التنزيه⁽³⁾). وقيل: معناه أن أمره ونهي ورحمته ووحيه جاءت من السماء فهو كقوله تعالى: {أأنتم من في السماء} [الملك: 16] قيل: وقد جاء في بعض الأحاديث أن هذه الجارية كانت خرساء... فقوله: "قالت في السماء": بمعنى أشارت إلى السماء كما في رواية قال شارح الوقاية: وجاز الأصم أي: من يكون في أذنه وقر، أما من لم يسمع أصلاً فينبغي أن لا يجوز؛ لأنه فائت جنس المنفعة... وقال أيضاً: "فأتيته بها. فقال لها: "أين الله؟" أي: أين المعبود المستحق الموصوف بصفات الكمال؟ "قالت: في السماء": أي: كما في الأرض والاقتصار من باب الاكتفاء. قال تعالى جل جلاله: {وهو الذي في السماء

¹ رواه أبو داود، أول كتاب الطب، باب كيف الرقي، (رقم: 3892). إسناده ضعيف فيه زيادة بن محمد منكر الحديث.

² رواه ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، (رقم: 4262)، وإسناده صحيح كما ذكر الشيخ الأرناؤوط في تحقيقه.

³ الإمام البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (2/395).

إله وفي الأرض إله { [الزخرف: 84] وقال الله عز وجل: {وهو الله في السماوات وفي الأرض} [الأنعام: 3]. ويمكن أن يكون الاختصار لدفع توهم الشركة في العبودية رداً على عبدة الأصنام الأرضية⁽¹⁾.

قلت: ذكر الإمام القاري ثمانية أوجه يفهم بهذا الحديث بما فيه تنزيه الباري عن الجهة والجسمية ومشابهة الحوادث، ولم يذكر التسليم والتفويض - بخلاف عادته - وملخص الأوجه كما يلي:

- 1- أين الله: أي: أين مكان حكمه وأمره وظهور ملكه وقدرته.
 - 2- أين المعبود المستحق الموصوف بصفات الكمال.
 - 3- المراد: نفي الآلهة الأرضية.
 - 4- جاء أمره ونهي من قبل السماء.
 - 5- أمره ونهي ورحمته ووحيه جاءت من السماء.
 - 6- في السماء: أي: كما في الأرض. والاختصار من باب الاكتفاء. قال تعالى جل جلاله {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84].
 - 7- الاختصار لدفع توهم الشركة في العبودية رداً على عبدة الأصنام الأرضية.
 - 8- أنها كانت خرساء فاكتفى منها بالإشارة إلى الجهة المقصودة عند المسلمين.
- وأوجه ذكرها غيره:**
- 9- استعلاء عن منزلة الله وقدره في قلبها.
 - 10- في السماء بمعنى فوق السماء في الصفة لا في الجهة.
 - 11- التسليم والتفويض مع التنزيه.

وقال بعد الحديث الثاني: ("في السماء" أي: رحمته، أو أمره، أو ملكه العظيم، أو الذي معبود في السماء كما أنه معبود في الأرض. قال تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84]، وهذا مما اختلف فيه السلف والخلف بعد اتفاقهم على تنزيه الله تعالى عن ظاهره الموهوم للمكان والجهة. "تقدس اسمك": وفي نسخة: أسماؤك أي: تطهرت عما لا يليق بك. قال الطيبي: ربنا: مبتدأ، الله: خبره، الذي: صفة مادحة عبارة عن مجرد العلو والرفعة؛ لأنه منزّه عن المكان، ومن ثمة نزه اسمه عما لا يليق؛ فيلزم منه تقديس المسمى بطريق الأولى. "أمرك" أي: مطاع. "في السماء والأرض": قال الطيبي كقوله تعالى: {وأوحى في كل سماء أمرها} [فصلت: 12] أي: ما أمر به فيها ودبرها من خلق الملائكة والنيرات، وغير ذلك. "كما رحمتك في السماء": "ما" كافة مهية لدخول الكاف على الجملة. في الفائق: الأمر مشترك بين السماء والأرض، لكن الرحمة شأنها أن تخص بالسماء دون الأرض، لأنها مكان الطيبين المعصومين⁽²⁾.

وقال بعد الحديث الثالث: ("إلى السماء التي فيها الله" أي: أمره وحكمه أي: ظهور ملكه وهو العرش، وقال الطيبي: أي: رحمته بمعنى الجنة، وتبعه ابن حجر، وزاد الطيبي فقال: ونحو قوله تعالى: {وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله} [آل عمران: 107] فيطابق في حديث الآيتين، وهما: {وادخلي جنتي}، {وجنة نعيم}⁽³⁾).

¹ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (5/ 2156-2157).

² المصدر السابق، (3/ 1136).

³ الإمام القاري، مرقاة المفاتيح (3/ 1172).

وملخص الوجوه التي أول الإمام القاري بها الحديثين الثاني والثالث:

- 1- في السماء: رحمته. يعني: جنته.
- 2- أمره وحكمه.
- 3- ملكه العظيم. أو ظهور ملكه.
- 4- الذي معبود في السماء كما أنه معبود في الأرض.
- 5- صفة مادحة عبارة عن مجرد العلو والرفعة؛ لأنه منزّه عن المكان.

بعض نصوص العلماء

قال الإمام عثمان الدارمي (280هـ): (قال الله تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} [المجادلة: 7] قلنا: هذه الآية لنا عليكم، لا لكم، إنما يعني أنه حاضر كل نجوى، ومع كل أحد من فوق العرش بعلمه، لأن علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، لا يحجب شيء عن علمه وبصره، ولا يتوازن منه بشيء، وهو بكماله فوق العرش، بائن من خلقه⁽¹⁾).

قلت: وفي هذه الكلمة "بائن من خلقه" تنبيه للغافلين وإرشاد إلى نفي التحسيم والحيز والجهة فتأمل.

وبيّن الإمام ابن فورك استعمال أين في أصل وضعها اللغوي ثم استعمالها توسعاً في السؤال عن المنزلة وأن هذا ما دام محتملاً في اللغة فهو المقصود في الحديث الشريف في سؤال الجارية "أين الله" ورجّح أن تكون الجارية خرساء ولذلك أشارت إشارة ثم قال: (وإذا كان كذلك لم يجوز أن يحمل على غيره مما يقتضي الحد والتشبيه والتمكين في المكان والتكييف ومن أصحابنا من قال إن القائل إذا قال: إن الله في السماء. ويريد بذلك أنه فوقها من طريق الصفة لا من طريق الجهة على نحو قوله سبحانه {أأنتم من في السماء} [الملك: 16] لم ينكر ذلك⁽²⁾).

وقال ابن بطلال: (ولو كفر من جهل بعض صفات الله لكفر عامة الناس؛ إذ لا يكاد نجد منهم من يعلم أحكام صفات ذاته، ولو اعترضت جميع العامة وكثيراً من الخاصة وسألتهم: هل لله تعالى قدرة أو علم أو سمع أو بصر أو إرادة، وهل قدرته متعلقة بجميع ما يصح كونه معلوماً لما عرفوا حقيقة ذلك؟ فلو حكم بالكفر على من جهل صفة من صفات الله تعالى لوجب الحكم به على جميع العامة، وأكثر الخاصة وهذا محال. والدليل على صحة قولنا حديث السوداء، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها: "أين الله؟ فقالت: في السماء. فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله. فقال: أعتقها؛ فإنها مؤمنة". فحكم لها بالإيمان، ولم يسألها عن صفات الله وأسمائه، ولو كان علم ذلك شرطاً في الإيمان لسألها عنه كما سألها عن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽³⁾).

وقال الباجي (474هـ): (قوله للجارية: "أين الله؟" فقالت: في السماء لعلها تريد وصفه بالعلو وبذلك يوصف كل من شأنه العلو فيقال مكان فلان في السماء بمعنى علو حاله ورفعته وشرفه⁽⁴⁾).

وقال الإمام أبو بكر ابن العربي: (فالنبي صلى الله عليه وسلم إنما اختبر حال هؤلاء القوم المسؤولين في الإيمان بما علم من حال زمانهم وأغراضهم، كما قال له رجل: أوصني، فقال له: ((لا تغضب))⁽⁵⁾، فخصه من المنهيات بما علم من حاله الغالبة عليه. وأما هذه الجارية فعلم من حالها أنها كانت متعلقة بمعبود في الأرض فأراد أن يقطع علاقة قلبها بكل إله في الأرض فإن قيل: فقد قال لها أين الله؟

¹ الإمام عثمان الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد (المتوفى: 280هـ)، الرد على الجهمية. تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة: الثانية، 1416هـ، (ص: 42).

² ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه (ص: 158-160).

³ ابن بطلال، شرح صحيح البخاري (10/502-503).

⁴ الباجي، المنتقى شرح الموطأ (6/274).

⁵ رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (رقم: 6116).

وأنتم لا تقولون بالأينية والمكان. قلنا: أما المكان فلا نقول به وأما السؤال عن الله بأين فنقول بما. لأنها سؤال عن المكان وعن المكانة والنبي صلى الله عليه وسلم قد أطلق اللفظ وقصد به الواجب لله وهو شرف المكانة الذي يسأل عنها بأين ولم يجوز أن يريد المكان لأنه محال عليه، وأما قوله للجارية الثانية أتوقنتين بالبعث بعد الموت؟ فعلم أيضا من حالها ما دعاه إلى أن يسألها هل تعتقد الدار الآخرة وتوقن أنها المقصودة، وأن هذه الدار الدنيا قنطرة إليها، فإن من علم ذلك وبني عليه صح اعتقاده وسلم عمله⁽¹⁾.

ومن أحسن ما قال أيضًا وأفحم به المخالفين: (قالوا: فما تقولون في هذا: إن الأمة قد أجمعت على أنهم يعرفون أيديهم إلى السماء في الدعاء، ولولا ما قال موسى: إلهي في السماء لفرعون، ما قال: {يا هامان ابن لي صرخًا} [غافر: 36]. قلنا: كذبتم على موسى، ما قالها قط، ومن يوصلكم إليه؟ إنما أنتم أتباع فرعون الذين اعتقدوا أن الباري تعالى في جهة، فأراد أن يرقى إليه بسلم، فيهنئكم أنكم أتباع فرعون وأنه إمامكم. قالوا: وهذا أمية بن أبي الصلت يقول: فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ... من هو فوق العرش فرد موحد مليك على عرش السماء مهيم ... لعزته تنع الوجوه وتسجد

وأمية بن أبي الصلت قد قرأ التوراة والإنجيل والزبور. قلنا: هذا الذي يشبه جهلكم أن تحتجوا بقول فرعون وقول ملحد جاهلي، وتحيلون به على التوراة والإنجيل والزبور والفرقان والكتب المبدلة المحرفة، واليهود هم أعظم خلق الله كفرا، وأعظمهم تشبيها لله بالخلق ... والذي يجب أن يعتقد في ذلك: أن الله كان ولا شيء معه، ثم خلق المخلوقات من العرش إلى الفرش، فلم يتغير، ولا حدث له جهة منها، ولا كان له مكان فيها، فإنه لا يحول ولا يزول، قدوس لا يحول ولا يتغير. وللإستواء في كلام العرب خمسة عشر وجهًا ما بين حقيقة ومجاز، منها ما يجوز على الله فيكون معنى الآية، ومنها ما لا يجوز بحال؛ وهو إذا كان الإستواء بمعنى التمكين والاستقرار والاتصال والمجاورة، فإن شيئًا من ذلك لا يجوز على الباري تعالى، ولا تضرب له الأمثال في المخلوقات إلا كما قال مالك وغيره من العلماء: إن الإستواء معلوم، يعني أنه قد ورد في اللغة، والكيفية التي أراد الله مما يجوز عليه من معاني الإستواء مجهولة، فمن يقدر أن يعينها؟ والسؤال عنه بدعة؛ لأن الاشتغال به قد ينشئ طلبًا للمتشابه ابتغاء الفتنة. فيتحصل لك من كلام إمام المسلمين مالك؛ أن الإستواء معلوم، وأن ما لا يجوز على الله منه غير معقول وغير متعين. وقد حصل لك التوحيد والإيمان بنفي التشبيه والاحمال على الله، فلا يلزمك سواه⁽²⁾.

وقال القاضي عياض: (وقول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: "أين الله؟"، قال الإمام: إنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب دليلًا على أنها موحدة، فخطبها بما يفهم قصده، إذ علامة الموحدين التوجه إلى الله إلى السماء عند الدعاء وطلب الحوائج؛ لأن العرب التي تعبد الأصنام، وتطلب حوائجها من الأصنام، والعجم من النيران، فأراد عليه السلام الكشف عن معتقدها هل هي ممن آمن؟ فأشارت إلى السماء، وهي الجهة المقصودة عند الموحدين كما ذكرنا. وقيل: إنما السؤال بأين هاهنا سؤال عما تعتقده من جلاله الباري سبحانه وعظمته. وإشارتها إلى السماء إخبار عن جلالته تعالى في نفسها، والسماء قبله الداعين، كما أن الكعبة قبله المصلين، كما لم يدل استقبال القبلة على أن الله تعالى فيها، كذلك لم يدل التوجه إلى السماء والإشارة إلى السماء على أن الله سبحانه فيها... والمسألة بالجملة - وإن تساهل في الكلام فيها بعض الأشياخ المقتدى بهم من الطائفتين - فهي من معوصات مسائل التوحيد⁽³⁾.

وقال الإمام البيهقي: (قال: سمعت ابن عيينة، يقول: ما وصف الله تعالى به نفسه فتفسيره قراءته، ليس لأحد أن يفسره إلا الله تبارك وتعالى، أو رسله صلوات الله عليهم)⁽⁴⁾.

ورد الإمام الثوريشتي كون الجارية خرساء ثم رجع التسليم فقال: (والسبيل فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلقى بالقبول، فإن تدارك الله المبلغ إليه بالفهم فيه، فذلك هو الفضل العظيم، وإن قصر عنه فهمه، فالسلامة في التسليم، ورد العلم فيه إلى الله وإلى الرسول، مع نفي ما يعترض الخواطر فيه من المعاني المشتركة والأوصاف الموهمة للمشاكلة، وقد عرَّ جناب الكبرياء عما تنصرف فيه الأوهام، وتلتقفه الأفهام، وتدركه الأبصار، وتحيط به العقول: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: 11] ... قال الله سبحانه: {أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور} [الملك: 16] ولا شك أنه يريد به نفسه، وليس ذلك أنه محصور فيها. ولكن على معنى: أن أمره ونهيه جاء من قبل السماء، فوقع الإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث إلى مثل ما

¹ الإمام أبو بكر ابن العربي، القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: 966-967).

² الإمام أبو بكر ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك (3/ 451-452).

³ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (2/ 465-466).

⁴ البيهقي، الأسماء والصفات (338/2).

نطق به التنزيل. وقد كان صلى الله عليه وسلم في توقيف العباد على الشئون الإلهية والأمور الغيبية على صراط مستقيم، لم يكن لغيره أن يسلك ذلك المسلك إلا بتوقيفه، وقد أُذِن له في ذلك ما لم يُؤذَن لغيره. وكان رحمة من الله على عباده، بعث إلى كافة الخلائق، بعد أن كانوا على طبقات شتى ومنازل متفاوتة من عقولهم وآرائهم وإدراكاتهم واستعداداتهم، وكان منهم القوى والضعيف، والبالغ والقاصر، والكامل والناقص، فكان يأتي في تعريف ما قد علم أن بالناس حاجة إلى معرفته سهل المتناول، غزير المعنى، يأخذ العارف منها حظه، ويعلم الجاهل بما دينه، ويتضح بما أشكل، ويقرب بما ما بعد، قد علم كل أناس مشربهم، وكان صلى الله عليه وسلم معنيًا بأن يكلم الناس على قدر عقولهم، فلم يكن ليكلم جارية ضعيفة العقل واهية الرأي، فاترة النظر، قاصرة الفهم بما يقتضيه صرف التوحيد، ويكشف عن حقيقته نور القدس، فتزداد حيرة إلى حيرتها، لكن قنع منها بأن تعلم أن لها ربًّا يدبر الأمر من السماء إلى الأرض فسألها عن ذلك، على ما تبصره من حالها، وتبينه من مقدار عقلها، وكان صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بالله، وأعلمهم بطريق الهداية إليه، فليس لأحد من خلق الله أن يشتمز عن قالة قالها، أو يتنكب عن محجة سلكها، فما يأتي منه إلا ما طاب وكرم، وما له منا- فيما بلغنا عنه- إلا السمع والطاعة، والرضا والتسليم، صلى الله عليه أفضل ما صلى على أحد من عباده المكرمين⁽¹⁾.

وقال ابن المنير (683هـ) بعد باب قوله تعالى تعرج الملائكة والروح إليه، من كتاب التوحيد في صحيح البخاري: (قلت: رضي الله عنك! جميع ما ساقه في الترجمة مطابق لما من ذكر العروج والصعود نحو ذلك، إلا حديث ابن عباس، فليس فيه إلا قوله: "رب العرش العظيم". فوجه مطابقته أنه نبه على بطلان قول من أثبت الجهة والحيز وقول من فهم من قوله: "ذي المعارج" أن العلو الفوقي مضاف إلى الحق على ظاهره. فبين البخاري أن الجهة التي يصدق عليها أنها سماء، والحيز الذي يصدق عليه أنه عرش، كل ذلك مخلوق مريب ومحدث، وقد كان الله ولا مكان ضرورة. وحدثت هذه الأمكنة. وحدوثها وقدمه - جل جلاله - يحيل وصفه بالتحيز فيها لأنه لو تحيز لاستحال وجوده قبل الحيز مثل كل متحيز. تعالى الله عن ذلك⁽²⁾). وقال الزرقاني: ("أين الله؟ فقالت: في السماء" قال ابن عبد البر: هو على حد قوله تعالى: {أأمنتم من في السماء} [الملك: 16] و{إليه يصعد الكلم الطيب} [فاطر: 10]⁽³⁾).

وقال الصنعاني: (قوله: "أين الله": هذا دليل لما قاله ابن عبد السلام: إن الله تعالى اغتفر للعامة اعتقاد الجهة؛ لأنهم لا يعرفون إله إلا ذا جهة، فلم يكلفهم الله بخلاف ما يعرفونه، وعليه ورد السؤال بأين الله؟ وأقر صلى الله عليه وسلم جوابها بأنه في السماء وعليه: {وهو الله في السماوات} الآية، {أأمنتم من في السماء} وللعلماء أبحاث طويلة في هذا بينهم وبين الخنابلة⁽⁴⁾)⁽⁵⁾.

¹ التوريشي، الميسر في شرح مصابيح السنة (3/ 777-778).

² ابن المنير، المتواري على أبواب البخاري (ص: 424).

³ الزرقاني، شرح الزرقاني على الموطأ (4/ 146).

⁴ الصنعاني، التحرير لإيضاح معاني التيسير (1/ 163).

⁵ قال سلطان العلماء: (وأما كونه عالما يعلم قادرا بقدرته فإنه مما يلتبس، وقد اختلف الناس فيه لالتباسه، وكذلك القول في قدم كلامه وفي أن ما وصف به نفسه من الوجه واليد والعين صفات معنوية قائمة بذاته أو هي متأولة بما يرجع إلى الصفات فيعبر بالوجه عن الذات، واليدين عن القدرة، والعينين عن العلم. وكذلك اختلف الناس أهي جهة أم لا جهة له مما يطول النزاع فيه ويعسر الوقوف على أدلته، وقد تردد أصحاب الأشعري - رحمه الله - في القدم والبقاء أهما من صفات السلب أم من صفات الذات؟ وقد كثرت مقالات الأشعري حتى جمعها ابن فورك في مجلدين وكل ذلك مما لا يمكن تصويب للمحتدين فيه بل الحق مع واحد منهم، والباقيون مخطئون خطأ معفوًا عنه لمشقة الخروج منه والانفكاك عنه، ولا سيما قول معتقد الجهة فإن اعتقاد موجود ليس بمتحرك ولا ساكن ولا منفصل عن العالم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه لا يهتدي إليه أحد بأصل الخلقة في العادة، ولا يهتدي إليه أحد إلا بعد الوقوف على أدلة صعبة المدرك عسرة الفهم فأجل هذه المشقة عفا الله عنها في حق العادي. ولذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يلزم أحدا ممن أسلم على البحث عن ذلك بل كان يقرهم على ما يعلم أنه لا انفكاك لهم عنه، وما زال الخلفاء الراشدون والعلماء المهتدون يقرون على ذلك مع علمهم بأن العامة لم يقفوا على الحق فيه ولم يهتدوا إليه، وأجروا عليهم أحكام الإسلام من جواز المناكحات والتوارث... ولولا أن الله قد ساعدهم بذلك وعفا عنه لما أجريت عليهم أحكام المسلمين، ومن زعم أن الإله يحل في شيء من أجساد الناس أو غيرهم فهو كافر لأن الشرع إنما عفا عن المجسمة لغلبة التجسم على الناس فإنهم لا يفهمون موجودا في غير جهة بخلاف الحلول فإنه لا يعم الابتلاء به ولا يخطر على قلب عاقل ولا يعنى عنه). الإمام العز بن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (المتوفى: 660هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنعام. مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة 1414هـ، (1/ 201-202). قلت: وكلام العز ابن عبد السلام نفيس جدا في هذه المسألة فشدد يديك به.

الترجيح

لفظ: "أين" موضوع للاستفهام عن المكان وهو مصروف عن ظاهره باتفاق السلف والخلف¹ لقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)، وجهة السماء هي جهة التعظيم وجهة الغيب بالنسبة لعامة الناس، فالإشارة إلى السماء من الجارية كانت كافية في تفهيمها بأنها لا تعبد غير الإله العظيم الذي خلق السماوات، ويملكها ويتصرف فيها، الذي يعبد أهل السماء والأرض، وقد تقدست أسماء الله سبحانه في السماوات والأرض، وقوله: (السماء التي فيها الله) أي جنة الله ومكان رؤيته سبحانه وتعالى، ومثل هذا الحذف والتقدير شائع في اللغة العربية غير متكلف، والله أعلم.

¹ انظر: الخطابي، معالم السنن (1/ 222-223). وابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث (ص: 393-396). ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين (4/ 235). والمازري، المعلم بفوائد مسلم (1/ 412)، وأبو بكر ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك (6/ 518-519). والمظهر، المفاتيح في شرح المصابيح (4/ 108)، والنووي، شرح صحيح مسلم (5/ 24-25)، والطبري، شرح المشكاة (7/ 2352)، وابن حجر، فتح الباري، (13/ 402). وابن الملك، شرح المصابيح (4/ 36). والعيني، بدر الدين محمود بن أحمد (المتوفى: 855هـ)، شرح سنن أبي داود. تحقيق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، (4/ 186)، والسيوطي، شرح صحيح مسلم (2/ 217)، وحاشية السيوطي على سنن النسائي (3/ 18-20)، وتنوير الحوالك شرح موطأ مالك (2/ 140)، والمناوي، فيض القدير (1/ 473)، والصنعاني، التيسير بشرح الجامع الصغير (1/ 454-455)، والتحبير لإيضاح معاني التيسير (5/ 498-496). والعزيزي، السراج المنير شرح الجامع الصغير (3/ 36). والسندي، حاشية السندي على سنن النسائي (3/ 18). ومحمود خطاب السبكي، المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود (6/ 33-34).

الخاتمة

في ختام البحث أحمد الله تعالى على إعانته على إتمام البحث وأسأله سبحانه أن يتم نعمته علينا بأن يتقبله ويلقي له القبول وأن ينفع به وقد توصلت لعدة نتائج أجمالها فيما يلي.

النتائج

- 1- جمهور المحدثين على صرف ألفاظ النصوص الموهمة للتجسيم والتشبيه عن ظواهرها. واختلفوا في كيفية صرف الظاهر؛ فكثير منهم رآه في تفويض معناه إلى الله، ومنهم من رآه بتأويله وأخذ معنى من المعاني التي يحتملها اللفظ ولا يأباه الشرع والعقل، وبعضهم جمع بين الحسنيين فيفوّض علم معاني هذه الألفاظ إلى الله تعالى مع استحضاره لعدة معانٍ مستساغة من اللفظ تصلح لتأويله بأحدها. ويرجح الباحث أن ما كان تأويله قريباً وشائع الاستعمال في اللغة فيؤول، وما كان تأويله بعيداً وقليلًا استعماله في اللغة فيفوّض علم معناه إلى الله، والله أعلم.
- 2- ضرورة تعلم اللغة العربية بكل فروعها - وأخصّ البلاغة منها - لطلاب العلوم الشرعية عامة وطلاب علم الحديث الشريف خاصة، وذلك ليحسن فهمنا للنص وفحواه واستعاراته ومجازاته واستعمالات العرب للألفاظ وغير ذلك مما يقرب مقصود نصوص الوحي إلى عقولنا.
- 3- سلامة الوحي الشريف من التناقض والخلل والإشكال، وإنما الإشكال كائن في عقل وفهم المعترض ومنشؤه الجهل وقلة الاطلاع، وضيق الصدر والأفق.
- 4- الله عز وجل منزّه عن التجسيم وعن مشابهة الحوادث، وعن الكون في مكان، وعن كل نقص، بل هو منزّه عن كلّ كمال يخطر ببالنا فكمالاته سبحانه أعظم من أن نحيط بها أو تدركها خواطئنا.
- 5- السماء أو العرش: هو الغيب بالنسبة للعامي البسيط الذي يعسر عليه فهم المقدمات والنتائج لذلك كان اعتقاده أن الله في السماء هو تنزيه وتعظيم في نظره وهو معذور به.
- 6- ثراء تراثنا بالعلم المنوّر العزيز الذي يَنبُت عن عظمة عقول وقلوب أولئك القوم السابقين الذين تولاهم الله، وهو يتولى الصالحين، فوجب علينا أن نقول في حقهم: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.
- 7- غلب على السلف التفويض ومع ذلك فكثير منهم في بعض المواطن أوّل ومنهم الإمام مالك والأوزاعي وأحمد.
- 8- الإمام القاري من كبار أهل السنة والجماعة وأهل الحديث، ومذهبه في التعامل مع أحاديث الصفات: التفويض والتسليم مع نفي التشبيه، أو التأويل بما يليق مع التنزيه.
- 9- بلغ عدد الأحاديث التي استخرجتها من (مرقاة المفاتيح) خمسين حديثًا [71] أزال الإمام القاري إشكالها الظاهري بقوة علمية مستفيداً ممن سبقه من الراسخين في العلم، ومضيفاً من لمساته ما يوضح سعة علمه وحسن فهمه وصفاء ذهنه وعلوّ شأنه.
- 10- للإمام القاري نفس صوفي طيّب ظاهر في شرحه.
- 11- يتبع الدليل فيعترض على المخالف ولا يحايي أحداً ولو كانوا شيوخه في العلم، لكنه يرد بغاية الأدب.
- 12- شخصيته العلمية النقدية ظاهرة، من حيث معارضته لأقوال العلماء بعد عرضها، أو: موافقته وتأييده لما يستحسنه منها.
- 13- لا يتكلم في التصحيح والتحسين والتضعيف.
- 14- يشرح الحديث المشكّل ويذكر أوجه حلّ إشكاله وإن كان الحديث ضعيفاً.

- 15- قد ينقل عن بعض شيوخه دون عزو الكلام إليهم، ولعل ذلك حين تَبَيَّنَ الكلام، فإنه لن يذكر بعده اعتراضاً أو توضيحاً أو ما شابه ذلك والله أعلم.
- 16- في كثير من الأحيان يكون كلامه مزيلاً للإشكال بشكل تام من عدة أوجه. وأحياناً يذكر قولاً واحداً ويكتفي به.

التوصيات

- 1- أوصي إخواني طلاب العلم بالاهتمام بكنوز التراث العظيم الذي تركه لنا السابقون من العلماء العاملين وأن يستخرجوا كنوزه ودرره ومكنوناته.
- 2- وأن يُدرّس كل عالم من الأئمة من كل جوانب علمه النافع دراسة كافية وافية تجمع الفوائد العظيمة التي تركها ماثورة في مصنفاته.
- 3- وأن يغوص طلاب العلم الشرعي في كتب شروح الحديث خاصة ففيها ما لذ وطاب من ثمار الوراثة المحمدية صلى الله عليه وسلم وفيها ما لن يُعيني التعبير على إيصاله للقارئ، إذ لابد من تذوق تلك الحالة تذوقاً لا سماعاً. ونسأل الله العلم النافع والعمل الصالح والقبول والإخلاص إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين.
- وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	طرف الآية
128.....	{أأنتم من في السماء} [الملك: 16]
143.....	{إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم} [الأحزاب: 10]
135،41.....	{الرحمن على العرش استوى} [طه: 5]
33.....	{الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده} [العنكبوت: 62]
140.....	{إن إبراهيم كان أمة قانتاً} [النحل: 120]
119.....	{إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} [الأحزاب: 57]
112.....	{إن الله معنا} [التوبة: 40]
132.....	{إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: 58]
127.....	{إن الله يحب التوابين} [البقرة: 222]
52.....	{إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا} [فاطر: 41]
154.....	{إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} [الشعراء: 27]
73.....	{أن لهم قدم صدق عند ربهم} [يونس: 2]
1.....	{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: 9]
52.....	{إني جاعل في الأرض خليفة} [البقرة: 30]
82.....	{وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} [البقرة: 157]
143.....	{بعوضة فما فوقها} [البقرة: 26]
113.....	{تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك} [المائدة: 116]
99،144.....	{ثم استوى إلى السماء} [البقرة: 29]
150.....	{ثم أوحينا إليك} [النحل: 123]
43،101.....	{جاء ربك} [الفجر: 22]
155.....	{ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا} [غافر: 7]
106، 98.....	{سأنزل مثل ما أنزل الله} [الأنعام: 93]
42.....	{سنسمة على الخرطوم}
25.....	{فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: 43]
133.....	{فإن كن نساء فوق اثنتين} [النساء: 11]
139.....	{فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها} [الروم: 50]
93.....	{فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: 115]
57.....	{فطرة الله التي فطر الناس عليها} [الروم: 30]
114.....	{فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: 17]

- 156..... {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: 5]
- 94..... {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} [البقرة: 194]
- 77..... {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم} [محمد: 22]
- 94..... {فيسخرون منهم سخر الله منهم} [التوبة: 9]
- 133..... {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا} [الأنعام: 65]
- 66..... {قل هو الله أحد} [الإخلاص: 1]
- 96..... {كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} [طه: 126]
- 40..... {كذلك زينا لكل أمة عملهم} [الأنعام: 108]
- 65..... {كل شيء هالك إلا وجهه} [القصص: 88]
- 144..... {كل من عليها فان - ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [الرحمن: 26 - 27]
- 122..... {لا تخافا إني معكما} [طه: 46]
- 50..... {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} [التين: 4]
- 123..... {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} [المائدة: 73]
- 55..... {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} [يونس: 26]
- 156..... {له معقبات من بين يديه ومن خلقه يحفظونه من أمر الله} [الرعد: 11]
- 153..... {لهم دار السلام عند ربهم} [الأنعام: 127]
- 46,22..... {ليس كمثله شيء} [الشورى: 11]
- 93..... {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم} [المجادلة: 7]
- 20..... {مشتبهًا وغير متشابه} [الأنعام: 99]
- 65..... {مما عملت أيدينا} [يس: 71]
- 106..... {نزل به الروح الأمين} [الشعراء: 391]
- 93..... {نسوا الله فنسيهم} [التوبة: 67]
- 101,138..... {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [البقرة: 210]
- 141..... {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم} [الحديد: 3]
- 25,101..... {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات} [آل عمران: 7]
- 117..... {وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين} [يونس: 10]
- 69..... {والتفت الساق بالساق} [القيامة: 29]
- 133..... {والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة} [البقرة: 212]
- 115..... {وألغيا سيدها لدى الباب} [يوسف: 25]
- 67..... {والله الغني وأنتم الفقراء} [محمد: 38]
- 154..... {والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: 25]
- 104..... {والمستغفرين بالسحار} [آل عمران: 17]
- 1..... {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: 44]

106.....	{وأُنزلنا من السماء ماء طهورًا} [الفرقان: 84]
106.....	{وبالأسحار هم يستغفرون} [الذاريات: 81].
94.....	{وجزاء سيئة سيئة مثلها} [الشورى: 40]
143.....	{ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات} [الزخرف: 32]
139.....	{وسع كرسيه السماوات والأرض} [البقرة: 255]
33.....	{وقالت اليهود يد الله مغلولة} [المائدة: 64]
68.....	{وقفوههم إنهم مسئولون} [الصفات: 24]
138.....	{وكان عرشه على الماء} [هود: 7]
47.....	{وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض} [الأنعام: 75]
128,62.....	{ولأصلبكنم في جذوع النخل} [طه: 71].
50.....	{ولقد خلقناكم ثم صورناكم} [الأعراف: 11]
123.....	{ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه} [آل عمران: 143]
43.....	{ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد} [الأنفال: 42]
25.....	{ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا} [النساء: 82]
129.....	{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: 107]
137.....	{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56]
40.....	{وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته} [الزمر: 67]
90.....	{وما كان ربك نسيًّا} [مریم: 64]
117.....	{وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا} [الإسراء: 15]
131.....	{وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: 24]
99,144.....	{ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} [ق: 16]
156.....	{وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84]
143.....	{وهو القاهر فوق عباده} [الأنعام: 61]
158.....	{وهو الله في السماوات وفي الأرض} [الأنعام: 3]
99,120.....	{وهو معكم أين ما كنتم} [الحديد: 4]
65.....	{يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: 56]
160.....	{يا هامان ابن لي صرخًا} [غافر: 36]
94.....	{يخادعون الله وهو خادعهم} [النساء: 142]
133.....	{يخافون ربه من فوقهم} [النحل: 50]
21.....	{يد الله فوق أيديهم} [الفتح: 10]
69.....	{يوم يكشف عن ساق} [القلم: 42-43]

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الصفحة	طرف الحديث
79.....	((آخر من يدخل الجنة رجل)).....
103.....	((أتعجبون من غيرة سعد؟)).....
126.....	((أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعراي فقال: جهدت الأنفس)).....
151.....	((أتى النبي صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع)).....
157.....	((أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله!)).....
59.....	((إذا دخل أهل الجنة الجنة)).....
142.....	((إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه)).....
51.....	((إذا قاتل أحدكم أخاه، فليجنب الوجه)).....
91.....	((إذا كانت ليلة النصف من شعبان)).....
91.....	((إذا كان يوم عرفة)).....
114.....	((اسمعوا إلى ما يقول سيدكم)).....
75.....	((أغيظ رجل على الله يوم القيامة)).....
88.....	((أكلفوا من العمل ما تطيقون)).....
59,65,99.....	((الحجر الأسود يمين الله في الأرض)).....
136.....	((الراحمون يرحمهم الرحمن)).....
118.....	((الله الله في أصحابي)).....
145.....	((الميت تحضره الملائكة)).....
75.....	((إن الله تعالى كتب كتاباً)).....
110.....	((إن الله تعالى يقول: أنا مع عبدي)).....
110.....	((إن الله تعالى يقول يوم القيامة)).....
26.....	((إن الله عز وجل وعدني)).....
121,82.....	((إن الله قال: من عادى لي ولياً)).....
69.....	((إن الله لا يخفى عليكم)).....
30.....	((إن المقسطين عند الله على منابر)).....
57.....	((أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يضرب وجهه غلام)).....
26.....	((إن أمتي لن تجتمع على ضلالة)).....
118.....	((إن رجلاً أمّ قوماً)).....
40.....	((إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن)).....
74.....	((إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة)).....
98.....	((أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟)).....

- 145.....((أنت الظاهر فليس فوقك شيء))
- 30.....((إنه سيكون بعدي هنات وهنات))
- 69.....((إني حدثكم عن الدجال))
- 66.....((تحاجت الجنة والنار))
- 55.....((تسمون أولادكم محمدا ثم تلعنوهم))
- 30.....((تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة))
- 27.....((تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {هو الذي أنزل عليك الكتاب}))
- 40.....((جاء حبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد))
- 51.....((خلق الله آدم على صورته))
- 70.....((خلق الله الخلق، فلما فرغ منه))
- 121.....((دخلت مع أبي على رسول الله صلى الله عليه وسلم))
- 51.....((رأيت ربي في أحسن صورة))
- 79.....((عجب الله من قوم يدخلون الجنة))
- 64.....((عن نور عظيم فيخرون له سجدا))
- 72.....((فأعطاهما حقوه فقال أشعرنهما إياه))
- 91.....((فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة))
- 57.....((فنعست في صلاتي فاستثقلت))
- 130.....((قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم))
- 99.....((قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن))
- 120.....((قلت: يا رسول الله أين كان ربنا))
- 142.....((قيل له ما المقام المحمود؟ قال: ذلك يوم))
- 137.....((كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف))
- 115.....((لا يسب أحدكم الدهر))
- 55.....((لا يسعني أرضي ولا سمائي))
- 34.....((لا يضحي بأربع من الضحايا وأشار البراء))
- 112.....((لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه))
- 112.....((لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل))
- 29.....((لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس))
- 125.....((ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب))
- 69.....((ما من نبي إلا أنذر))
- 30.....((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب))
- 145.....((من اشتكى منكم شيئا))
- 59.....((من صام يوما ابتغاء وجه الله بعده الله))

- 141.....((هل تدرون ما هذا؟ " . قالوا: الله ورسوله أعلم.))
- 29.....((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد))
- 25.....((وعندي ربي أن يدخل الجنة))
- 90،120.....((ومن أتاني يمشي أتيته هرولة))
- 149.....((يا أبا ذر ما السماوات السبع مع الكرسي))
- 106.....((يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله))
- 50.....((يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه))
- 92.....((يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون))
- 118.....((يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري))
- 134.....((يجبس المؤمنون يوم القيامة))
- 68.....((يخرج الدجال فيمكث أربعين))
- 29.....((يد الله ملى لا يغيضها نفقة))
- 29.....((يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة))
- 68.....((يعطى كل مسلم رجلاً من اليهود والنصارى))
- 107.....((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))
- 98.....((يقول الله تعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها))
- 68،110.....((يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن))
- 89.....((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء))

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة	اسم العلم
8.....	أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي
13.....	فضل الله بن الحسن التوريشتي
13.....	محمد بن عبد اللطيف الرومي (ابن الملك)
13.....	الحسين المظهري الزيداني
47.....	عبد الرحمن بن عائش الحضرمي
55.....	صهيب بن سنان بن مالك الرومي
81.....	علي بن محمد بن مهدي، أبو الحسن الطبري
83.....	مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ثم المقدسي
96.....	محمد بن عبد الهادي التتوي، نور الدين السندي
99.....	أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني
116.....	إبراهيم بن يوسف، ابن قرقول
127.....	عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي
129.....	إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي
129.....	محب الله الأكبر آبادي الهندي

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله (المتوفى: 360هـ)، الشريعة. تحقيق: عبد الله الدميحي، دار الوطن، الرياض، الطبعة: الثانية، 1420 هـ - 1999 م.
- الألوسي، نعمان بن محمود بن عبد الله، (المتوفى: 1317هـ)، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين. تقديم: علي السيد صبح المدني. مطبعة المدني، 1401 هـ - 1981 م.
- الأبناسي، إبراهيم بن موسى بن أيوب، (المتوفى: 802هـ)، الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح رحمه الله تعالى. تحقيق: صلاح فتحي هلال، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى 1418 هـ - 1998 م.
- أحمد ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.
- أحمد بن عبد العزيز القصير، الأحاديث المشككة الواردة في تفسير القرآن الكريم. دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، 1430 هـ.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (المتوفى: 630هـ)، أسد الغابة. دار الفكر، بيروت، 1409 هـ.
- ابن الأثير، أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري (المتوفى: 606هـ)، الشافي في شرح مسند الشافعي. تحقيق: أحمد بن سليمان - ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.
- الأدرنوي، أحمد بن محمد (من علماء القرن الحادي عشر)، طبقات المفسرين. تحقيق: سليمان بن صالح الخزري، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م.
- الأزرق، محمد بن عبد الله (المتوفى: 250هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق: رشدي الصالح ملحق، دار الأندلس للنشر، بيروت، د.ت.
- الأزهر، محمد بن أحمد (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة: الأولى، 2001 م.
- أسامة عبد الله الخياط، مختلف الحديث وموقف المحدثين منه. مطابع الصفا، مكة، الطبعة الأولى، 1406 هـ.
- ابن الأنباري، محمد بن القاسم (المتوفى: 328هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس. تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.
- الباباني البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم (المتوفى: 1399هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. طبع بعناية وكالة المعارف الجليلية، استانبول 1951 م.
- الباجي، سليمان بن خلف (ت: 474هـ) المنتقى شرح الموطأ. مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى 1332 هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (المتوفى: 256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري) تحقيق: زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ.
- البرماوي، أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم (المتوفى: 831 هـ)، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح. تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م.

- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)، شرح صحيح البخاري. تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الثانية، 1423هـ - 2003م.
- ابن بطة، عبيد الله بن محمد العُكْبَرِي (ت: 387هـ)، الإبانة الكبرى. دار الراجعية للنشر والتوزيع، الرياض، د.ت.
- البغوي، محيي السنة الحسين بن مسعود (المتوفى: 516هـ)، شرح السنة. تحقيق: شعيب الأرناؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، 1403هـ - 1983م.
- أبو بكر ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله (المتوفى: 543هـ)، المسالك في شرح موطأ مالك. دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1428هـ - 2007م.
- أبو بكر ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله (المتوفى: 543هـ)، القبس في شرح موطأ مالك بن أنس. تحقيق: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1992م.
- البيضاوي، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت 685هـ)، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة. تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، 1433هـ - 2012م.
- البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين (المتوفى: 458هـ)، الأسماء والصفات. تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى، جدة، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م.
- التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، (المتوفى: 741هـ)، مشكاة المصابيح. تحقيق: محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثالثة، 1985م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (المتوفى: 279هـ)، سنن الترمذي (الجامع الكبير) تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998م.
- التوريشتي، فضل الله بن حسن (المتوفى: 661هـ)، الميسر في شرح مصابيح السنة. تحقيق: د. عبد الحميد هنداي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الثانية، 1429هـ - 2008م.
- التنبكي، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد (المتوفى: 1036هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج. دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، الطبعة: الثانية، 2000م.
- الجشتي، محمد عبد الحليم، البضاعة المزجاة لمن يطالع أحاديث المرقاة. مكتبة إمدادية، ملتان-باكستان. د.ت.
- الجوزجاني، إبراهيم بن يعقوب (المتوفى: 259هـ)، أحوال الرجال. تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، حديث أكاديمي - فيصل آباد، باكستان، د.ت.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين. تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، د.ت.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، المستدرک على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1990م.

- ابن حبان، محمد بن حبان البستي (المتوفى: 354هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (صحيح ابن حبان). ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: 739هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408هـ - 1988م.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: 852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - 1415هـ.
- ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد، (المتوفى: 974هـ) فتح الإله في شرح المشكاة. تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1436هـ.
- ابن حمزة الحسيني، برهان الدين إبراهيم بن محمد (المتوفى: 1120هـ)، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف. تحقيق: سيف الدين الكاتب، دار الكتاب العربي - بيروت، د.ت.
- ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق (المتوفى: 311هـ)، التوحيد. تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهبان، مكتبة الرشد - السعودية، الطبعة: الخامسة، 1414هـ - 1994م.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (المتوفى: 388هـ)، أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري). تحقيق: محمد ابن سعد بن عبد الرحمن، جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، 1409هـ - 1988م.
- الخطابي، حمد بن محمد (ت: 388هـ)، معالم السنن. المطبعة العلمية، حلب، الطبعة الأولى 1351هـ.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (المتوفى: 463هـ)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، د.ت.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت: 681هـ)، وفيات الأعيان. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن (المتوفى: 255هـ)، مسند الدارمي (سنن الدارمي). تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة: الأولى، 1412هـ - 2000م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث (المتوفى: 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م.
- ابن الدماميني، محمد بن أبي بكر (المتوفى: 827هـ)، مصابيح الجامع. تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر - سوريا، الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (المتوفى: 748هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الأولى، 1382هـ - 1963م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (المتوفى: 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003م.
- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (المتوفى: 606هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (تفسير الرازي). دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420هـ.

- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (المتوفى: 795هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محمود بن شعبان، وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م.
- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (المتوفى: 795هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. تحقيق: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، دار السلام، الطبعة: الثانية، 1424هـ-2004م.
- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (المتوفى: 1122هـ)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الأعلام. دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة: الخامسة عشر، 2002 م.
- زكريا الأنصاري، زكريا بن محمد بن زكريا (ت 926 هـ)، فتح الباقي بشرح ألفية العراقي. تحقيق: عبد اللطيف هميم - ماهر الفحل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2002م.
- زكريا الأنصاري، زكريا بن محمد بن زكريا (المتوفى: 926 هـ)، منحة الباري بشرح صحيح البخاري (تحفة الباري). تحقيق: سليمان بن دريع العازمي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (المتوفى: 771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية، 1413هـ.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى: 902هـ)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر. تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى 1419هـ-1999 م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى: 902هـ)، فتح المغيـث بشرح الفية الحديث للعراقي. تحقيق: علي حسين علي، مكتبة السنة - مصر، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت: 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. دار مكتبة الحياة - بيروت.
- سعيد بن منصور (المتوفى: 227هـ)، التفسير من سنن سعيد بن منصور. دراسة وتحقيق: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م.
- السندي، محمد بن عبد الهادي التنوي، (المتوفى: 1138هـ)، حاشية السندي على سنن النسائي. مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م.
- السندي، محمد بن عبد الهادي التنوي، (المتوفى: 1138هـ)، كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه (حاشية السندي على سنن ابن ماجه). دار الفكر، الطبعة - الثانية، د. ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفارياي، دار طيبة، د. ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، ألفية السيوطي في علم الحديث. صححه وشرحه: الأستاذ أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، د. ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911 هـ)، التوشيح شرح الجامع الصحيح. تحقيق: رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد - الرياض. الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى 1416 هـ - 1996 م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، حاشية السيوطي على سنن النسائي. مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك. المكتبة التجارية الكبرى - مصر، 1389 هـ - 1969 م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ)، شرح سنن ابن ماجه. (مجموع من 3 شروح: (مصباح الزجاجة) للسيوطي، و(إنجاح الحاجة) لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي (ت 1296هـ)، و(ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات) لفخر الحسن بن عبد الرحمن الحنفي الكنكوهي (ت: 1315هـ). قديمي كتب خاتنة - كراتشي، د ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، قوت المغتذي على جامع الترمذي. إعداد الطالب: ناصر بن محمد الغريبي، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، 1424هـ.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى (المتوفى: 790هـ)، الاعتصام. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان - السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.
- الشنقيطي، محمد الحضر بن سيد عبد الله (المتوفى: 1354هـ)، كوثر المعاني الداراري في كشف خبايا صحيح البخاري. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1995 م.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت: 1250هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. دار المعرفة - بيروت.
- الشوكاني، محمد بن علي (المتوفى: 1250هـ)، نيل الأوطار. تحقيق: عصام الدين الصبابي، دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى: 764هـ)، الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، 1420 هـ - 2000 م.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل (المتوفى: 1182هـ)، التنوير شرح الجامع الصغير. تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل (المتوفى: 1182هـ)، التحرير لإيضاح معاني التيسير، تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م.
- طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى بن خليل، (المتوفى: 968هـ)، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية. دار الكتاب العربي - بيروت، د ت.
- الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني (المتوفى: 1341هـ)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ، 1999 م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد (المتوفى: 360هـ)، المعجم الكبير. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية، د ت.

- **الطبراني**، سليمان بن أحمد (المتوفى: 360هـ)، المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، د. ت.
- **الطبري**، محمد بن جرير (المتوفى: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري). تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
- **أبو جعفر الطحاوي**، أحمد بن محمد (المتوفى: 321هـ)، شرح مشكل الآثار. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1415 هـ، 1494 م.
- **الطبي**، شرف الدين الحسين بن عبد الله (743هـ)، شرح الطبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن). تحقيق: عبد الحميد هنداي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1417هـ-1997م.
- **ابن عابدين**، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحنفي (المتوفى: 1252هـ)، رد المختار على الدر المختار. دار الفكر - بيروت. الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م.
- **ابن عبد البر**، أبو عمر يوسف بن عبد الله (المتوفى: 463هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.
- **ابن عبد البر**، أبو عمر يوسف بن عبد الله (المتوفى: 463هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ.
- **ابن عبد البر**، أبو عمر يوسف بن عبد الله (المتوفى: 463هـ)، الاستذكار. تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ-2000م.
- **عبد الله مراد أبو الخير**، (ت: 1343هـ)، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة. تحقيق محمد سعيد العامودي، وأحمد علي، دار المعرفة، السعودية، الطبعة الثانية، 1406هـ.
- **عثمان الدارمي**، أبو سعيد عثمان بن سعيد (المتوفى: 280هـ)، الرد على الجهمية. تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير - الكويت، الطبعة: الثانية، 1416 هـ - 1995 م.
- **العجلوني**، إسماعيل بن محمد (المتوفى: 1162هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس. تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداي، المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
- **ابن عدي**، عبد الله بن عدي الجرجاني (المتوفى: 365هـ)، الكامل في ضعفاء الرجال. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م.
- **الحافظ العراقي**، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (المتوفى: 806هـ) شرح (التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي). تحقيق: عبد اللطيف المميم و ماهر فحل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002 م.
- **العراقي**، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (المتوفى: 806هـ)، طرح الشرب في شرح التقريب. أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى: 826هـ)، الطبعة المصرية القديمة، د. ت.
- **العز بن عبد السلام**، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (المتوفى: 660هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنام. راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة 1414هـ.
- **العزيمي**، علي بن أحمد (المتوفى: 1070هـ)، السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، د. ت.

- **العصامي**، عبد الملك بن حسين (المتوفى: 1111هـ)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
- **العظيم آبادي**، محمد أشرف بن أمير، شرف الحق، الصديقي، (المتوفى: 1329هـ)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الثانية، 1415 هـ.
- **ابن علان**، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي (المتوفى: 1057هـ)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة: الرابعة، 1425 هـ - 2004 م.
- **ابن العماد الحنبلي**، عبد الحي بن أحمد بن محمد (المتوفى: 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت. الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م.
- **عمر بن رضا كحالة الدمشقي**، (المتوفى: 1408هـ)، معجم المؤلفين. مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، د. ت.
- **العيني**، بدر الدين محمود بن أحمد (المتوفى: 855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت.
- **العيني**، بدر الدين محمود بن أحمد (المتوفى: 855هـ)، شرح سنن أبي داود. تحقيق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م.
- **ابن العيني**، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (المتوفى: 893هـ)، شرح ألفية العراقي في علوم الحديث. تحقيق: شادي بن محمد آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية، اليمن، الطبعة الأولى، 1432 هـ.
- **الغزالي**، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، المستصفى. تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م.
- **الغزالي**، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، المنقذ من الضلال. بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، د. ت.
- **الغزالي**، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، إحياء علوم الدين. دار المعرفة - بيروت، د. ت.
- **الغزالي**، أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى: 505هـ)، الاقتصاد في الاعتقاد. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
- **ابن الغزي**، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن (المتوفى: 1167هـ)، ديوان الإسلام. تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1990 م.
- **ابن فارس**، أحمد بن فارس (المتوفى: 395هـ)، مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ - 1979 م.
- **ابن فورك**، أبو بكر محمد بن الحسن (المتوفى: 406هـ)، مشكل الحديث وبياناه. تحقيق: موسى محمد علي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الثانية، 1985 م.
- **الفيومي**، أحمد بن محمد (ت: نحو 770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المكتبة العلمية، بيروت.

- **القاري، علي بن سلطان محمد** (المتوفى: 1014هـ)، المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى). تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بـ حلب. 1398هـ.
- **القاري، علي بن سلطان محمد** (المتوفى: 1014هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م.
- **القاري، علي بن سلطان محمد** (المتوفى: 1014هـ)، شم العوارض في ذم الروافض، تحقيق: د. مجيد الخليفة، مركز الفرقان للدراسات الإسلامية. الطبعة: الأولى، 1425هـ - 2004م.
- **القاري، علي بن سلطان محمد** (المتوفى: 1014هـ)، الأحاديث القدسية الأربعينية. تحقيق: عبد العزيز مختار، دار التوحيد للنشر والتوزيع - الرياض، د. ت.
- **القاري، علي بن سلطان محمد** (المتوفى: 1014هـ)، موعظة الحبيب وتحفة الخطيب. تحقيق: د. عبد الحكيم الأنيس، دائرة الشؤون الإسلامية، دبي - الإمارات العربية المتحدة. الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م.
- **القاري، علي بن سلطان محمد** (المتوفى: 1014هـ)، شرح نخبه الفكر في مصطلحات أهل الأثر. تحقيق: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، دار الأرقم - بيروت، د. ت.
- **القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد** (المتوفى: 1332هـ)، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث. دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت.
- **ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد** (المتوفى: 851هـ)، طبقات الشافعية. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت. الطبعة: الأولى، 1407هـ.
- **القاضي عياض بن موسى بن عياض** (المتوفى: 544هـ)، إكمال المعلم بفوائد مسلم. تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - مصر، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1998م.
- **ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (المتوفى: 276هـ)، تأويل مختلف الحديث. المكتب الإسلامي - مؤسسة الإشراف، الطبعة الثانية، 1419هـ - 1999م.
- **ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف** (المتوفى: 569هـ)، مطالع الأنوار على صحاح الآثار. تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، 1433هـ - 2012م.
- **القسطلاني، أحمد بن محمد** (المتوفى: 923هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، الطبعة: السابعة، 1323هـ.
- **القسطلاني، أحمد بن محمد** (المتوفى: 923هـ)، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- **القنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي** (المتوفى: 1307هـ)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة: الأولى، 1428هـ - 2007م.
- **كاتب جلبي. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني** (المتوفى 1067هـ)، سلم الوصول إلى طبقات الفحول. تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسیکا - إستانبول، 2010م.
- **كاتب جلبي. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني** (المتوفى 1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مكتبة المثنى - بغداد. 1941م.

- **الكتاني**، محمد عبّد الحّيّ بن عبد الكبير ابن محمد (المتوفى: 1382هـ)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثانية، 1982 م.
- **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: 774هـ)، مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (مسند الفاروق). تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الوفاء - المنصورة، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م.
- **الكرماني**، محمد بن يوسف (المتوفى: 786هـ)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى: 1356هـ - 1937م، الطبعة الثانية: 1401هـ - 1981م.
- **الكلاباذي**، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق (المتوفى: 380هـ)، بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار. تحقيق: محمد حسن محمد حسن و أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ - 1999م.
- **الكوراني**، أحمد بن إسماعيل (المتوفى 893 هـ)، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري. تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- **اللاعي المغربي**، الحسين بن محمد بن سعيد (المتوفى: 1119 هـ)، البدرُ التمام شرح بلوغ المرام. تحقيق: علي بن عبد الله الزين، دار هجر، الطبعة: الأولى.
- **اللكنوي**، محمد عبد الحي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية. تحقيق: محمد النعساني، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1324هـ.
- **ابن ماجه**، محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: 273هـ)، سنن ابن ماجه. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م.
- **المازري**، محمد بن علي (المتوفى: 536هـ)، المعلم بفوائد مسلم. تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، الطبعة: الثانية، 1988 م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م.
- **مالك بن أنس**، (المتوفى: 179هـ)، الموطأ. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي - الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م.
- **المباركفوري**، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (المتوفى: 1353هـ)، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي. دار الكتب العلمية - بيروت. د ت.
- **المحبي**، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي (المتوفى: 1111هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. دار صادر - بيروت، د ت.
- **محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري**، الهندي (المتوفى: 1353هـ)، العرف الشذي شرح سنن الترمذي. دار التراث العربي - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م.
- **محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري** (المتوفى: 1353هـ)، فيض الباري على صحيح البخاري. تحقيق: محمد بدر عالم الميرتقي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.
- **محمد عبد الرحمن الشماخ**، "الملا علي القاري: فهرس مؤلفاته وما كتب عنه" المنشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الأول، مطبوعات مركز جمعية الماحد للثقافة والتراث - دبي.
- **محمود محمد خطاب السبكي**، المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود. تحقيق: أمين محمود محمد خطاب (من بعد الجزء 6)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، 1351-1353 هـ.

- مخلوف، محمد بن محمد (المتوفى: 1360هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م.
- مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس. دار الهداية، د. ت.
- مرعي بن يوسف، بن أبي بكر المقدسي (المتوفى: 1033هـ)، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ.
- مساعد المطرفي، (ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات) رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة.
- مسلم، بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت.
- المظهر، الحسين بن محمود (المتوفى: 727 هـ)، المفاتيح في شرح المصابيح. من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م.
- ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي (المتوفى: 804هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح. تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي (المتوفى: 804 هـ)، المعين على تفهم الأربعين. دراسة وتحقيق: الدكتور دغش بن شبيب العجمي، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، حولي - الكويت، الطبعة: الأولى، 1433هـ-2012م.
- ابن الملك، محمد بن عز الدين عبد اللطيف (المتوفى: 854 هـ)، شرح مصابيح السنة للإمام البغوي. تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1433هـ - 2012م.
- المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين (المتوفى: 1031هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير. المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، 1356هـ.
- المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين (المتوفى: 1031هـ)، التيسير بشرح الجامع الصغير. مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، الطبعة: الثالثة، 1408هـ - 1988م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب. دار صادر، بيروت. الطبعة: الثالثة، 1414هـ.
- ابن المنير، أحمد بن محمد (المتوفى: 683هـ)، المتواري علي تراجم أبواب البخاري. تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا - الكويت، د. ت.
- موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم. دار الشروق، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2002 م.
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، معرفة الصحابة. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998م.
- النسائي، أحمد بن شعيب (المتوفى: 303هـ)، المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي). تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406هـ - 1986م.
- النسائي، أحمد بن شعيب (المتوفى: 303هـ)، السنن الكبرى. تحقيق: حسن عبد المنعم شلي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

- النووي، محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، 1392م.
- ابن هبيرة، أبو المظفر يحيى بن (هَبِيرَة بن) محمد بن هبيرة (المتوفى: 560هـ)، الإفصاح عن معاني الصحاح. تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، 1417هـ.
- أبو يعلى، أحمد بن علي الموصلي (المتوفى: 307هـ)، مسند أبي يعلى. تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، 1404 هـ - 1984م.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون.